المشرق

السنة الثالثة والاربعون

نيسان – حزيران ١٩٤٩

سمات النصارى واليهود في الاسلام

الصليب والزنار والعمامة والغيار

الشروط العمرية

بقلم حبيب زيات

لا بدّ لمن شاء درس تاريخ النصرانية في الاسلام، منذ الفتح الى اواخر القرن الثالث عشر للهجرة، من البحث في الاسباب والعوامل التي أدّت الى تقلّص ظلّ المسيحية وانحطاطها في الشرق، بعد ان كانت شائعة في اعظم المعابد، سائدة في اكثر الامصار. واول ما يبدو له من هذه الاسباب، بعد تغلّب الدين الاسلامي، « الشروط المشهورة بالعمرية » التي اوجبها الشرع على اهل الذمّة، ومعظمهم من اهل الكتاب، الذين اقرّهم الرسول وخلفاؤه في حمايتهم، كما يقال اليوم. وهذه الشروط هي التي جرّت عليهم في كل حين اصناف المحن والشدائد، وارغمت الكثيرين منهم على الخروج

من دين اباثهم ، وانتحال الاسلام صيانة لدمائهم واموالهم ، وهرباً من الذل والصغار . فاقفرت الديار والاديار ، « وعادت الكنائس مساجد والبيع معابد والصوامع جوامع والمذابح اسدة الشيطان مصارع » ، كما قال العماد الاصبهاني[1] .

ولا نعلم ان احداً تصدَّى قطّ للتنقيب في أصل هذه الشروط القاهرة ، وفي اي زمن وُضعت حتيقةً لمعرفة صحة نسبتها ، كما زعموا ، الى الخليفة عمر بن الخطاب ، او نبّه على ما طرأ عليها بتوالي السنين وتعاقب الدول من الزيادات ، ودُسَّ فيها من الزور والباطل . واقلّ ما يجوز اليوم ان يقال فيها بالاجمال انها وضعت بعد الصدر الاول من الاسلام ، ونسبت مغالطةً لثاني الخلفاء الراشدين ، ليكون لها بفضل التلقّب باسمه اصل راسخ في السنة ، وتكتسب من مزيّة الانتماء اليه سلطة لا تعادلها سلطة اخرى بعد الشارع الاول .

ومن تدبَّر هذه الشروط بعين الناقد البصير ، وتذكّر موقف الامام الذي قاد اول خُطى الاسلام ، وشهد اعظم الفتوح التي غيّرت وجه البسيطة ، ونهضت بالعرب من الثرى الى الثريا ، يدرك لأوّل وهلة استحالة نسبة هذه الشروط الى ابن الخطاب ، لكثرة ما كان يثقل عاتقه وقتئذٍ من اعباء السياسة ، ويستغرق كل اوقاته من مشاغل الولاية والتدبير ، او يتوزع باله من مهامّ تعبئة الجيوش ومتابعة الامدادات وتوجيه الامراء واختيار العمال ومراقبتهم وكتابة اموالهم اذا ولّاهم . ثم مقاسمتهم ما زاد عليها ، فيما قيل[2] . ومن اشدّ ما كان يستدعي نظره من الامور ما كان اوصاه به ابو بكر من « الحذر من هؤلاء النفر من اصحاب رسول الله الذين انتفخت اجوافهم وطمحت ابصارهم واحب كل امرئ لنفسه »[3] .

وقد ذهبوا كلّ مذهب في وصف تيقظه وسهره وشدة سيطرته ، حتى مثّلوه لنا دائماً وبيده الدرّة المشهورة يطوف بها الاسواق ، ويقوّم الاخلاق ، ويتجسّس ما يقال ليلاً في المنازل والاحياء ليقف على ما تنشده المرأة في خدرها ويطّلع على كل سرّ وخفية ، ومع ما وصفوه به من الغلظ والفظاظة ،[4]

(١) كتاب الروضتين في اخبار الدولتين لابي شامة ٢ : ١٢٤

(٢) فتوح البلدان للبلاذري ، طبعة اوربة ، ٢ : ٢١٩

(٣) كتاب الخراج لابي يعقوب ، ١٢-١٣

(٤) كتاب الخراج ١٢-١٣ ، ومروج الذهب للمسعودي ٧ : ٤٥

اشتدوا ، في ضدّ ذلك ، في نعته برقة القلب وحبّ المساكين والفقراء والحرص على توزيع الصدقات والاعطية بيده ، ورووا حديث من قال : « رأيت عمر ابن الخطاب يحمل ديوان خزاعة حتى يترل تُديد فتأتيه بقديد النساء فلا تغيب عنه امرأة بكر او ثيب فيعطيهنّ في ايديهنّ ثم يروح فيترل عسفان فيفعل ذلك حتى توفي »[1] فهل يُعقل أنّ مَن استقلّ بمثل هذه الاعمال ، التي لا تقوم بها الّا الجموع ، يجد فراغاً من وقته للتدخل في خياطة سراويلات النصارى ، وفرق شعورهم ، وشرك نعالهم ، وما اشبه من الخسائس التي لم يستحيوا من الصاقها به ؟ ومن الغريب ان يذهل الفقهاء عما يترتّب على مثل هذه التهمة الشائنة من الغضّ والتحقير لمن اتصف نظيره بسموّ المدارك وثقوب الفطنة ، وبعد النظر في السياسة والمداراة ، وكان لا يخفى عليه شدّة حاجته الى رعيّته النصارى اهل البلاد من الأكرة والمزارعين والصناع والتجار لتموين الجنود بالاغذية والاسلحة والالبسة ، والنهوض بسائر مقتضيات الحضارة التي تقوم عليها قواعد مملكته ، في حين لم يكن للعرب البادية اقلّ دربة عليها او استطاعة لها ، فضلاً عن معرفته قبلاً ما تقدم للعرب الغسانيين والمنذريين النصارى من التحزّب لانهم العرب المسلمين ، والانضمام اليهم لقتال الاعداء من الروم والفرس . ولا شكّ انه كان يلمح ايضاً اسراع اليعاقبة والنساطرة من فرق النصارى الى فتح ابواب المدن للعرب المحاصرين ، واستقبالهم بمزيد الابتهاج والطرب ؛ واعانهم المتألسون اي المغنون والراقصون بغضة منهم للروم البيزنطيين ، الذين كانوا دائماً شديدي الظلم لهم والتضييق عليهم .

ومن اظهر الشواهد على حرص عمر على مداراة النصارى وعدم الاساءة اليهم لا حبّاً لهم في الحقيقة ، ولكن رغبة في استغلالهم واستخدامهم ، ما كتبه الى ابي عبيدة في الوصاة بهم حيث قال له :

« اذا اخذت منهم الجزية فلا شيء لك عليهم ولا سبيل أرأيت لو اخذناهم فاقتسمناهم ما كان يكون لمن يأتي بعدنا من المسلمين ؟ والله ما كانوا يحدون انساناً يأكلونه ولا ينتفعون بشيء من ذات يده وان هؤلاء يأكلهم المسلمون ما داموا احياء فاذا هلكنا وهلكوا اكل ابناؤنا ابناءهم ابداً ما بقوا فهم عبيد لاهل دين الاسلام ما دام دين الاسلام ظاهراً فضرب

١) فتوح البلدان ٢ : ٤٥٢

عليهم الجزية ، وكفّ عنهم السبي ومنع المسلمين من ظلمهم والاضرار بهم واكل اموالهم الا بحلها ووفّى لهم شرطهم الذي شرطت لهم على جميع ما اعطيتهم »[1]

وهذا الاقرار ، على جفائه وخشونته ، لا مزيد عليه في الصراحة والصدق. فالنصارى في نظر عمر تحوّل المسلمين وتأكل لهم ولابنائهم ، فحبّبه لهم محبة الوالد لدابته ، وعنايته بهم عناية الاعرابي بناقته لما تدرّ عليه من لبن او تنتجه من النَعَم . وفي معناه ايضاً ما رواه ابن عساكر عن الاوزاعي ان عمر كتب في اهل الذمة « ان من لم يطق منهم فخففوا عنه فانّا لا نريدهم لعام ولا لعامين »[2]. وعلى هذه القاعدة من حبّ الاستغلال والعناية بالرقيق والعبيد كانت تتمشى سياسة عمر وعمّاله. فقد رووا عن زياد أنّه كان يقول : « احسنوا الى المزارعين فانكم لا تزالون سالمًا ما حسنوا »[3]. ومعلوم ان المزارعين وقتئذٍ كان جلّهم من النصارى والانباط ، ولم يكن بينهم احد من الاعراب المسلمين لانصرافهم باجمعهم الى الغزو والجهاد.

ومثل هذه الشفقة الزائفة كان يحنو عمر على رعيّته من اهل الذمة . ولما قدم الشام « شكوا اليه وقالوا : يا امير المؤمنين انهم يكلفوننا ما لا نطيق يكلفوننا الدجاج والشاء فقال : لا تطعموهم الا مما تأكلون مما يحلّ لهم من طعامكم »[4] وهو ما يثبت انه كان على كل حال لا يخلو من عطف على المساكين والزمنى ولما كان بالجابية من ارض دمشق « مرّ بقوم مجذّمين من النصارى فامر ان يعطوا من الصدقات وان يجري عليهم القوت »[5].

واجتاز مرة في المدينة بباب قوم وعليه سائل يسأل شيخ كبير ضرير البصر فضرب عضده من خلفه وقال :

« من اي اهل الكتاب انت ؟ فقال يهودي قال : ما الجأك الى ما ارى ؟ قال اسأل للجزية والحاجة والسنّ . قال فاخذ عمر بيده وذهب به الى منزله فرضخ له بشيء من المنزل ثم ارسل الى خازن بيت المال فقال : انظر هذا وضرباءه فوالله ما انصفناه ان اكلنا شبيبته ثم

١) كتاب الخراج ١٦٨

٢) مجلد من تاريخ ابن عساكر ، خزانة بريتش موزيوم Or. 3024 f° 89

٣) عيون الاخبار لابن قتيبة ١ : ١٠٥

٤) مجلد من تاريخ ابن عساكر ، خزانة بريتش موزيوم Or. 3024 f° 90

٥) فتوح البلدان ١ : ١٣٩

فخذله عند الهرم . وانما الصدقات للفقراء والمساكين والفقراء هم المسلمون وهذا من المساكين من اهل الكتاب . ووضع عنه الجزية وعن ضربائه »[1]

« ولما رجع من الشام مرّ في مسيره على قوم قد أقيموا في الشمس يُصبّ على رؤوسهم الزيت فقال ما بال هؤلاء ؟ فقالوا عليهم الجزية لم يؤدّوها فهم يعذبون حتى يؤدّوها فقال عمر : ما يقولون هم وما يعتذرون به في الجزية ؟ قالوا : يقولون لا نجد قال : فدعوهم لا تكلفوهم ما لا يطيقون فاني سمعت رسول الله يقول : لا تعذّبوا الناس فان الذين يعذّبون الناس في الدنيا يعذّبهم الله يوم القيامة وامر بهم فخُلّي سبيلهم »[1]

ومن هذه الادلّة يتّضح ان عمر بن الخطاب كان رؤوفاً باهل الذمة محسناً اليهم ، ولم يكن قط ذلك الظالم الغاشم الذي صوّره لنا الرواة وصاغة الاخبار والاحاديث ، منهمكاً كلّ ايامه في مناقشة النصارى في ازيائهم والحقير من امورهم ، مولعاً باضطهادهم والاخذ بخناقهم . نعم ان رأفته لم تكن رأفة مجردة عن الحساب والفائدة ، ولكنها على كل حال سياسة ملك فطن حكيم بعيد سرامي النظر ، عارف باقدار الرجال من رعيّته ، بصير بحاجته الى الاكفياء منهم للولاية والتدبير .

وقد عزوا له ، في ضدّ ذلك ، اقوالاً لا تنطبق على احوال زمانه ، ولا تشبه آراءه في التدبير والولاية اهمها انكاره على عماله وامرائه الاستعانة بالنصارى في الكتابة والجباية وسائر الخدم الديوانية . وزعموا ان معاوية كتب له : اما بعد يا امير المؤمنين فان في عملي كاتباً نصرانياً لا يتم امر الخراج الا به فكرهت ان اقلده دون امرك فكتب اليه : عافانا الله واياك قرأت كتابك في امر النصراني اما بعد فان النصراني قد مات والسلام »[2] وقد روي مثل هذه الحكاية عن سعد بن وقاص في عامل يهودي بالعراق (صبح الاعشى ١ : ٦٢) وقوله : « مات النصراني والسلام » هو قول الخليفة العباسي الناصر لدين الله في ابن زطينا كاتب ديوان الانشاء ببغداد ، حين ابى ان يفارق دينه النصراني ، وتعذّر وقتئذ وجود مسلم كفوء له في علمه وخبرته يخلفه في منصبه . وطولع الخليفة في شأنه فكتب لهم : « مات ابن زطينا والسلام » اي ما تعملون اذا

---

١) كتاب الخراج ١٥٠-١٥١ .

٢) شروط النصارى لمحمد بن عبدالله بن احمد بن زبر الثمامي (رقم ٣٩٥٢ تاريخ) دار الكتب المصرية ص ٨٣ .

مات أليس تجدون حينئذٍ من يقوم مقامه ؟ ومع ذلك لم يتيسّر لهم استخلافه وما زالوا به حتى اسلم هو وابن اخته وقد ذهل مؤلف « شروط النصارى » عن بعد ما بين زمان الخليفتين وهو لا يقل عن ستة قرون ، ونسب لعمر ما هو في الحقيقة للناصر لدين الله العباسي .

وكلّ عارف باخبار ايام عمر ومعاوية يعلم ان الدواوين وقتئذٍ كانت بالشام كلها بالرومية ، وان كل كتابات الخراج والجباية والجند وسائر الاعمال السلطانية لم تكن تدوّن الا بالقلم الرومي ، وكذلك كانت النقود رومية حتى زمان عبد الملك بن مروان ، اي بعد ست وسبعين سنة من الهجرة ، فكانت تتداول وعليها الصليب وصورة المسيح وامه فلم يكن بدّ للعرب من كتاب يدوّنون فيهم الرومية وتعريبها ، ولذلك لم يكن عند معاوية كاتب واحد منهم فقط نصراني ليستشير في شأنه الخليفة ، بل مئات وآلاف من رجال القلم والملاحة والصناعة والتجارة والزراعة ، وكلهم من المسيحيين المخلصين لمعاوية الذين عرف كيف يؤلف قلوبهم ، وعليهم عوّل في سياسة مملكته ، واليهم حقيقةً يرجع الفضل في خدمتها وبناء قواعدها ، ولم يكن وقتئذٍ اجدر منهم بمثل هذه الخدمة واوفر اضطلاعاً باعبائها لخبرتهم بها ، وجهل العرب ، في زمان عمر ، غير الغزو والقتال والحرب لغاية البداوة عليهم . فلم يكن من ثم سبيل للاستغناء عن النصارى ، سكان البلاد . وقد شهد عمر بن عبد العزيز بحاجة العرب الى النصارى الذين سماهم مغالطةً اهل الشرك فقال في كتاب الى عمّاله « ان المسلمين كانوا فيما مضى اذا قدموا بلدة فيها اهل الشرك يستعينون بهم لعلمهم بالجباية والكتابة والتدبير »[1] واي ضرر تُرى كان يجد ابن الخطاب في كتابتهم سوى ما يدّعونه زوراً من بغضه لهم والحذر منهم كالجواب الذي وضعوه على لسانه حين « ذُكر له غلام كاتب حافظ من اهل الحيرة وكان نصرانياً فقيل له : لو اتخذته كاتباً فقال : لقد اتخذت اذاً بطانة من دون المؤمنين . »[2] وليُنظَر هل كان يوسع عمر حينئذٍ وجود بطانة له من الكتاب

١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابي محمد عبدالله بن عبد الحكم ، ص ١٦٥

٢) عيون الاخبار لابن قتيبة ١ : ٢٤

المؤمنين ، ومعظم الكتبة والحسّاب ، ان لم يكونوا كلهم ، من الكفار نصارى الحيرة والشام ؟ ولقد احتاج مرة الى واحد منهم ليفسّر له كتاباً ورد لا شك بالرومية فقال لابي موسى الاشعري « أدعُ لي كاتبك ليقرأ لنا كتباً جاءت من الشام فقال ابو موسى انه لا يدخل المسجد قال عمر : أبه جنابة ؟ قال : لا ولكنه نصراني قال فرفع يده فضرب فخذه حتى كاد يكسرها (وكذا كان عمر عندهم فظاً في كل ما يفعله) ثم قال : مالك قاتلك الله اما سمعت قول الله عز وجل : « يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى اولياء » ألا اتخذت رجلاً حنيفياً ؟ فقال ابو موسى : له دينه ولي كتابته فقال عمر : لا اكرمهم اذا اهانهم الله ولا أعزهم اذا اذلهم الله ولا ادنيهم اذا اقصاهم الله »[1].

وهذا الحديث بين الشبهة ، موضوع برمّته لا يصدق لا على ابي موسى ولا على عمر وهو قول جاهل حقيقة اخبار زمان عمر ، او ذاهل عنها ، ويشبه ان يكون قول رجل عاش في القرن الثاني او القرن الثالث للهجرة ، حين بدأت المساجد ان تكتسب بعض حرمة بيوت الله كالحرمة التي كانت معروفة للكنائس المسيحية المقدسة . وانما كانت المساجد قبلاً مجالس للقوم يجتمعون فيها ويتحدثون كالأندية ويطعمون ويشربون . ومن اظهر الشواهد على هذا المعنى ما ذُكر عن لبيد الشاعر انه « كانت له جفنتان يغدو بهما ويروح في كل يوم على مسجد قومه فيطعمهم[2] » ولذلك جاء في القرآن « يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا . » (٧ : ٢٩) ولما اتخذت المساجد ان تتحوّل الى معابد بقي فيها معنى الامية والابتذال ، ولم تتصف بكل ما يجب لها من المهابة والجلال ، فكان يدخلها الطاهر وذو الجنابة ، ويقيم فيها من شاء من المتبطلين المتعطلين روّاد اللهو ، كالاسواق يجتمع فيها التاجر والصيرفي والشاعر والمغني ، ولم تكن تبنى بادئ بدء بل تُختَط فقط او تُحوَّط بالقصب[3] ، ويُصلّى فيها فوق التراب . واول من فرش ارضها بالحصى فيما يظهر زياد « حين رأى الناس في مسجد البصرة ينفضون ايديهم اذا تربت وهم في الصلاة فقال :

١) عيون الاخبار لابن قتيبة ١ : ٤٢

٢) الاغاني ١٤ : ١٧

٣) فتوح البلدان ٢ : ٥٢

لا آمن ان يظن الناس على طول الايام ان نفض الايدي في الصلاة سنّة فامر بجمع الحصى والقائه في المسجد »[1]. ومن هذا الحصى المفروش في ارض المسجد كان رجال الشيعة يقذفون بعض الخطباء « ولما شخص معاوية من الكوفة وخلّف عليها المغيرة بن شعبة فصعد المنبر يوم الجمعة ليخطب حصبه حجر بن عدي وكان من شيعة علي في نفر من اصحابه »[2].

« وكان في مسجد بني جذيمة في الكوفة حوانيت الصيارفة »[3]. وربما عن للمتذاكرين في الطرب والغناء ان يجتمعوا في المساجد ويتناظروا في تفضيل المغنين ، وترتفع حينئذٍ في بيوت العبادة اصوات المتطربين بدلاً من انغام المرتلين . ذكر حماد قال :

« تذاكرنا ونحن في المسجد انا والزبير بن ابي الجهم الغناء ايّه احسن فجعل يقول واقول فلا نجتمع على شيء فقلت : اذهب بنا الى مالك بن ابي السمح فهو بيننا فوجدناه في المسجد فقال : ما جاء بكما فاخبرناه فقال قد جرى هذا بيني وبين معبد وقال وقلت فجاء في معبد يوماً وانا في المسجد وقال : قد جئتك بشيء لا تردّه فقلت : وما هو ؟ قال : لحن ابن سريج :

وليس بمرزوق اللسان وصوته ولكنه قد خالط اللحم والدما

ثم قال لي معبد : أسمعك ؟ قلت نعم واريته اني لم اسمعه قبل . فقال : اسمعه مني ففتّى فيه وغنى في المسجد فما سمعت شيئاً قط احسن منه فافترقنا وقد اجمعنا عليه »[4]

ومن اشنع ما يدلّ على امتهان المساجد وقلة مهابتها انه كان يُبال عندها ويُحدَث عند الحاجة ، دون اقلّ تورع . حكى المدائني قال :

كان نبهان رجلاً من الانصار وشهد بدراً وجلده النبي في الخمر اربع مرات : مرّ نبهان بمخرمة بن نوفل وقد كُفّ بصره فقال : ألا رجل يقودني حتى ابول ؟ فاخذ بيده نبهان فلما بلغ مؤخر المسجد قال هيهنا فَبُلْ فبال فصيح به فقال : من قادني ؟ قيل : نبهان قال : لله علي ان اضربه بعصاي هذه فبلغ نبهان فاتاه فقال له : هل لك في نبهان ؟ فقال نعم فقال : قم فقام معه فاتى به عثمان بن عفان وهو يصلي فقال : دونك الرجل فجمع يديه في العصا ثم ضربه فقال الناس : امير المؤمنين فقال : من قادني ؟ قالوا : نبهان فقال لا اعود الى نبهان ابداً »[5]

ومن هذه الملحة الفريدة يستدلّ على ان بعض الانصار كانوا يعرفون

---

١) فتوح البلدان ٣ : ٣٥٠

٢) الاخبار الطوال للدينوري ، ٢٢٦

٣) فتوح البلدان ٣ : ٣٨٥

٤) الاغاني ١ : ١١٣

٥) عيون الاخبار ١ : ٢٢٠

كيف يهزلون احياناً ويعبثون بحرمة المساجد ووقار الخلفاء.

وربما استباح بعض الصلحاء البول امام الناس في المساجد حدّث المقريزي في عقوده ان الشيخ احمد البدوي المشهور في مصر نزل الى الجامع « فلما فرغ الخطيب وأقيمت الصلاة وضع الشيخ رأسه في طوقه بعد ما قام قائماً وكشف عن عورته بحضرة الناس وبال على ثيابه وحصر المسجد واستتر ورأسه في طوق ثوبه وهو جالس الى ان انقضت الصلاة ولم يصلِّ »[1].

وهناك نكتة اخرى اشد دلالة على ابتذال المساجد وما بين يديها من الرحاب ، نقلها ابن عساكر ولم يرَ اقلّ حرج او خجل من تدوينها ونحن نستبيح القارئ العذر الجميل بروايتها عنه بلفظها القذر كما وردت في تاريخه المخطوط وتهذيبه المطبوع ، على قلة تهذيبه ، قال :

« انبأنا محمد بن زياد بن الاعرابي قال : قال الهيثم بن عدي مات الحجاج بن يوسف وفي سجنه ثمانون الفاً محبوسين منهم ثلاثون الف امرأة فوجد في قصة رجل : بال في الرحبة و . . ري في المسجد فقال اعرابي :

اذا نحن جاوزنا مدينة واسط . . ربنا وصلينا بغير حساب »[2]

ولما دخل عبدالله بن علي بن العباس دمشق دخلها بالسيف ثلاث ساعات من النهار وجعل مسجد جامعها سبعين يوماً اصطبلاً لدوابه وجماله[3].

واقبح من ذلك ان بعض الجوامع بعد تغلب الصيانة والعبادة عليها كانت لا تتنزه ، في بعض المدن ، عن جوار بيوت الفسق والبغاء الملاصقة لها . ومن هذه البلاد قصبة السوس في خوزستان زارها البشاري المقدسي وقال : « ترى فيها دور الزناء عند ابواب الجامع »[4]

وكانت بعض مساجد مصر غايـة في قلة النظافة واجتماع الاقذار فيها ، عاينها كذلك الرحالة المقدسي وقال في وصف اقليم مصر : « يكثرون الاشاوة في الصلاة والتنخع والمخاط في المساجد ويجعلونه تحت الحصر »[5]

---

١) الضوء اللامع لاهل القرن التاسع للسخاوي ٩ : ١٤٩ — ١٥٠

٢) تاريخ ابن عساكر المخطوط بدار الكتب الظاهرية بدمشق ٤ : ٣/١٣٥ وتهذيب ابن عساكر المطبوع ٤ : ٨

٣) تاريخ ابن عساكر ١٥ : ١٦١ ٤) احسن التقاسيم ٤٠٧ ٥) احسن التقاسيم ٥٢

ولما زار ابن سعيد المغربي فسطاط مصر في المئة السادسة للهجرة قال في وصف المسجد الجامع :

« دخلت اليه فعاينت حائطاً كبيراً قديم البناء غير زخرف ولا محتفل في حصره الذي تدور مع بعض حيطانه وتسط فيه . وانصرت العامة رجالا ونساء قد حملوه معهم ناحية اقدامهم يجوزون فيه من باب الى باب ليقرب عليهم الطريق والبياعون يبيعون فيه اصناف المكسرات والكعك وما جرى مجرى ذلك والناس يأكلون منه في امكنة عديدة غير عتيقة جرى العادة عندهم بذلك وعدة صبيان باوانى ماء يطوفون على من يأكل قد حملوا الماء ليصل لهم منه ورقاً وصلات مآكلهم مطروحة في صحن الجامع وفي زواياه والسكبوت قد عظم بسببه في السقوف والاركان والحيطان والصبيان يلعبون في صحنه وحيطانه مكتوبة بالفحم والحمرة خطوط قبيحة مختلفة من كتب فقراء العامة »[1]

وهذا الوصف ينطبق على غير مسجد واحد في مصر والشام ، فضلاً عما بعد من المدن والاقطار ، وهو وصف شبيه بالاسواق والرحاب منه بالمعابد والمصليات .

ومن هذه الاوصاف ونظائرها يتبين جيداً ان المساجد ، ولا سيما الاولى منها ، لم يكن لها قط مهابة الكنائس واجلالها ، فكان يدخلها او يخترقها من شاء من الطاهر والجنب كالطرق السابلة او المعابر ، فلا يصدق من ثم انه مُنع من المجيء اليها كاتب نصراني نظيف من كتاب الامراء احتاج اليه الخليفة نفسه لقراءة كتاب ورد له بالرومية ولم يستطع تفسيره له احد من بطانته المؤمنين . ويكفي القاء نظرة واحدة على كتب الاخبار والادب لمعرفة ان دخول النصارى المساجد كان مطلقاً مباحاً لا يُرى فيه اقلّ بأس . « وكان الوليد بن عقبة يُدخل ابا زبيد الشاعر الطائي المسجد وهو نصراني ويجري عليه وظيفة خمر وخنازير تقام له في كل شهر »[2]

وكان ابو زبيد هذا وفد على الوليد بن عقبة حين استعمله اخوه الخليفة ابن عفان على الكوفة ، فانزله الوليد داراً على باب المسجد لعقيل بن ابي طالب ، اخي الخليفة علي بن ابي طالب ، فكان ابو زبيد « يخرج من منزله حتى يشق الجامع الى الوليد فيسمر عنده ويشرب معه ويخرج فيشق المسجد وهو سكران »[3]

---

١) الخطط للمقريزي ١ : ٢٤١

٢) انساب الاشراف للبلاذري ٥ : ٢١

٣) الاغاني ٤ : ١٨١ — ١٨٢

وكان عكرمة الفياض ، كاتب بشر بن مروان ، اخي الخليفة عبد الملك ، قد تحمل حمالتين للاخطل الشاعر النصراني « وحدث امر بالكوفة فاجتمع له الناس في المسجد فقيل للاخطل ان اردت ان تكافئ عكرمة يوماً فاليوم. فلبس جبة خزّ وركب فرساً وتقلد صليباً من ذهب واتى باب المسجد ونزل عن فرسه . . . وجاء فوقف وابتدأ ينشد قصيدته :

« لمن الديار بحائل فوعال »[1]

« وكانت بكر بن وائل اذا تشاجرت في شيء رضيت الاخطل وكان يدخل المسجد فيقدمون اليه »[2]

ويؤخذ من هذه الشواهد ان المساجد كانت ايضاً مقامات للنصارى لانشاد الشعر ، ودوراً للقضاء تتحاكم اليهم فيها الخصوم ولذلك لما ولي محمد بن مسروق قضاء مصر عام ١٧٧/٧٩٣ « كان اول من ادخل النصارى المسجد ليحكم بينهم »

ومن شروط النصارى المنحولة لعمر بن الخطاب التي اقرّها الفقهاء والمؤرخون ، واحتجّ بها ابن تيمية في رسالة له في « مسئلة الكنائس » انه كان قد اشترط عليهم ان لا يتسموا باسماء المسلمين ولا يتكنوا بكناهم ولا يتلقبوا بالقابهم » وقد ابنّا بطلان هذه الخرافة في مقالة لنا توسعنا فيها جدًا ونشرناها في مجلة المشرق والخزانة الشرقية[3] فلتراجع .

ولو اردنا ان نتتبع بقيّة الشروط التي تداولها الكتاب ، دون ان اقلّ انتقاد لها ، لكان علينا دحضها بالحجج الصادقة وتبرئة الامام عمر بن الخطاب منها ، لانه اجلّ من ان يكون اقترف شيئاً من آثامها . وقد سكت عنها او جهلها كل الرواة الاقدمين ، واغفل ذكرها كلّ المؤرخين في القرنين الثالث والرابع ، ولم يشر اليها البلاذري بحرف واحد في كتابه « فتوح البلدان » وهو مظنّة وجودها ؛ ولما كتب المتوكل على الله كتابه الذي ابتدع فيه ظلم النصارى واذلالهم ، وامر فيه بالافحاش في التغليظ عليهم واضطهادهم ، لم يستشهد مرة بشيء من اقوال عمر في هذه الشروط ، وكان جديرًا ان يستند اليها في تصحيح اوامره والرجوع بها الى سنّة قديمة من تراث الخلفاء الراشدين . ويظهر ان

١) الاغاني ٧ : ١٨٧

٢) الاغاني ٧ : ١٧٩ ٣) المشرق سنة ١٩٦٨ عدد كانون الثاني - اذار ص ١-٢١

اول من رواها بنصها المشهور هو ابن عساكر ، ولم يذكر عن اي مؤلف قبله نقلها لنعلم من كان الواضع الاول لهذه الاحاديث الملفقة والارجح ان اول نواة نجمت منها في زمان الخليفة عمر بن عبد العزيز ، وهو اول من اصدر الاحكام الجائرة في حق النصارى واسف الى التضييق عليهم في البسهم وازيائهم .

وروى ابن عساكر ان عمر بن عبد العزيز كتب الى مالك بن المنذر بن الجارود : « اما بعد فان هذا الصليب علامة من علامة اهل الشرك لا يرون انه يقوم الا به وقد كانوا يظهرون منه امرًا كرهته ورأيت غيره فلا تدعنّ صليبًا ظاهرًا الا امرت به ان يكسر ان شاء الله واقمل ذلك في ما كان ارضك من صلب اهل الشرك » (١٦ : ١١٧)

وقد وقفنا في خزانة بريتش موزيوم في لندرة على شاهد قاطع لا يدع سبيلًا الى الشك والتردد في نسبة الشروط العمرية الى عمر بن عبد العزيز ونفيها عن عمر ابن الخطاب ، وهو رواية ابن عساكر باسناده له عن مسروق قال فيه بلسان النصارى عند ذكر الكنائس « ولا نأتي منها ما كان في خطط المسلمين » وزاد فيه « ولا نتشبّه بهم في شيء من لباسهم في قلنسوة ولا عمامة ولا سراويل ذات خدمة ولا نعلين ذات عذبة ولا شيء الا بزنار من جلد ولا يوجد في بيت احدنا سلاح الا انتهب » قال ابن غنم « وما رأيت هذه الزيادة في ما وقع الينا من عهود عمر بن الخطاب ووجدتها مروية عن عمر بن عبد العزيز . »[1]

وهذه الشهادة تؤيد كل التأييد نسبة الشروط الى الخليفة المرواني ونفيها عن الخليفة العدوي .

ومما يزيد في ترجيح هذا الرأي ويجدر ان يُحتجّ به ايضاً في اسقاط شروط اهل الذمة عن عاتق ابن الخطاب ، وإلحاق جانب منها بسميّه الخليفة الاموي شهادة وقفنا عليها لساويرس بن المقفع ، مؤرخ البطاركة الاقباط ، ننقلها بالحرف الواحد لاعترافه فيها بما تقدم لابن عبد العزيز من الاحسان الى النصارى والرفق بهم في بدء خلافته قال :

« كان هذا عمر بن عبد العزيز يصنع خيرًا عظيمًا امام الناس ويفعل السوء امام الله وامر ان لا يكون على اواني البيعة والاساقفة خراج وبدأ ان جعل البيع بغير خراج والاساقفة وبطل الجبايات وعمر المدن التي خربت وكانوا النصارى في امن وهدوء والبيع ثم بعد ذلك بدأ يفعل السوء وكتب كتابًا الى مصر مملوء غم وهو في مكتوب : « عمر يأمر ويقول :

١) مجلد من تاريخ ابن عساكر Or. 3024 f° 88

من اراد ان يقيم في حاله وبلاده فيكون على دين محمد مثله ومن لا يريد يخرج من اعمالي » وصاروا له النصارى ما بايديهم من التصرفات وتوكلوا على الله وصاروا خدمتهم المسلمين وصاروا عبرة لكثير ودخلت اليد على النصارى من الولاة والمتصرفين والمسلمين في كل مكان كبيرهم وصغيرهم غنيهم وفقيرهم وامر وقال ان تؤخذ الجزية من سائر الناس الذين لا يسلموا ولم تجرى عادتهم بالقيام بما قام به الله لكن اهلكه سرعة ولم يطل الملك لانه كان يشبه الدجال »[1]

ومن الامثلة التي تقدم بسطها ونقضها يتضح كثرة ما عُزي للامام عمر بن الخطاب من الانباء والاقوال المرجوحة ، والاحكام والاجوبة الموضوعة ، التي لا تشبه اخلاقه ، ولا تلائم زمانه وقد قبلها المؤرخون على علاتها واغضوا عن نفيها وتزييفها ، واقتصر العلماء من نقد الروايات والاحاديث المنحولة الصدر الاول من الاسلام على العلم المعروف بالجرح والتعديل ، وهو الذي نظروا فيه الى نقد من قال ، لا ما قيل ولذلك كثرت الريب والشبهات ، ولم يخل مؤلف واحد من بعض الاباطيل والخرافات ، وغلب الاعتقاد على صحة الشروط العمرية التي اختلقها الفقهاء باسم الخليفة الثاني وبنوا عليها مظالم النصارى مدة ثلاثة عشر قرناً ، وهي التي نثرت عقد نظامهم وشتّتت شملهم في الشرق والغرب وأخلت بيعهم ودياراتهم ، واستنزفت اموالهم ودماءهم ؛ وكان من اشكالها فيهم واشدها وبالا عليهم اربعة شروط اشتهرت بالسمات اي العلامات الفارقة ، ليُعرفوا بها لاول نظرة تقع عليهم فيُؤخذوا بالذل والصغار وهي « الصليب والزنار والعمامة والغيار ، وقد افردنا لكل منها جزءا برأسه جمعنا فيه كلّ ما وقفنا عليه من الاحكام والرسوم السلطانية والاسانيد والشهادات التاريخية التي تلقطناها بشقّ النفس ، وافنينا الايام في التنقيب عنها من اقوال الرواة والمؤرخين المسلمين ، ونبهنا على معادنها ومآخذها ، ليكون القارئ منها على اشدّ الثقة واليقين ، واليها وحدها يجب ان يُرجع في كتابة تاريخ النصرانية ، وعليها دون سواها يجب ان يعوّل في وصف ماضي احوال المسيحيين في الاسلام .

---

١) كتاب بدّر البطاركة الاسكندرانيين لساويرس بن المقفع ، طبعة ميلد ، ص ١٤٢-١٤٩ ، وطبعة بيروت ١٥٣-١٥٤ .

الصليب شعار النصرانية

للصليب في الاسلام اخبار وآثار جمعنا ما تيسر لنا العثور عليه منها في الجزء الذي اصدرناه مفرداً سنة ١٩٣٥ ، وفيه كل ما تلقطناه من اللُّمع والاشارات في غضون كتب الادب والتاريخ ، بين مطبوع ومخطوط ، مما وقفنا عليه في الخزائن الشرقية والغربية ، من مؤلفات الاقدمين التي افلتت من جوائح الزمن ، ونجت من ايدي التمزيق وألسنة الحريق . وهي على اقتصارها واختصارها ، كافية للدلالة على غابر حياة النصرانية في الشرق ، وتعريف الحدّ الذي رسمه لها فيه سيف الفاتحين ، منذ الاحتلال الى اضمحلال الخلافة العباسية في مصر على يد الاتراك العثمانيين في القرن السادس عشر . وقد رأينا ان نلخّص ايضاً هنا ما نصف به ماضي الصليب بين سمات النصارى في الاسلام ، ونضم اليه ما وقفنا عليه من بعض الزيادات في اوصافه واحواله ، ليكون هذا الكتاب مشتملاً على كل ما يتعلّق بتاريخ الصليب الذي وسم به الشرع الاسلامي جبين المسيحيين مدة عدة قرون ، لإقرار الذلة والصغار عليهم « فتدعوهم ذلّتهم الى ان يسلموا فيدفعوا الذلة عن انفسهم بالاسلام »[1] .

١ — الالقاب الصليبية

لا حاجة الى القول ان الصليب اشهر سمات النصارى حيثما وجدوا ، واعلقها نسبة اليهم لاختصاصه بهم دون سواهم ، بخلاف الزنّار والعمامة والغيار ، لاشتراك اهل الذمة فيها على السواء . ولذلك كان الدين المسيحي يعرف عند الكتاب والمنشئين « بدين الصليب » ، ويوصف به في المُدَن التي كانت تُعقد بين دولة الايوبيين والممالك مثلاً والافرنج ، كما كان النصارى يُنعتون عندهم بنعوت : « اتباع الصليب » و« عبّاد الصليب » و« عبدة الصلبان » ، لاعتقادهم ان الصليب وثنٌ يعبد كما تعبد الاوثان ، تباعاً للحديث القائل لعدي بن حاتم ، وقد قدم وفي عنقه صليب ذهب « ألقِ عنك هذا الوثن . »[2] وعلى هذا الرأي كتب

(١) بيان ما يلزم اهل الذمة فعله لابي يعلى الفرّا ، مخطوط عندنا .

(٢) لسان العرب ١٧ : ٢٢٤

اوزير ابو عامر بن شهيد ، من رجال الاندلس ، في فصل له « بلوكك عاكف على الوطن عكوف الراهب على الوثن . »[1]

ومن مصطلحات كتّاب الانشاء في الدواوين السلطانية تلقيب النصارى ايضاً بالطائفة الصليبية ، وتخصيص بطريرك الروم الملكيين بلقب « كبير الطائفة الصليبية » ، كما عُرف به ايضاً متملك الارمن في كيليكية وصاحب دنالة . واطلقوا ايضاً اوصاف « جمال الطائفة الصليبية » و « ذخر الملة الصليبية » و « كنز الطائفة الصليبية » على دوج البندقية ، وملك الروم في القسطنطينية ، وملك الفرنج .

وربما أُشير بالصلبان الى الروم البيزنطيين . وفي سنة ٤٦١/١٠٦٩ جمع قطبان[2] انطاكية ودوقسها جموعاً كثيرة وطلع الى حصن اسفونا . . وبلغ الخبر الى الامير عزّ الدولة محمود بن نصر بن صالح . . . فسار في الوقت . واجتمع عليه خلق عظيم . . . فحاصره سبعة ايام وفتحه وقتل جميع رجاله . . . وفي ذلك يقول ابو محمد الحفاجي :

ان اظهرت لملاك انطاكيّة حربا فقد ضحكت على قطباناها
لما اطلّ له لواؤك خافقاً عرفت وجوه الذل في سلباناها[3]

٢ ــ صليب الصليوت

اعتاد المؤرخون ان يطلقوا هذا الاسم على الصليب الاعظم الذي كان الفرنج يحملونه امامهم في الحروب الصليبية وقد وهم الذهبي وغيره من مؤرخي اخبار الايوبيين فعنوا به الصليب الذي كان منصوباً على الصخرة في بيت المقدس ، واستولى عليه صلاح الدين الايوبي ، وارسل به الى بغداد ، فقال بتاريخ سنة ٥٨٥/١١٨٩ :

« في ربيع الاول وصل القاسم ابن الشهرزوري رسولاً من السلطان صلاح الدين وصحبته صليب الصليوت الذي تزعم النصارى ان عيسى عليه السلام صُلب عليه فألقي بين يدي عتبة النوبي فبقي اياما »[4]

---

١) الذخيرة في محاسن الجزيرة لابن بسام ١ : ١٦٦

٢) القطبان لفظة رومية xxxxxx يراد بها القائد والحاكم

٣) زبدة الحلب لابن العديم ، ١٩٦٦ خزانة باريس ، ٤٠ - ٨٥

٤) تاريخ الاسلام ، خزانة اكسفرد *Laud. Or.* 304 f° 162

وروى ابن ابي شامة مثل هذا الخبر عن ابن القادسي وعقب عليه فقال:

« قدم ابن الشهرزوري (بغداد) ومعه صليب الصليوت الذي تعظمه النصارى فدفن تحت باب النوبي الشريف يتبين منه شيء قليل وكان من نحاس وقد طلي بالذهب فجعل يدار بالارحل ويبصق الناس عليه وذلك في سادس عشر ربيع الآخر . كذا قال « صليب الصليوت » وقد نص العماد في البرق على انه الصليب الذي كان فوق الصخرة وهذا غير ذاك »[1]

ونقل مثل ذلك ابن كثير فقال :

« سنة ٥٨٥ / ١١٨٩ قدم من جهة الخليفة رسل الى السلطان يهنئونه بولاية العهد لابي نصر الملقب بالظاهر ابن الخليفة الناصر . . . ثم جهز السلطان مع الرسل تحفاً كثيرة وهدايا سنية وارسل اسارى من الفرنج على هيئتهم في حال حربهم وارسل صليب الصليوت فدفن تحت عتبة باب النوبي من دار الخليفة فكان بالاقدام يداس بعدما كان يعظم ويباس والصحيح ان هذا الصليب كان منصوباً على الصخرة وكان من نحاس مطلياً بالذهب فحفه الله ان اسفل المتنب »[2]

وكان صلاح الدين يستولي على الصليب في وقعة حطين المشهورة سنة ١١٨٧/٥٨٣.

« وهو الذي يزعمون انه صلب عليه المصلوب وقد غلفوه بالذهب والجواهر النفيسة ولم يسمع بمثل هذا اليوم في عز الاسلام واهله . . . حتى ذكر ان بعض الفلاحين رآه بعضهم يقود نيفاً وثلاثين من الفرنج قد ربطهم بطنب خيمة وباع بعضهم اسيراً بنعل ليلبسها في رجله »[3]

« ثم ارسل السلطان برؤوس اعيان الفرنج (من الاسارى) وصليب الصليوت صحبة القاضي ابن ابي عصرون الى دمشق ليودعوا في قلعتها فدخل الصليب منكوساً وكان يوماً مشهوداً »[4]

واختلفوا في تاريخ حضور الصليب من القدس فروى المقريزي انه وصل في سابع عشري ربيع الاول سنة ٥٩٠ = ١١٩٤[5] ولكن ابن شداد روى انه في سنة ١١٩٢/٥٨٨ اي قبل ثلاث سنوات.

« وصل رسول من قسطنطينية الكبرى . وكانت رسالته تشتمل على مطالب منها صليب الصليوت . وأجيب بالمنع عن جميع مقترحاته وقيل ان الصليب قد بذل فيه ملك الكرج مئتي الف دينار فلم يجب الى ذلك »[6]

---

١) كتاب الروضتين في اخبار الدولتين ٢ : ١٣٩

٢) البداية والنهاية ١٢ : ٣٢١-٣٢٢

٣) السلوك لمعرفة دول الملوك ١ : ١٢

٤) النوادر السلطانية لابن شداد ٢٠٣

واشار الى هذا الرفض العماد الاصبهاني فقال :

« أعيد صليب الصلبوت الى الخزانة لا للاعزاز بل للاهانة فان غيظ الكفار بحفظنا الصليب شديد والمصاب به عندهم على مر الجديدين جديد وقد بذل فيه الروم ثم الكرج بذولا وانفذوا بعد رسول رسولا فما وجدوا قبولا ولا صادفوا سولا »[1]

وبقي الصليب بدمشق الى ان استرجع الفرنج عكا .

« فراسل السلطان ملوك الفرنج في خلاص من بايديهم من الاسارى فطلبوا منه عدتهم من اسراهم وماتة الف دينار وصليب الصلبوت ان كان باقياً وارسل فاحضر المال والصليب ولم يات له من الاسارى الا شرذمة اسير فطلب الفرنج منه ان يريهم الصليب من بعيد فلما رفع سجدوا له وقذفوا انفسهم الى الارض ومشوا يطلبون منه مما احضره من المال والاسارى وامتنع . . فلم يرسل اليهم شيئاً وامر برد الاسارى الى اهليهم بدمشق ورد الصليب الى دمشق مهاناً »[2]

وكان رأس ملوك الفرنج وقتئذ ريشارد ملك الانكتار (الانكليز) فكتب الى صلاح الدين فيما رواه القاضي ابن شداد :

« القدس متعبّدنا ما نتزل عنه ولو لم يبقَ منا الا واحد واما انيلاد فيعاد لنا بما هو قاطع الاردن واما الصليب فهو خشبة عندكم لا مقدار له وهو عندنا عظيم فيمنّ به السلطان علينا ونصطلح ونستريح من هذا التعب فكان من جواب السلطان عليه : اما الصليب فهلاكه عندنا قربة عظيمة لا يجوز ان نفرّط فيها الا لمصلحة راجحة الى الاسلام »[3]

ومن الغريب ان ابن كثير بعد ان استدرك ما استدركه ونقل ما سبق من اخبار الصليب ذيّل كل ما خطّه قلمه قبلاً ونسب الى الملك الافضل سنة ١١٩٤/٥٩٠ ما كان اثبته لوالده صلاح الدين سنة ١١٨٩/٥٨٥ فقال :

« سنة ٥٩٠ لما استقرّ الملك الافضل بن صلاح الدين مكان ابيه بدمشق بعث هدايا سنية الى باب الخليفة الناصر . . . منها صليب الصلبوت الذي استلبه ابوه من الفرنج يوم حطين وفيه من الذهب ما يزيد على عشرين رطلاً مرصعاً بالجواهر النفيسة واربع جواري من بنات الملوك »[4]

وقد تقدم ان ملك الكرج بذل في تسليم الصليب له مئتي الف دينار . فكيف يُعقل ان يزهد الافضل بمثل هذا المال الجسيم ، ويهدي الصليب عفواً

١) الفتح القسي ٣ : ٢٧١-٢٧٣
٢) البداية والنهاية ١٢ : ٣٤٤-٣٤٥
٣) النوادر السلطانية ١٨٧
٤) البداية والنهاية ١٣ : ٨

للخليفة في بغداد . وقد بحثنا كثيراً لنجد ذكراً له آخر في روايات المؤرخين الأوربيين فلم نقف الا على قول المقريزي :

« سنة ٥٩٠ / ١١٩٤ م) قدم رسول متملك القسطنطينية يطلب صليب الصليوت فأحضر من القدس وكان مرصعاً بالجوهر وسُلِّم اليه على ان يعاد ثم حمل من الفرنج وتوجه الامير شمس الدين جعفر بن شمس الخلافة بذلك »[1]

ولا حاجة الى التنبيه على ما بين قول ابن كثير وقول المقريزي من التناقض والبعد عن الواقع لاستحالة ان يكون الصليب سُلِّم لرسول الروم او بعث به الى بغداد .

٣ ــ الصليب في الشروط العمرية

في الشروط التي اوجبها الشرع على الذميين ، واطلق عليها الفقهاء اسم « العمرية » ليوهموا انها من وضع الامام عمر بن الخطاب ، ذكر الصليب والمنع من اظهاره في الاسلام . ولكنا جهدنا كثيراً ، وأطلنا البحث والمراجعة لنجد في آثار الصدر الاول من الخلافتين العمرية والاموية اشارة الى هذه الشروط بنصها المعروف اليوم ، فذهبت اتعابنا ادراج الرياح . والارجح انها أُحدثت في زمن متأخر ، ونجمت كالكمأة بغير اصل ثابت . ولم يرد لمجموعها حسبما بلغنا بلسان عمر اقل تسمية لها في كتاب « فتوح البلدان » للبلاذري في القرن الثالث للهجرة ، او في كتاب « الخراج » في القرن الثاني للقاضي ابي يوسف يعقوب ، الذي جمعه لهرون الرشيد . وقد اشار فيه القاضي ابو يوسف يعقوب على الخليفة ان يُترك النصارى « يسكنون في امصار المسلمين واسواقهم . . . ولا يظهرون الصلبان في الامصار »[2] . ولكنه اقرَّ قبل ذلك في كتابه المذكور ان خالد ابن الوليد « كان مرّ ببلاد عانات فخرج اليه بطريقها فطلب الصلح فصالحه واعطاه ما اراد على ان لا يهدم لهم بيعة ولا كنيسة وعلى ان[3] لا يضربوا نواقيسهم في اي ساعة شاؤوا من ليل او نهار الا في اوقات الصلوات وعلى ان يخرجوا الصلبان في ايام عيدهم . . . فصالحه اهل النقيب والكوائل على مثل

١) السلوك ١ : ١٢٠

٢) كتاب الخراج ، طبعة القاهرة ١٣٠٢ ، ص ١٥٢

٣) في الاصل المطبوع « ان يضربوا نواقيسهم » والمعنى يقتضي « ان لا يضربوا »

ما صالحه عليه اهل عانات . . . ثم مضى حتى اتى الى بلاد قرقيسيا . فاغار على ما حولها . . . ثم انهم بعثوا يطلبون الصلح فاجابهم الى ذلك واعطاهم مثل ما اعطى اهل عانات على ان لا يهدم لهم بيعة ولا كنيسة وعلى ان لا يضربوا نواقيسهم الا في اوقات الصلوات ويخرجوا صلبانهم في يوم عيدهم فاعطاهم ذلك وكتب بينه وبينهم الكتاب . . . ولم يردّ ذلك الصلح على خالد ابو بكر ولا رده بعد ابي بكر عمر ولا عثمان ولا علي »[1]

وروى القاضي ابو يوسف ايضاً ان عمر بن الخطاب كتب الى عبيدة وهو بالشام:

واما اخراج الصلبان في ايام عيدهم فلا تمنعهم من ذلك خارج المدينة بلا رايات ولا بنود على ما طلبوا منك يوماً في السنة فاما داخل البلد بين المسلمين ومساجدهم فلا تظهر الصلبان فاذن لهم ابو عبيدة في يوم من السنة وهو يوم عيدهم الذي في صومهم (الفصح) فاما في غير ذلك اليوم فلم يكونوا يخرجون صلبانهم »[2]

وسيمرّ بنا في ما يأتي ان الصليب كان يُخرج وتُنشر راياته ليس في عيد الفصح فقط ، بل في عيد الشعانين ايضاً ، وغيره من الاعياد والمهرجانات والاحتفالات ، وفي المآتم والجنائز ، في مشهد من رجال الدولة وقبول منهم . وهو ما يدعو الى الشكّ في رواية القاضي ابي يوسف يعقوب المتأخرة . وقد سكت البلاذري بعده في القرن الثالث عن اظهار الصليب حتى في يوم الفصح وزعم « ان عياض بن غنم اعطى اهل الرقة يوم دخلها اماناً لانفسهم واموالهم وكنائسهم . . . على ان لا يحدثوا كنيسة ولا بيعة ولا يظهروا ناقوساً ولا باعوثاً ولا صليباً »[3] فكانت اوامر الشرع في حقّ الصليب تزيد ضيقاً بعد اتساعها ، كلما زاد الوقت تأخرًا ، وتأت المسافة بين الخلافة العمرية في اوائل الفتح والخلافة العباسية بعد استيلاء الاعاجم عليها ، وكثرة من قام فيها من كذّبة الرواة ومختلقي الاحاديث لقلة النقد والامانة في النقل ، وميل الناس عموماً الى المبالغة والغلوّ طمعاً في الاغتفار والمباهاة .

وقد حاول بعض الفقهاء الاعتذار عن منع اظهار الصليب في الامصار ،

---

١) كتاب الخراج ، طبعة القاهرة ١٣٠٢ ، ص ٧٢

٢) كتاب الخراج ١٦٨-١٦٩

٣) فتوح البلدان ، طبعة اوربة ، ١٧٣

وليس فيه اقل معاضة للاسلام ، فزعم ابو يعلى الفرّاء ، في اوائل القرن الخامس ، ان اهل الحيرة كتبوا الى عبد الرحمن بن غنم في جملة شروط اشترطوها على انفسهم : « لا نضرب بنواقيسنا الا ضرباً خفيفاً في جوف كنائسنا ولا نظهر عليها صليباً . ولا نخرج صليباً ولا كتاباً في سوق المسلمين » وعلّل الفراء هذا المنع « بان في اظهار الصليب والكتاب تكذيباً لرسول الله (صلعم) فلم يجز اظهاره في اسواق المسلمين »[1] ولا يخفى على القارئ اللبيب ضعف هذا التعليل لان ليس في اظهار الصليب وتعظيمه ولا في تشييع الانجيل اقل ايماء الى الرسول او تحجرًا فيه على قيام نبي بعد المسيح كما في القول المروي عن محمد : « لا نبي بعدي » فكيف يصح ان يُعزى الى الصليب والانجيل تكذيب الاسلام وهو متأخر عن زمانهما ستة قرون ؟ بل أحر ان يكون في الانجيل تصديق لدعوة الرسول ، وفي موت المسيح على الصليب تمهيد لها ، وهم يعتقدون ان الفارقليط المذكور في الكتاب المقدس انما يُعنى بـه رسول الاسلام ، فاظهار الانجيل اذن وتشييع الصليب له يجب ان يعتبر عندهم كالمناداة بذهاب المسيح ومجيء الفارقليط محمد من بعده ، ومن ثم يكون اخراج الصليب والكتاب تصديقاً للرسول لا تكذيباً له في الظاهر كما زعم الفراء.

واذا اجلنا النظر في اخبار ايام الامام عمر بن الخطاب ، وما تبعها الى ايام الخلفاء المروانيين ، وتدبرنا ما رواه لنا التاريخ من الحوادث والانباء ، يتضح لنا بطلان ما نُسب الى عمر من التضييق على اتباع الصليب ، ومنع اظهاره في الملإ وحسبنا ان نذكر في الاستشهاد على ما كان في عهده من التسامح والقصد في السياسة والعدل في الرعية ، ما نقله ابو الفرج الاصبهاني عن موت والدة الحارث بن ابي ربيعة اخي الشاعر المشهور عمر بن ابي ربيعة قال :

« لما ماتت حضر الاشراف جنازتها وذلك في عهد عمر بن الخطاب فسمع الحارث من النساء نعيًا فسأل عن الخبر فعُرّف انها ماتت نصرانية وانه وجد الصليب في عنقها وكانت تكتمه ذلك فخرج الى الناس فقال : « انصرفوا يرحمكم الله فان لهاهنا دينًا هو اولى بها منا ومنكم » فاستحسن ذلك منه وعجب الناس من قوله »[2]

---

١) بيان ما يلزم اهل الذمة فعله ، مخطوط في خزانتنا ، ص ٩

٢) الاغاني ، طبعة الدار ، ١ : ٦٦-٦٧

ولا ينبي على احد ما في فعل الحارث وإجماع الاشراف على « استحسانه » من الدلالة على رجاحة الاخلاق وطيبها في ايام ابن الخطاب ، وسعة النفوس والمذاهب ، وقلة العداء للنصرانية كما بدأ في عهد العباسيين . ومعلوم ان جنائز النصارى يصحبها دائماً « اظهار الصليب والكتاب » . فكيف يتفق هذا الاظهار بما عُزي غلطاً الى عمر من الحجر على الصليب وإقصاء النصارى من ارض الحجاز؟ واى دليل اكبر على وجود كهنة النصارى في جوار الحارث من قوله : « هذا اهل دين هم اولى بها » ولذلك استدعاهم في الحال وردّ لهم حقّ الصلاة عليها وتشييع جنازتها ، فاين بعد هذا ما صوّره لنا المتأخرون من الرواة والمحدثين والمؤرخين من ذلّ النصرانية في عهد الامام عمر ، والتضييق على اشياعها حتى في خدمة السراويل ونوع الخفّ وفرق الشعر وغير ذلك من الإهانات والسخف؟ واذا صح قط اطلاق لفظ « الذمة » على عهد النصارى ، وهو ما يدعى اليوم « حماية » ، فلا ريب ان اصحّ عصر يستحق ان يسمى « ذمة » هو عصر الامام عمر ، ثاني الخلفاء الراشدين ، وعصر معاوية وابنه يزيد من الامويين ، لحسن نظرهم الى النصارى ورفقهم بهم وحمايتهم . وكان عمر يعلم كثرة المسيحيين في ولايته وانتشارهم في كل انحاء مملكته ، وزيادة عددهم على المسلمين في الشام ومصر والعراق . ولا يجهل ايضاً ما تقدم للعراقية منهم وللناطرة من حسن قبول الجيوش الاسلامية وامدادهم بالميرة وتهيئة اسباب فتح المدن لهم خيانة منهم ، وانتقاماً من الروم لسابق اضطهادهم لهم ، حتى حكى بعض الرواة ان اهل حماة وشيزر « خرجوا يكفّرون ومعهم المقلسون »[1] اي المغنون والضاربون بالدفّ . وكان لا ينبي عليه خصوصاً حاجته اليهم في الصناعة والزراعة والتجارة والكتابة ، لاشتغال جنوده بالمغازي والفتوحات ، وبعدهم عن اعمال الحضارة ، فكيف يناصب العداوة اعواناً نظيرهم كان منهم موالي امته ، وعمال دواوينه ، وعالة جنوده ، وملّاحو سفنه ، واكّارو مملكته ، وانصاره في السياسة ، لا يخشى منهم معصية ولا تخوّفاً . ولولا ان معظم اخبار القرن الاول قد ضاعت او تنوسيت لاهمال تدوينها ، لوجدنا فيها عدة شهادات وحجج ناطقة بحسن جوار

١) فتوح البلدان للبلاذري ١ : ١٣١

الاسلام للنصرانية بعد الفتح ، ورفق الخلفاء الاولين برعاياهم وموالبهم من اهل الذمة ، خلافاً لما زعمه الرواة والفقهاء المتأخرون في الخلافة العباسية .

ومع ما قيل من منع اظهار الصليب في الاسواق لا نظن ان النصارى كفّوا عن عاداتهم بالاحتفال ببعض الاعياد والفصح باشهار الصلبان والطواف بها خارج الكنائس . ولابي نواس من قصيدة يستحلف بها عبد يشوع بن ماسرجس :

عـارت مريم ويوم فصح وبالفرقان بالقس العتيق
وبالصلبان ترفعها رماح لاحبن توهب بالحريق[1]

وللشرواني في وصف دير الحريق بالحيرة :

حرجنا في ثمانين النصارى وشبّمنا صليب الخنابيق[2]

وللعمري في وصف دير الاسكون من ديارات دير الحيرة « اذا كان يوم الثمانين اتوه من كل ناحية مع شمامستهم بصُلبهم واعلامهم »[3]

ولابي الهيذام في وصف باعوث حرّان :

سقيًا لحران انـه بلد اصبح للّهو وهو مضارُ
في يوم باعوثهم، وقد نشروا الصلبان ، والمسلمون نظّارُ[4]

ولابي العلاء المعري :

هل قبلت من ناصح أمّة تندو الى الفصح بصلباتها
كنائس تجمعها وصلة بين غوانيها وشباتها[5]

« وكان رسم النصارى في بيت المقدس جارياً في كل عام بحمل شجرة من شجر الزيتون في عيد الثمانين من الكنيسة المعروفة بالاعازرية الى كنيسة القيامة وبينهما مسافة بعيدة وان يُشقّ بها شوارع المدينة بالقراءة والصلوات حاملين الصلبان مشهوراً[6]

١) ديوانه ، ١٨٣١ باريس ، ٨٣
٢) مسالك الابصار للعمري ٢١٦
٣) مسالك الابصار ٢١٢
٤) ارشاد الاريب ٦ : ٢٠٩
٥) اللزوميات ، طبعة الهند ، ٢٨
٦) كتاب الذيل ليحيى بن سعيد الانطاكي ١٩٤

« وكان رسم الملكية خلاصة في تلك الليلة (ليلة الخميس اي العطاس) يخرجون من الكنيسة القائوليكي التي بقصر الشمع المعروفة بكنيسة ميكائيل في جمع متوافر بالقراءة الملحنة والتقمات الملتة والصلبان المشهورة ووقيد الشمع الى شاطىء النيل بباعوث . . . وحضرهم الحاكم في كثير من الاعوام متنكرًا وشاهدهم »[1]

« وفي سنة ٤١٥ (١٠٢٤ م) نزل امير المؤمنين الظاهر لاعزاز دين الله ابن الحاكم بقصر جده العزيز بالله بمصر لنظر العطاس ومعه الحُرَّم . . وامر بان توقد المشاعل والنار في الليل وكان وقيدًا كثيرًا وحضر الرهبان والقسوس بالصلبان والنيران ومشوا على ذلك طويلا الى ان غطسوا »[2]

« وفي سنة ٤٩٦ (١١٠٣ م) طمع الفرنج في بلاد حلب . . فخافهم الملك رضوان بن تاج الدولة تتش لعجزه عن دفعهم عن البلاد ومنعهم فاصطر حالى مصالحتهم ؛ فبذلوا عليه اشياء كثيرة من جملتها . . . ان يضع صليبًا على منارة المسجد الجامع فاحتاجم الى ذلك وانكر عليه القاضي ابو الحسن بن يحيى الخشاب وكان بيده زمام البلد وضع الصليب على منارة الجامع وقبح عليه ذلك فراجع الفرنج في امر الصليب الى ان اذنوا له في وضعه على الكنيسة العظمى التي بنتها هيلانة ام قسطنطين فلم يزل عليها الى ان حاصرت الفرنج حلب سنة ثمان عشرة وخمسمائة ونشروا ما حولها من القبور فاخذ القاضي ابن الخشاب المذكور اربع كتاتيش وصيرها مساجد من جملتها الكنيسة العظمى ورمى بالصليب »[3]

« وفي سنة ٩٥١ للشهداء (١٢٣٦) تقررت البطركية للقسيس داود بن لقلق . . . وحضر اليه من القاهرة ومصر وما حولها امم لا تحصى واجتمع من الامم الغريبة المسلمين واليهود خلق عظيم حتى كانوا ممتدين ملء الطريق على الدكاكين والفُرج والاسطحة من ميكائيل الى المطفة ورفعت الصلبان فوقه على الميدان . . . ثم بعد ذلك اجتمع جماعة من المسلمين وانكروا ما عمل واستشنعوا حمل الصلبان على رؤوس الاشهاد وسط النهار في الاسواق وتحدثوا في هذا واكثروا »[4]

وربما كان اظهار الصليب والانجيل بالشموع الموقدة والقراءات الملحنة يُحتفل به في مشهد من الخلفاء والملوك في حضرتهم وباستدعاء منهم وفي سنة ١١٤٠/٥٣٥ مات بهرام الارمني ، وزير الخليفة الحافظ ، وكان يشاوره في تدبير الدولة فحزن عليه حزنًا كثيرًا وامر باغلاق الدواوين واستدعى بطريرك الملكية ، وامره بتجهيزه فأُخرج عند صلاة الظهر في تابوت عليه الديباج وحوله النصارى يبخّرون بالبان والسندروس والعود وخرج الناس كلهم مشاة بحيث

١) كتاب الذيل ليحيى بن سعيد الانطاكي ١٩٦-١٩٧

٢) الخطط للمقريزي ١ : ٤٩٥

٣) الاعلاق الخطيرة لابن شداد ، ٧٣٠ خزانة الفاتيكان ، ٢١-٢٢

٤) بحر البطاركة لابن المقفع ، ٣٠٢ باريس ، ٢١٦-٢٧

لم يتأخر احد من اعيان الوقت عن جنازته وخرج الحافظ راكباً بغلة خلف التابوت . . . فما زال الناس سائرين والاقسّة يملئون بقراءة الانجيل والحافظ على حالته الى دير الخندق بظاهر القاهرة فنزل الحافظ عن بغلته وجلس على شفير القبر وبكى بكاء شديداً »[1]

وفي سنة ١١٨٢ ، في شهر تموز ، استدعى السلطان قلج ارسلان الى حضرته في ملطية بطريرك اليعاقبة ميخائيل المؤرخ ، الذي ترجم الاب شابو في باريس كتابه من السريانية الى الفرنسية ، ووصف البطريرك فيه لقاء السلطان له وقال :

« خرج السلطان نفسه لاستقبالنا عند الصباح في طائفة كبيرة من جنده داخل المدينة وكان ارسل امامه رسولاً ينهي الينا ان دخولنا يجب ان يكون طبقاً الشريعة المسيحية اي بالصليب والانجيل فاكثر النصارى من الشموع والصلوات وحين دنوت من السلطان امرني ان لا اترجل وضمني بين ذراعيه ولما بدأت خطابي له والترجمان ينقل له اصاخ الي بسمعه بغاية السرور لاكثاري الامثال المستشهد بها من الكتاب ومن الزمان وادمجت في خطابي موعظة اثرت فيه جداً حتى سالت دموعه فحمد النصارى الله كثيراً وشكروه جداً لما رأوا الصليب المعظم مرفوعاً منشوراً فوق السلطان والحضور المسلمين »[2]

وربما اثار إشهار الصلبان في الجنائز بعض المشاغب والشرور ومن اشهر هذه الفتن ما حدث في بغداد سنة ١٠١٣/٤٠٣ توفيت فيها بنت ابي نوح الاهوازي النصراني زوجة ابي نصر بن اسرائيل كاتب الناصح ابي الهيجاء الجرجاني .

« وأُخرجت جنازتها ظاهرًا ومعها النوائح والطبول والزمور والصلبان والرهبان والشموع فقام رجل هاشمي من الحصريين محله عند مشهد ابي حنيفة فرجم الجنازة ولعنها فحمد بعض غلمان الناصح الذين كانوا مع الجنازة فضربه بدبوس فشجّه وجرت دماؤه واجتمع الناس وهرب النصارى بالجنازة الى بيعة بدار الروم وتبعهم المسلمون وضبوا البيعة واكثر دور النصارى المجاورة لها وهرب ابن اسرائيل الى داره فهجموا عليه وهُرب به الى دار الناصح وثارت الفتنة بين العامة وغلمان الناصح وغلقت الاسواق والجوامع ورفعت المصاحف على القصب وقصد الناس دار الخليفة على سبيل الاستغاثة فارسل الخليفة ينكر على الناصح ما جرى وبالتماس ابن اسرائيل وتسليمه فامتنع الناصح من ذلك فغاظ الخليفة وتقدم باصلاح الطيار ليخرج من البلد وجمع الهاشميين الى داره وجاءت العامة الى دار الناصح فدفعهم

---

١) اخبار مصر لابن ميسّر ٨٤

٢) Chabot, *Histoire du Patriarche Michel*. III p. 383-391

غلمانه ومن كان فيها من الاتراك وقتل رجل قيل انه علوي فزادت الشناعة وتفاقم الامر وامتنع الناس من صلاة الجمعة وصليت العامة جملة من النصارى وتردّدت الرسالة الى الناصح حتى حمل ابن اسرائيل فحبس والزم اهل الذمة الشيار وأُخرج ابن اسرائيل بعد ايام وانبسط النصارى بعدما انقبضوا وامنوا بعد ما خافوا ».[1]

٤ ــ الاحكام السلطانية بعدم اظهار الصليب في الاعياد

كان المتوكل اول من أصلى النصارى نيران الاضطهاد ، واصدر امرًا قاطعًا تفنّن فيه باذلالهم والتضييق عليهم . ومن جملة نواهيه واوامره سنة ٢٣٥ (٨٤٩م) ان لا يظهروا في شعانينهم صليبًا ، بعد ان كانت اعياد الشعانين اعيادًا شعبيّة لكلّ من النصارى والمسلمين ، تخفق فيها الوية الصلبان منصوبة فوق الاعواد ، وتدري فيها انغام المصلين . وربما حضرها احيانًا بعض الخلفاء كالمأمون فضلًا عن رجال الدولة ، وتتقاطر لمشاهدتها الالوف من المتفرجين من الرجال والنساء . وفي اشعار الشعراء اصداء اوصاف هذه المهرجانات ونهى المتوكل ايضًا النصارى ان يشعلوا في الطريق [2] ولم يفهم المقريزي معنى هذه اللفظة فقرأها « ان لايشعلوا في الطريق نارًا »[3] والكلمة سريانية من فعل ܫܥܠ على توسع فيه ومعناها القراءة . وقد وردت في الشعر . قال ابو نواس يتشوق الى عيد الشعانين

وايام الشعانين الغدايا وشعلة النصارى في الطريق [4]

وقال ابو الفرج الاصبهاني : انشدني جحظة لنفسه من ابيات :

اذا نطق القسيس بعد سكوته وشعل مطران ولاح قنديل[5]

« وفي سنة ٣٩٤ (١٠٠٣ — ١٠٠٤ م) منع الحاكم النصارى من اظهار زينة الكنائس في عيد الشعانين وتشدّد عليهم وضرب جماعة منهم »[6] ، يريد

١) مرآة الزمان بريتش موزيوم Or. 4619 f°. 199-200

٢) الكامل لابن الاثير ٧ : ١٧ ، والعبر لابن خلدون ٣ : ٢٧٥

٣) الخطط ٢ : ٤٩٤

٤) ديوانه ، ٦٨٣١ باريس ، ٨٣

٥) قطب السرور للرقيق القيرواني ، ٣٣٠٢ باريس ، ١٧٠

٦) الخطط ٢ : ٥٠٧

بزينة الكنائس ما فيها من صلبان واناجيل وشموع وسائر الذخائر .

« وفي سنة ٤٠٢ (١٠١١م) منع الحاكم النصارى من الاجتماع على عمل عيد الصليب وان لا يظهروا زينتهم فيه ولا يقربوا كنائسهم وان يمنعوا منها ». قال المقريزي : « ثم بطل ذلك حتى لم يكد يعرف اليوم بديار مصر البتة »[1] وزاد يحيى بن سعيد الانطاكي : « امر الا يظهر صليب ولا تقع عليه عين ولا يضرب ناقوس فقلعت الصلبان من الكنائس وطمس آثارها من ظاهر البيع والكنائس والهياكل »[2]

وفي سنة ٧٥٥ (١٣٥٤م) صدر مرسوم الملك الصالح بن الناصر بالزام اهل الذمة بالشروط العمرية ، ومنها للنصارى الا يخرجوا شعانين[3] ، اي الصليب والزينة في الاعياد .

٥ ــ رفع الصليب ازاء رفع القرآن في الفتن بين السنّة والشيعة

كانت بغداد موطن الفتن والثورات بين السنّة والشيعة ، لا تخلو منها محلة من محلاتها في زمن من الازمان . وكانت محلة الكرخ معسكر الشيعة ، اول ما تشبّ فيها نيران القتال وتسيل في اسواقها دماء الثوّار . وقد سكت المؤرخون عن كثير من اسبابها واسرارها ، واغضوا الطرف عن النظر الى ما كان يجري فيها من خوارق وعظائم ، تقيّة منهم وتحرجاً . ولذلك فاتنا اهمّ ما كان يحدث فيها من انواع الشغب وضروب التنازع ، وما كانت تجرّه من الكبائر والفواحش في القول والعمل . واغرب ما هنالك ان بعض الغلاة من المشيّعين كانوا ، اذا حمي الوطيس وبلغ الغيظ منهم مبلغه ، يعمدون كعادة الاحزاب قديماً الى رفع مصاحف القرآن على الرماح . فكانت الفئة المعادية تبادر حالا الى مقابلة هذه المصاحف بنصب الصلبان على القصب ، وربما نادوا

---

١) الخطط ١ : ٢٦٧

٢) كتاب الذيل ليحيى بن سعيد ٢٠٢

٣) صبح الاعشى ١٣ : ٢٨٤

« المسيح يامنصور » في بغداد ، و« باسيل يامنصور » في حلب ، اي باسم ملك الروم ، وعلقوا الصلبان في حلوقهم . ومع ان كلا من الفريقين كان متسماً بالاسلام عريق النسب فيه ، فقد كان يستدرجه فائر الغضب الى شتم النبي وازواجه وصحابته ، او يدفعه اليأس والضعف الى الشك في صدق الدين حتى يطيب له الانتقال عن الاسلام . ولا يخفى ما في كل هذا الافراط والتفريط من الدلالة على ما كان في ذلك العصر من اخلاق واحقاد واميال ونزعات يجدر بالمؤرخ اليوم ان يتزلها منزلتها من الخطر والقيمة ، في تعريف ماضي الاسلام في الخلافتين العباسية والفاطمية . وقد رأينا ان نجمع هنا كلّ ما وقفنا عليه قديماً وحديثاً من هذه الشهادات النادرة التي نقلها لنا شجعاء المؤرخين ، ليتدبرها القارئ بعين الاجلال والاعتبار :

وفي سنة ٤١٦ للهجرة (١٠٢٥ م) ارسل المقارنة الذين في قلعة حلب يسألون الصلح من سالم بن مستفاد والي حلب من قِبَل صالح بن مرداس « والتمسوا منه اشياء فلم يرَ اجابتهم اليها فلما كان آخر نهار ذلك اليوم نصبوا الصلبان على سور القلعة وصاحوا « باسيل يا منصور » وحطوا الصلبان بعد اشهارها وبقوا يصيحون لبلتهم الى الغداة واعادوا نصب الصلبان في صباح يومهم ولعنوا الظاهر (الخليفة الفاطمي بمصر) ودعوا لباسيل الملك وبقيت الصلبان منصوبة على حالها الى يوم الجمعة ثالث يوم اشهروها فيه واضافوا اليها صليباً آخر كبيراً »[1]

وذكر ابن العديم هذه الواقعة في اخبار سنة ٤١٥ واضاف الى ذلك انهم بعد ان نصبوا الصلبان ثلاثة ايام نقروا الناقوس ايضاً[2]

وفي سنة ٤٢١ للهجرة (١٠٣٠ م) « كان الخراب قد شمل بغداد لضعف الهيبة وتتابع المجاعة فاجتمع الهاشميون في شوال بجامع المنصور ورفعوا المصاحف واستنفروا الناس فاجتمع اليهم الفقهاء وخلق من العامية الرافضة وضجوا ان يُمنعوا من الشرك فعمدت الترك . . . ورفعوا صليباً على رمح وتراشق الفريقان بالنشاب والآجر ثم تحاجزوا »[3]

ونقل ابن الجوزي هذا الخبر فقال :

« سنة ٤٢١ في سادس شوال جرت منازعة بين احد الاتراك النازلين بباب البصرة وبعض

١) تاريخ الذيل ليحيى بن سعيد الانطاكي ٣٤٧

٢) زبدة الحلب لابن العديم ، ١٦٦٦ خزانة باريس ، ٦١

٣) الاعلام بتاريخ الاسلام لمحمد بن الجزري ، مكتبة الاسكندرية رقم ٢٠٧٢ ، ص ٢٨٥

الهاشميين فاجتمع الهاشميون الى جامع المدينة ورفعوا المصاحف واستنفروا الناس فاجتمع لهم الفقهاء والعدد الكثير من الكرخ وغيرها وضجوا بالاستغاثة من الاتراك وسبهم فركب جماعة من الاتراك فلما رأوهم قد رفعوا اوراق القرآن على القصب رفعوا بازائهم قناة عليها صليب وترامى الفريقان بالنشاب والآجر وقتل من الآجر قوم ثم أصلحت الحال »[1]

وفي سنة ٤٨٢ (١٠٨٩ م) « في جمادى الاولى كثرت الفتن ببغداد بين اهل الكرخ وغيرها من المحال وثار اهل الكرخ وقصدوا شارع ابن ابي عوف ونهبوه وفي جملة ما نهبوا دار ابي الفضل بن خيرون المعدّل فقصد الديوان مستنفرًا ومعه الناس ورفع العامة الصلبان وهجموا على الوزير في حجرته واكثروا من الكلام الشنيع »[2]

وأرّخ صاحب مرآة الزمان هذا الحادث في شهر صفر وزاد في البيان فقال:

« في صفر سنة ٤٨٢ كانت فتنة عظيمة ببغداد بين السنّة والشيعة . . . فغلقت اسواق الكرخ ورفع اهلها المصاحف وقتل بينهم خلق كثير . . . ورفع العامة الصلبان على القصب ونادوا « المستنصر يا منصور » (اي باسم الخليفة الفاطمي) ونادت الطائفة الاخرى « المسيح يا منصور » وتفاقم امر الفتنة وقتل من الفريقين نحو من مائتين وسبّ اهل الكرخ اصحاب رسول الله وزوجاته وتعدوا الى سب رسول الله (صلعم) وكتب الخليفة الى صدقة بن مزيد بانفاذ جيش فبعث اليه بالعرب واتفقوا مع السنّة فنقضوا الدور واحرقوا المحالّ وحملوا الشعور وخيروا اماكن المفسدين من الفريقين فسكنت الفتنة »[3]

وزاد ابن الجوزي على سبطه قرأئي زيادات في غاية من الخطر والفائدة النادرة فقال:

« سنة ٤٨٢ في عشية تاسع عشر صفر كبس اهل باب البصرة الكرخيين فقتلوا رجلًا وجرحوا آخر فأغلقت اسواق الكرخ ورفعت المصاحف على القصب وما زالت الفتن تزيد وتنقص الى جمادى الاولى فنوبت نارها وقتل خلق كثير . . . وفي غد يوم القتال نهب اهل الكرخ شارع ابن ابي عوف وكان في جملة ما نهب دار ابي الفضل بن خيرون فقصد الديوان مستنفرًا ومعه الناس ورفع العامة الصلبان على القصب وضجوا على الوزير ابي شجاع في حجرته من الديوان . . . وعظمت الفتنة الجارية بين السنّة واهل الكرخ فقتل فيها نحو مائتي قتيل ودامت شهورًا من سنة اثنتين وثمانين واربعمائة . . . وكان الشباب قد احدثوا الشعور والجُمَم وحملوا السلاح وعملوا الدروع وسئلوا عن الفتيّ بالنشاب والنبل وسبّ اهل الكرخ الصحابة وازواج رسول الله على السطوح وارتفعوا الى سب النبي . . . وقد الحقني في مأتم النياحة يقولون : « هل رأيتم في الزمن الماضي مثل ما جرى على اهل السنّة في هذه

---

١) المنتظم ، طبعة حيدر اباد ، ٨ : ٥٠

٢) الكامل لابن الاثير ١٠ : ٦١

٣) مرآة الزمان ، خزانة اكسفرد Marsden 638 f° 9

الدولة ؟ طاب والله الانتقال عن الاسلام . لو كان ما نحن فيه حقاً لنصره الله » وحملوا الصلبان في حلوقهم ودعوا بشعار الرفض وقالوا : لا دين الا دين اهل الكفر »[1]

وهذا التفصيل والبيان من ابن الجوزي مفهم بالفوائد والاوصاف العزيزة المثال . ولا نذكر انه مرّ بنا ما يفوقها مغزى وتأويلاً . ولو كان ابن الجوزي ألهم تدوين كل وقائع السنّة والشيعة بمثل هذا الانتباه والاستقصاء ، لكان لنا من تاريخ الحياة الاجتماعية ببغداد ما يزول معه كل غموض وتمويه نراهما اليوم في حقيقة اخبار الاسلام في الخلافة العباسية .

وقد طالعنا كثيراً من اخبار مصر فلم نجد فيها ما يقرب مما كان يجري في حلب وبغداد لقلة الاحزاب الدينية فيها . وغاية ما عثرنا عليه من ذكر رفع الصلبان في الفتن ما رواه المقريزي في كتابه السلوك قال :

« في سنة ٧٢١ (١٣٢١ م) نفرت العامة بمصر فوجد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون نحو العشرين الفاً قد صبغوا خروقاً بالازرق والاصفر وعلقوا في الاترك صلباناً بيضاً ورفعوها على الجريد وصاحوا عليه صيحة واحدة : لا دين الا دين الاسلام نصر الله دين محمد بن عبدالله . يا ملك الناصر يا سلطان الاسلام أنصرنا على اهل الكفر ولا تنصر النصارى »[2]

وانما صبغوا الخرق بالازرق والاصفر لان هذين اللونين كانا شعار النصارى واليهود كما سيجيء .

٦ ــ تصوير المسلمين الصليب في السفن الحربية مخادعة للافرنج

كان الصليب يُعدّ شعار الكفر كما قال المقريزي ، في كلامه على النقود ، ومع ذلك لم يرَ صلاح الدين الايوبي اقلّ حرج في تقليده وتصويره في مراكب القتال مغالطةً واحتيالاً في جملة خُدع الحروب . ولما اراد سنة ٥٨٦/١١٩٠ إنفاذ المدد والميرة لاهل عكا في حصار الافرنج لهم . قال العماد الاصبهاني في فصل له حشد فيه اسجاعه ، وفضول جناساته ، وغرائب اوصافه ، وشاشته في التقعّر والتحذلق ، مشيراً الى بطسة وهي نوع من السفن في ذلك الوقت

١) المنتظم لابن الجوزي ٩ : ٤٧-٤٨

٢) السلوك لمعرفة دول الملوك ، ١٧٢٦ باريس ، ٣٨٢

كانت أُخذت من الفرنج ونُبذت في ساحل بيروت وصُوِّر فيها الصلبان وقُلِّد زيّ الرهبان لايهام نصرانيتها:

« امر السلطان بترميمها وتشييدها وإخفاء البنية منها وتشييدها وأزيحت منها العلة ونُقلت اليها الغلة وملئت بالشحوم واللحوم وكل ما تدعو اليه الحاجة من المشروب والمطعوم وحمل فيها احمال الثياب والتقط ما جمع فيها بين القوة والقوت ورتبت فيها رجال مسلمون ونصارى من اهل بيروت وارادوا ان تتشبه بطُسّر الديو في البحر وان لا يتكشف الفرنج ما لها من السّتر فتصوروا رهبانا وصوروا صلبانا ومسحوا هاماتهم[1] ومسخوا احلامهم وغلّطوا[2] وتكوّفوا وتشبهوا بهم في كل نزّة لئلا يُتخوَّفوا وشدوا زنانير واصطحبوا حناجر وساروا بها في البحر بمراكب الفرنج مختلطين والى محادثتهم ومجاذبتهم منبسطين والقوم لجهلهم لا يشكّون انهم من اهلهم ونسوا الحادث وانسوا بالحديث وتصوروا الطيب بصورة الخبيث ولما حاذوا بها عكاء صوّبوها نحوها والريح نسوقها والفرنج تدعوهم من مراكبها وتقول: ما هذه طريقها وهي كالسهم النافذ قد سُدِّد فُوقها وقد غصت رقتها وهي تكاد تفوقها فدخلت الثغر وادخلت اليه كل خير وعجب الناس منها وما تم لها من حيلة في سير واجترأ بها البلد شهرا ووجدفيها لكل كسر جبرا فيا لها من لطيفة قضينا منها الارب ولم نقض منها العجب»[3]

٧ ــ الصليب تحفة وتجارة في الاسلام

كان لبعض رجال الدولة وامراء الملة واعيانها رأي جميل في الصليب وقبول حسن له، كآل سليمان بن وهب من وزراء الخلافة العباسية، فانهم كانوا يتبركون بوضعه في ثيابهم. ومما هو اجدر بالذكر والاعتبار ما كان يفعله صاحب حلب ابو تغلب بن حمدان، فقد رُوي عنه انه كان يتقرَّب الى ملك الروم باهدائه صلبان الذهب، يتقدَّم بصياغتها له، وعُدَّ ذلك من ذنوبه، كما جاء في نسخة كتاب كتبه ابو اسحاق الصابئ عن عز الدولة بن بويه الى المطيع لله.

١) يريد بمسح اللحى حلقها وازالتها وكان اطلاق اللحى حينئذٍ واعفاء الشاربين طيفة للحديث عاماً للمسلمين والنصارى في الشرق خلافاً للافرنج

٢) قوله غلطوا وتكوفوا اي وضعوا الكوفية على رؤوسهم ولبسوا الملوطة وهي نوع من الجباب جمع جُبَّة كانت تلبس في الشرق وفي الاندلس وهي من الرومية gabardine وتعرف في اسبانية باسم marlota وكانت ترى احياناً على نساء الفرنج وفي كتاب الروضتين لابي شامة في كلامه على حصار عكا «رُئيت امرأة عليها ملوطة خضراء فما زالت ترمي بقوس من خشب حتى جرحت جماعة ثم قتلت» (٢: ١٨٦)

٣) الفتح القسّي في الفتح القدسي ٣٨٣-٣٨٤

عند فتحه الموصل وهزيمته ابي تغلب سنة ٣٦٣ (٩٧٣ - ٩٧٤م) قال: « لاطف طاغية الروم وهاداه... وكان في ما اتحفه به الخمر التي حظر الله عليه ان يشربها ويسقيها... وصلبان ذهب صاغها له وتقرب بها اليه تقرباً قد باعده الله فيه عن الاصابة والاصالة »[1]

وفي عكس ذلك كانت عادة ملوك الروم انفاذ الصليب لكل من عقدوا معه صلحاً وهدنة ولم ينقل عن احد من الملوك والامراء المسلمين انه ابى قبول الصليب بدعوى انه شعار الكفر. وممن أرسل اليهم الصليب نصر بن صالح، صاحب حلب، روى يحيى بن سعيد في اخبار سنة ٤٢١/١٠٣٠ ان نيقيطا قطبان انطاكية اصلح بين ملك الروم رومانس ونصر بن صالح وكتب بذلك وثيقة على نسختين وكتب ابن صالح خطه واشهد على نفسه في احداها لتكون في ديوان الملك ووقع الملك بخطه في النسخة الاخرى «وانفذ معها صليباً مرصعاً الى ابن صالح اماناً بالوفاء بالشرط »[2] ولما سأل اهل دمشق سنة ٣٦٣ (٩٧٤م) قيصر الروم المعروف بابن الشمشقيق (Jean Tzimicès) بإيمانهم وحسن الرأفة بهم، وكان قد ملك بعلبك واراد قصد دمشق، قال: « قد قبلت طاعتهم وامرت بايمانهم على نفوسهم واموالهم ورضيت منهم بالخراج وانفذ لهم صليباً بالامان »[3]

وممن كان يتّجر من المسلمين بالصلبان علي بن محمد بن يوسف نور الدين التوريزي « يقال انه دخل بلاد الفرنج بسبب تحصيل صليب عندهم بلغ امره ملك الحبشة فاحب رؤيته... ووشي به الى السلطان فامر والي القاهرة فقبض عليه فوجد معه امتعة من ملابس الفرنج وشيء من سلاح وناقوسان من ذهب وكتاب بالحبشية معرّب فكان فيه مراسلة من صاحب الحبشة يستدعي منه اشياء يصوغها له من صلبان ونواقيس ويحضّه على شراء مسمار من المسامير التي سُمّر بها المسيح بزعمهم فحبس... وحكم بقتله »[4]

---

١) صبح الاعشى ٦:٤٩٠-٤٩١

٢) كتاب الذيل ليحيى بن سعيد الانطاكي ٣٦

٣) ذيل التلانسي ١٣

٤) الضوء اللامع لاهل القرن التاسع لشمس الدين السخاوي ٦:٣٨-٣٩

٨ ـ الصليب في الاعناق وعلى الصدور

لما انتزع العرب الشام ومصر من ايدي الروم ، وجدوا عادة تقلد الصلبان في النحور وعلى الصدور شاملة كل النصارى شعارًا لهم ، وعنوان ايمانهم ، فلم يتعرضوا لها ، وعدوها سمة لهم يميزونهم بها . ومن الابيات التي ذكر فيها ان الصليب سمة للنصراني قول محمد بن رزين المعروف بابي الشيص يصف خمرًا وساقيها :

يسعى بها تحيث عليه ، لدينه سمتان : زنار له ، وصليب[1]

واكثر ما كانت تشاهد الصلبان معلقة في اعناق الفتيان والفتيات . وفي الشعر اوصاف لها عديدة منها قول كشاجم في غزاله :

تبيك قامته ان قام يمزحها موشحًا بصليب صيغ من ذهب[2]

ونظيره قول ابي نواس :

قد اقام الصليب في الجيد إلفًا فهو يختاره على كل إلف[3]

وقول الخالدي في فتاة الدير :

كم فتاةٍ مثل المهاة سلبنا ها صليبًا من بين نحر وجيد[4]

وفي معناه قول عبدالله بن العباس :

كم لثمت الصليب في الجيد منها كهلال مكلل بنحور[5]

واما البالغون من الرجال فكانوا يتقلدون الصلبان على صدورهم . وفي كتاب وفادات العرب لابن سعد انَّ اكيدر ، صاحب دومة الجندل ، حين قدم به خالد كان عليه صليب من ذهب[6] . واشتهر الاخطل التغلبي بصليب له من ذهب في سلسلة ذهب بادية على صدره ، كان يدخل بها على الخلفاء والامراء

١) تباشير الشراب لابن المعتز ، ٣٢٩٩ باريس ، ٣٨

٢) ديوان كشاجم ، مخطوط في خزانة الدكتور سامي الدهان .

٣) ديوانه ؛ ٨٣٠٠ باريس ، ٣٥٣

٤) مسالك الابصار للعمري ١ : ٢٩

٥) الاغاني ١٧ : ١٣٩

٦) طبقات ابن سعد ٢٧

ويظهر في المحافل والاندية ، ويمشي احياناً المساجد ، ومن اجلها قيل له « ذو الصليب »[1] . واعظم من ذلك ان الجواري والوصائف اللواتي كنّ في قصور الخلفاء كن يتحلّين دائماً بصلبان الذهب تبرّكاً وتجمّلاً . ولم ينقل عن احد من الخلفاء العباسيين انه انكر على احداهنّ تعليق الصليب بترأى منه ، او عدّ ذلك جرأة منهن ، بل كانوا يستظرفون ذلك منهن ويعجبون احياناً بهذا الحلي الرائع اذا تلألأت صفرته على بياض الجيد الناصع . وقد نقلنا في كتابنا « الصليب في الاسلام » ان المهدي العباسي ابن المنصور دخل يوماً بعض دوره ، فاذا جارية له نصرانية ، واذا جيبها اي طوق قميصها واسع وقد انكشف عما بين تدييها ، واذا صليب من ذهب معلق في ذلك الموضع فاستحسنه ، فمد يده اليه فجذبه فاخذه ، فولولت الجارية على الصليب . فقال المهدي في ذلك تظرفاً :

يوم نازعتها الصليب فقالت ويحَ نفسي انا نحاتي الصليبا[2]

وانما يجذبه على طريق المداعبة ، دون اقل استهجان ، ولذلك قال الطبري « فاستحسنه » .

ومما يشهد ايضاً بشيوع اظهار الصلبان في دور الخلافة ان جواري القصر الروميات كنّ ، اذا حضر عيد الشعانين ، يحتفلن به في حضرة الخلفاء والحرم ، وفي اعناقهن صلبان الذهب ، وفي ايديهن الخوص والزيتون . وشهد المأمون مرّة عشرين منهنّ مزيّنات قد تزيّنّ بالديباج الرومي فاستظرفهنّ ، وضنّع فيهنّ ابياتاً غنّي له بها . ولم يزل يشرب وترقص الوصائف بين يديه حتى سكر[3]

وقد استهجن مؤلف كتاب « المرأة في جاهليتها واسلامها » مجلس المأمون هذا بين الجواري الروميات ، وقال متعجباً : « هل رايت كهذا خليفة رسول الله تُشَدُّ بين يديه الزنانير وتعلّق الصلبان ويعلق الخوص والريحان » ؟ ولم يكن ثمّ ريحان في الحقيقة وانما هو الزيتون استبدله حبّاً للسجع . وما ندري بمَ انكر شدّ الزنانير ؟ فهل كان يجهل ان الزنانير كانت من سمات اهل الذمة

١) القاموس المحيط للفيروزابادي ١ : ٩٣ ، والتاج ١ : ٢٣٨

٢) تاريخ الطبري ، طبعة اوربة ، القسم الثالث ١ : ٥٤٣

٣) الاغاني ١٩ : ١٢٨-١٢٩

التي اوجبها الشرع عليهم اذلالاً كالعمامة والغيار ؟ وهل شان المأمون في عينيه ، وازرى بجلافته استظرافه بعض الازياء والعادات في رعيته ، ومشاركته لهم في الفرح والابتهاج ، دون ان يرافقهم على شيء من الاعتقاد ؟ وهل يؤخذ عليه تعطفه لقبول كل احتفال واحتفاء به ، وهو قد طبع على الاعجاب بكل آية من آيات الجمال والاحسان ، ليس من الوصائف والنساء فقط ، بل من كل رجال الدين ؟ وقد حكى الشابشتي انه لما نزل سرة الدير الاعلى بالموصل وجاءه عيد الشمانين « زُيّن الدير في ذلك اليوم احسن زينة وخرج رهبانه وقسّانه الى المذبح وحولهم فتيانهم بايديهم المجامر قد تقلدوا الصلبان وتوشحوا بالمناديل المنقوشة فرأى المأمون ذلك فاستحسنه ثم انصرف اليوم الى تلاليهم وقربانهم وعطف المأمون الى من كان معهم من الجواري والغلمان بيد كل منهم تحية من رياحين وقتهم وبأيدي جماعة منهم كؤوس فيها انواع الشراب فادناهم وجعل ياخذ من هذا ومن هذه تحية وقد شُغف بما رآه منهم »[1] . وقد سبق القول انه كان لاعياد الشمانين ، خصوصاً في عهد الخلافة العباسية ، بهجة ورنة كانتا تستدعيان الناظر والسامع من كل حدب وصوب ، فكان يقبل اليها ويشارك فيها كل من شاء من المسلمين والمتزهين والشعراء . وفي كتب الادب ودواوين الشعراء صدى من اخبارها يجدر بالاستماع ، ولا نظن ان اقوام تلك الازمان كانوا اضعف اسلاماً او اخف احلاماً من بعض الغلاة اليوم الذين لم يستظهروا من تاريخ العصور الغابرة الا قول السامريين : لامساس

وظلّ تعليق الصليب في الاعناق حلية وبركة لها ، حتى دفع السخف المتوكل على الله الى انزاله فيها منزلة الحَرْي والعار . فامر ان يجعل في عنق كلّ واحد ، اذا خرج من بيته ، صليب خشب وزنه اربعة ارطال بالبغدادي[2] . وحشى على اثره الحاكم بامر الله وقلّده في مثل هذه الرعونة ، فامر في سنة ٣٩٩ (١٠٠٨—١٠٠٩م) ان يتميز النصارى في الحمامات بصليب يعلقونه في رقابهم ، وان يتميز اليهود بجلجل مكان الصليب[3] . ثم تقدم في سنة ٤٠٣ (١٠١٢م) « ان يعلقوا

١) كتاب الديارات ٧٦
٢) اخبار قطار كة كرسي المشرق في المجدل ٧١
٣) كتاب الذيل ليحيى بن سعيد ١٩٥

في اعناقهم صلبان خشب مضافة الى الزنانير . . . فأخذوا بذلك في سائر اعمال مملكته ولبسوا صلباناً طولها فتر وغيّرها عليهم بعد شهر وجعلها قدر شبر فلما كان يوم الاحد النصف من شهر ربيع الآخر من السنة أمروا ايضاً بتعظيم الصلبان التي في اعناقهم وان يُجعل طولهـا ذراعاً ملكياً في عرض مثله وان يكون فتحها ثاني شبر وسمكها اصبع وقصد بذلك إضجارهم »[1]

وروى الذهبي ان الحاكم شرط على النصارى تعليق الصلبان ظاهرة على صدورهم . . فعملوا صلبان الذهب والفضة ، فانكر الحاكم ذلك وامر المحتسبين بالزامهم بتعليق صلبان الخشب ، وان يكون قدر الواحد اربعة ارطال[2] . وفي بعض الاقوال ان امر الحاكم كان سنة ٤٠٢ (١٠١١م) وان وزن الصليب كان خمسة ارطال[3].

وفي سنة ٤٠٨ (١٠١٧م) « افرد الحاكم بامره حمامات اليهود والنصارى من حمامات المسلمين وخطّ على حمامات النصارى الصلبان وعلى حمامات اليهود القرامي »[4]

وعلى هذا المثال كان تعليق الصلبان ، حيثما كانت ، فارقاً خاصاً للنصارى ليعرفوا بها ويتميزوا عن غيرهم لاول نظرة . ولما بلغت جيوش ابي مسلم مصر لقتال الخليفة مروان الجعدي « نادوا ان من كان نصرانياً يعلق مثال الصليب من الذهب والفضة والنحاس على جبهته وعلى ثوبه وعلى باب بيته ومن لم يعمل ذلك وقتل فلا ذنب علينا منه »[5]

وبالاجمال كان تقلد الصليب دليلاً على النصرانية او انتحالها ، والتحيز لها في بعض الفتن والمنازعات . وقد تقدم ان احزاب السنّة ، في قتالهم اهل الشيعة في بغداد سنة ٤٨٢ (١٠٨٩م) ، حملوا الصلبان في حلوقهم . ولما تنصّر ابن عائشة ، من ذريـة عبدالله بن عباس من اعمام الرسول ، مع من كان محبوساً

---

١) كتاب الذيل ٢٠٣-٢ ٢

٢) تاريخ الاسلام ، خزانة بريتش موزيوم Add. 48 f° 24b

٣) اخبار ملوك بني عبيد وسيرهم لابي عبدالله بن حماد ٥٤

٤) وفيات الاعيان لابن خلكان ٢ : ١٨٦

٥) سيرة البيعة المقدسة لابن القفع ، طبعة بيروت ، ٢٠٤

معه في المطبق « شدّوا الزنانير في اوساطهم والصلب في اعناقهم »[1] فبادر المأمون الى ضرب عنقه سنة ٢١٠ (٨٢٥م)

٩ ــ قتال بعض ملوك المسلمين تحت لواء الصليب

ذكر المؤرخون عدة مواقع استجار بها المسلمون بالصليبيين لقتال الاعداء من الترك والتركمان والسلاجقة . ولكن ندر ان يختلط الجيشان ، وتتداخل الالوية لتخفق على رؤوس الصفوف الواحدة وفي سنة ٦٤٣ هـ ١٢٤٤ م كانت الواقعة بين الخوارزمية والفرنج وانضم المسلمون الى الفرنج . ووصف سبط ابن الجوزي تحالفهم وامتزاجهم تحت لواء واحد فقال :

« وكنت بالقدس وساق عسكر دمشق وعسكر حمص تحت رايات الفرنج وعلى رؤوسهم الصلبان والقسوس في الاطلاب يصلّون على المسلمين ويقسّمون عليهم وبايديهم كاسات الخمور والمغنيات(٢ يسقونهم . . . وانيت ثاني يوم الكسرة الى مكان الوقعة فرأيت الناس يعدون القتلى بالقصب فقالوا : هم زيادة على ثلاثين الف . . . واما صاحب حمص فانه وصل الى دمشق الا في نفر يسير وخيبة خزائنه وخيله وسلاحه وقتل اصحابه فجعل يبكي ويقول : قد علمت انّا لم نزل تحت صلبان الفرنج إننا لا نفلح »(٣

١٠ ــ الصليب على العمائم وبواطن الشراب

في اشعار الحانات والخمريات اشارات عديدة الى اوصاف القار والطين فوق الدنان والنواجيد ، تعلوها اختام الصليب ، كما كانت تخطّ ايضاً على زجاجات المياه المستقطرة من الازهار والورود ، تبركاً واستشفاء . ومن الشواهد المديدة قول ابن حمديس في صفة الخمرة النصرانية :

مختمة في يدي راهب ، على دنّها ختمة بالصليب(٤

وكان الصليب يُرى دائماً على الراووق وقد ظرف الشعراء واجادوا في المقابلة بين صليب الراووق وسفك ما فيه من دم الخمر ، وقهقهة الابريق عند الصب ، وهو ما يسمونه تصلية وسجوداً ، فقال الامير ناصر الدين حسن بن النقيب :

١) تاريخ اليعقوبي ٢ : ٥٥٨ – ٥٥٩

٢) الكتاب لفظة شاعت في الحقبة الصليبية ويعني بها كأساً كبيرة hanap ، وهي من الالمانية القديمة .

٣) الورق من تاريخ صلاح الدين الصفدي في المكتبة الاحمدية بحلب .

٤) ديوانه ، طبعة رومية ، ١٤

خذ شمس كأسك قبل مطلع اختها واسبق بها ، ان الكميت سبوق
في مجلس صلّى لقبلة كأسه الابريق ، لما صلّب الزاووق(١) *

واصدر الدين بن عبد الحق المتوفى سنة ٧٧٠ تقريباً:

اسيل الزاووق ، لا صُلبا ، ادهى لكن رأينا عجبا
يبكي الزاووق ببدم ، ضحك الابريق حتى انقلبا(٢)

ولفضل الله بن فخر الدين بن مكانس:

قم واصلب الزاووق ، واشفِ قلبي منه ، وانعني بذاك سولي
واسفك دم الزنّ وعاد عيدا حمراء من يأس بالفوز(٣)

وتقدّمهم جميعاً ابن الساعاتي فقال:

وحكاه الزاووق اذ قهقه الإ بريق من حسن صنعة الاوتار
ساجد للصليب منه ، وما يعـ ـرف دين الصليب والزنار(٣)

يريد بالزنار الطوق الذي يرى في خصر بعض الكئوس ، وجمع بذلك بين الصليب والزنار وهما من سمات النصارى في ديار الاسلام.

١١ ــ كسر الصلبان واهراقها بالاوامر السلطانية

يؤخذ مما حكاه البطريرك ميخائيل السرياني ان عبد الملك بن مروان كان اول خليفة امر بنزع الصلبان[٤] . ولعلّ هذا القول لا يخلو من الوهم لان عبد الملك شاهد دائماً الصليب طالعاً امام جيوشه التغلبيين ، وظاهراً في صدر شاعره الاخطل دون ان يُروى عنه اقلّ انكار له . واذا صح هذا الامر في زمانه ، فالارجح انه كان امر اخيه عبد العزيز بن مروان ، امير مصر ، لقول ابن المقفع عنه « امر بكسر جميع الصلبان التي في كورة مصر »[٥] ومما لا شبهة فيه ان ابنه الخليفة عمر هو اول من جاهر بامتهان النصارى واذلالهم ، وتقدم بكسر الصلبان في كتاب كتبه لعامل له رواه القاضي ابو يوسف يعقوب ، صاحب الامام ابي حنيفة ، قال فيه:

١) تذكرة الصفدي دار الكتب المصرية ، رقم ٤٣٠ ادب ، ص ١١٤
٢) مطالع البدور في منازل السرور للغزولي ١ : ١٢٧
٣) ديوانه
٤) Chronique de Michel le Syrien, édit. Chabot, T. II, p. 475
٥) سير البطاركة لابن المقفع ١٢١ ، طبعة بيروت .

« حدثني عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان عن ابيه بن عبد العزيز كتب الى عامل له :

« اما بعد فلا تدعنَّ صليباً ظاهراً الا كسرته ولا تركبنَّ يهودي ولا نصراني على سرج ولا يركب على اكاف ولا تركبنَّ امرأة من نسائهم على رحالة وليكن ركوبها على اكاف وتقدَّم بذلك تقدماً بليغاً وامنع من قِبَلك فلا يلبس نصراني قباء ولا ثوب خزّ او عَصْب وقد ذُكر لي ان كثيراً من قِبلك من النصارى قد راجعوا لبس الباهم وتركوا المناطق على اوساطهم واتخذوا الجبام واوفروا وتركوا التقصيص ولعمري لئن كان يُصنع ذلك فيما قِبلك إن ذلك بك لضعف وعجز ومصانعة واضم حين يراجعون ذلك ليلبسوا ما ات فانظر كل شيء نُهيت عنه فاحدُث عنه من فعلهُ والسلام »[1]

وهذا الكتاب وحده ، اذا صحت كتابته ونسبته الى عمر ، كاف لاثبات ان الشروط العمرية المشهورة باذلال الذميين ليست من وضع عمر بن الخطاب ، كما زعم الفقهاء مغالطة للرجوع بها الى صدر الاسلام ، واستمداد قوة لها من سلطة اشهر الخلفاء الاولين ، بل هي من وضع الخليفة المرواني عمر بن عبد العزيز . فهو في الحقيقة خطيبها الاول الذي يجب ان تُعزى اليه اذا تضافرت الشواهد على الحاقها به .

واقتدى الخليفة يزيد بن عبد الملك بسه عبد العزيز « في كسر الصلبان وكثط الصور في البِيَع وحمَّل الناس ثقلاً عظيماً حتى ضاق كل من في بلاده »[2] . وفي ايامه سنة ١٠٤ (٧٢٢م) كان اسامة بن زيد التنوخي متولي الخراج على النصارى بمصر ، فهدمت الكنائس ، ومُحيت التماثيل اي الصور في البِيَع والديارات ، وكُسرت الصلبان وكانت كثيرة[3] .

وكانت هذه المِحَن تتجدَّد على النصارى في كل عصر . فيكثر انتهاب ذخائر الكنائس ، ومصادرة ما في الديارات من مُقتنيات الذهب والفضة ، مما يضيق نطاق هذه الصفحات عن تعداده . وحسبك ان الامير يلبغا الناصري ، بعد وقعة الاسكندرية سنة ٧٦٧ / ١٣٦٥ ، وغزو مراكب قبرص ، صادر جميع النصارى والرهبان في مصر والشام ووضع اليد على جميع ما في الاديار من الاموال ، حتى يقال انه اجتمع عنده من ذلك اثنا عشر الف صليب منها صليب

١) كتاب الخراج ١٥٢

٢) سير البطاركة لابن المقفع ١٥٢

٣) الخطط للمقريزي ٢ : ٤٩٣ – ٤٩٢

ذهب وزنه عشرة ارطال مصرية[1] . وكان نصيب كل هذه الصلبان الكسر بحكم الشرع .

وكان بعض متحلي الاسلام من النصارى يُكرهون على كسر الصليب ، والوطء عليه بالقدم ، اقرارًا منهم بالاسلام والتبرؤ من الدين المسيحي ولذلك لما حمل صلاح الدين الايوبي طبيبه ابا نصر اسعد بن الياس بن المطران على الاسلام وزوّجه احدى حظاياه جورة قال ابن عُنين يهجو ابن المطران:

الحمد لله واجب الشكر قد اهتدى بيدي ابو نصر
وقال ان الصليب ليس يعبود ، وانفق الصليب في الكسر[2]

ولما افتتح صلاح الدين الايوبي حصن بيت الاحزان من ايدي الصليبيين ، قال نشوء الدولة احمد بن نقادة الدمشقي يمدحه من قصيدة:

هلاك الفرنج اذ عاجلوا . وقد آن تكسير صلبانهم
ولو لم يكن دنا حتفها ، لما عمرت بيت احزانهم[3]

« وفي سنة ٣٧٨ (٩٨٨م) منع الحاكم بامر الله النصارى من تزيين كنائسهم وأحرقت عدة من صلبانهم على باب الجامع العتيق والشرطة »[4]

« وفي سنة ٣٩٤ (١٠٠٣ - ١٠٠٤م) احرق الحاكم عدة كثيرة من الصلبان ومنع النصارى من اظهار زينة الكنائس في عيد الشعانين وتشدد عليهم وضرب جماعة منهم »[5]

ونقف عند هذا الحد . وفي الآثار الاسلامية مجال المزيد ، وانما نقلنا ما نقلناه على سبيل الاستشهاد والتعريف .

---

١) ذيل السخاوي على دول الاسلام للذهبي ، خزانة اكسفرد دون ارقام Marsh. 508
٢) ديوانه ، خزانة الفاتيكان رقم ٣٦٠
٣) كتاب الروضتين لابي شامة ٢ : ١١
٤) الخطط للمقريزي ١ : ٣٦٤
٥) الخطط ٢ : ٥٠٧

الزنار

١ ــ الزنار في اللغة والشرع

عرّف اللغويون الزنار بانه خيط غليظ يُشدّ في وسط النصارى والمجوس . من قولهم : تزنّر الشيء ، اذا رقّ [1] وفي المعرّب للجواليقي : قال ابو بكر : الزَنْز فعل مات . تزنز الشيء اذا دق . ولا احسبه عربياً . فان يكن للزنار اشتقاق فمن هذا . وقال سيبويه : ليس في كلام العرب نون ساكنة بعدها راء مثل قَنْر وزَنْز [2] . وفي اساس البلاغة : شدّ الزنار ، او الزنّارة ، على وسطه وتزنّر النصراني وتقول : رمى الله تعالى بالزنانير اصحاب الزنانير اي بالحصى [3] .

وذكر القاضي ابو يوسف يعقوب الزنارة فقال : يؤخذ النصارى بان يجعلوا في اوساطهم الزنارات مثل الخيط الغليظ يعقده في وسطه كل واحد منهم هكذا كان عمر بن الخطاب (رضه) امر عماله ان ياخذوا اهل الذمة بهذا الزي حتى يعرف زيهم من زي المسلمين [4] . وفسّر ابو يعلى الفراء شدّ الوسط بالزنار بانه « مبالغة في الإذلال بدلالة انه يفعله العبد والخدم » [5] .

وخصّ بعضهم الزنّار بانه من الابريسم ، وهو نوع من الحرير ، وعليه قول التعريفات : « الزنار خيط غليظ بقدر الاصبع من لابريسم يشد في الوسط وهو غير الكُستيج » [6] . وذكروا في تعريف الكستيج انه « خيط غليظ بقدر الاصبع من الصوف يشدّه الذمّيون فوق ثيابهم ، دون ما يتزينون به من الزنانير المتخذة من الابريسم معرب كستي بالفارسية » [7] . وفي شرح دُرر الحكّام في غُرر الاحكام : « الكستيج هو خيط غليظ بقدر الاصبع من الصوف والشعر

١) التاج ٣ : ٢٤٣ ، واللسان ٥ : ٤١٩
٢) المعرب طبعة اوربة ، ٧٧
٣) اساس البلاغة ، طبعة الدار ، ١ : ٤٠٩
٤) كتاب الخراج ١٥٢
٥) بيان ما يلزم اهل الذمة فعله ، مخطوط ، ص ٩
٦) التعريفات ، طبعة سنة ١٣٥٣ ، ص ٦٧ ــ ٦٨
٧) التاج ٦ : ٩١ ، والقاموس ١ : ٣٠٥

يشدّه الذمي على وسطه وهو غير الزنار فانه من الابريسم »[1]. فيكون فرق ما بين الزنار والكستيج ان الاول من الابريسم ، والثاني من الصوف ، ولكن غلب في الاصطلاح اطلاق الزنار على كل ما شدّ الوسط من ابريسم او صوف او شعر او قطن او جلد وما اشبه من منديل ونحوه . ومع انه وُضع في الاصل لما كان من الحرير ، اضطروا بعد ذلك الى تقييده في الكلام على شروط اهل الذمّة بان لا يكون من الحرير . قال القلقشندي : « يشد الرجال منهم الزنار من غير الحرير في وسطه وتشده المرأة تحت ثيابها وقيل فوقه »[2]

٢ متى دخل الزنار في شروط الذميين

ليس في اشعار الجاهلية التي وقفنا عليها ذكر لزنار النصارى ، الا في ابيات ثلاثة لعدي بن زيد في احدى روايتين لها وهي قوله :

يا لُبينى أوقدي النارا إن من تهوين قد حارا
رب نار بتُّ ارمقها تقضم الهندي والغارا
ولها ظبي يؤجّجها عاقد في الشعر زنارا[3]

ولكن صاحب الاغاني نقل البيت الثالث منها هكذا :

عندها ظبي يؤرّثها عاقد في الجيد زنارا[4]

وكان النصارى ، قبل الاسلام ، يتزيّنون بالزنانير المحلّاة بالذهب والفضة ، ويتباهون بلبسها . قال ابو الفرج الاصبهاني : « كان النعمان يركب في كل احد الى دير اللجّ ، وفي كل عيد معه اهل بيته من آل المنذر ومن يناديه من اهل دينه عليهم حلل الديباج المذهبة وعلى رؤوسهم اكاليل الذهب وفي اعناقهم الزنانير المحلّاة بالذهب المفصّصة بالجوهر وبين ايديهم اعلام فوقها صلبان الذهب »[5]. وقد سبق الرهبان قديماً الى التزنّر والانتطاق . ونُقل عن مار أمّه او ابّا الجاثليق انه كان اول من امر الاسكلانيين بشدّ الزنانير في

١) خزانة الفاتيكان رقم ٢٤٧
٢) صبح الاعشى ١٣ : ٢٦٤
٣) مسالك الابصار للعمري ١ : ٢٥
٤) الاغاني ٣ : ٢١
٥) مسالك الابصار للعمري ١ : ٢٢٦

اوساطهم ، ليتميزوا بذلك عن غيرهم[1] . فالزنّار اذن كان معروفاً عند النصارى ، قبل الهجرة ، والامام عمر بريء من تهمة وضعه عليهم قصد إذلالهم. وقد روى ابن عساكر في جملة الشروط التي زعموا انه اوجبها عليهم قوله بلسانهم «لا نتشبه بالمسلمين في شيء من لباسهم في قلنسوة ولا عمامة ولا سراويل ذات خدمة ولا نعل ذات عذبة ولا غشي الا بزنار من جلد[2]» وقد عقّب ابن عساكر على هذا القول بحديث مسروق عن عبد الرحمن بن غنم انه قال : ما رأيت هذه الزيادة في ما وقع الينا من عهود عمر بن الخطاب ووجدتها مروية عن عمر بن عبد العزيز[3] . وفي هذا الاستدراك من ابن غنم حجة قاطعة بنفي تهمة الشروط عن ابن الخطاب ، ونسبتها الى ابن عبد العزيز . على اننا نشكّ ايضاً في هذه النسبة ، لان لبس الزنار كان شائعاً بين النصارى في الجاهلية ، قبل خلافة العمرين ، ولم يكن زنّار الجلد خاصاً بعامة النصارى كما يوهم الشرط المذكور ، بل كان ينفرد به الرهبان والنساك كاليوم . وقد راجعنا كل ما وقع لنا من اخبار الامويين ، والاشعار المقولة في زمانهم ، فلم نجد فيها ذكراً للزنار في اوصاف النصارى الّا في ما زعموه من اوامر ابن عبد العزيز وكتبه الى عماله في التضييق عليهم . واكثر ما يجي التغزّل بالزنار في خصور الغلمان في الاشعار العباسية . ولابي نواس ابيات فيها اشتهرت عنه ، وظرف فيها غاية الظرف ؛ وعلى سنّته مشى من جاء بعده من الشعراء ، حتى اصبح الزنار ، بعد الصليب ، من اشهر سمات النصارى في الاسلام . ولذلك قال ابن المعتز في وصف ساقٍ نصراني :

وجاس غاب عنّا عاذله حنّ به نرجس ونسرين
وزانه من بني العباد رشا ، بالجيد والقلنسوة سحّار
ابن نصارى يدين دينهم حدّث عنه بذاك زنّار[4]

وله ايضاً :

قد حثني بالكأس ، اول فجره ، ساقٍ علامة دينه في خصره[5] .

---

١) تاريخ حضارة الناطرة ٦٦٥٣ باريس ، ١٨٠

٢) تاريخ ابن عساكر خزانة برلين ، وزيرم 8888 ff 302 r. (2)

٣) تاشير الشراب ٣٢٩٩ باريس ٢٨

٤) من غاب عنه المطرب للثعالبي ٣٦٠١ باريس ١٢٧

ومما يرجح ايضاً حدوث شرط الزنار في اوائل عهد العباسيين ، ان الكستيج لم يكن معروفاً في الخلافة الاموية ، وهو لفظ فارسي دخل بغداد مع المال الفرس ، وقلّ استعماله . واذلك اغفله « لسان العرب » ولم يُشر اليه كتاب الخراج في كلامه على لباس النصارى الذي كتبه القاضي ابو يوسف يعقوب لهرون الرشيد . وهم يفرقون بين الزنار والكستيج ؛ وعندهم ان الكستيج يجب ان يكون في وسط كل ذميّ ، واذا وضع معه الزنار ، يجب ان يكون الكستيج من دونه ، اي تحته ، ولكن غلب ذكر الزنار وحده في الاوامر السلطانية ، كما سيجيء . ولم نجد فيها اقلّ اشارة الى الكستيج .

٣ ــ اشتهار النصارى بالزنانير دون سائر الذميين

في الشروط العمرية ان الزنار كان متوجباً على اهل الذمة من النصارى واليهود والمجوس ولكن لم تشتهر به حقيقةً الا النصارى وحدهم . وقد سبق تعريف اللغويين ان الزنار خيطٌ يشدّ في اوساط النصارى والمجوس ، دون اشارة ما الى اليهود . وقلّ جدًا ذكر اليهود في الاوامر السلطانية بلبس الزنار . ومن الابيات القليلة التي صُرّح فيها بلبسهم اياه قولُ ابي نواس ، وقد نزل في حانة خمّار يهودي :

وفتيان صدق قد صرفت مطيّهم ... الى بيت خمار ، نزلنا به ظهرا
فلما حكى الزنّارُ ان ليس مسلماً ، ... ظننّا به خيرًا ، فظنّ بنا شرّا
فقلنا : على دين المسيح ابن مريم ؟ ... فاعرض مزوّرا ، وقال لنا هُجرا
ولكن يهوديٌّ يجيك ظاهرًا ... ويضمرُ في المكنون منه لك الغدرا
فقلت له : ما الاسمُ قال : سؤالٌ ، ... ولكنني أُكنى بعمرو ، ولا عمرا
وما شرفتني كنيةٌ عربيّةٌ ، ... ولا أكسبتني لا ثناءً ولا فخرا
ولكنها خفّت وقلّت حروفها ، ... وليست كأخرى انها جمعت وقرا
فقلنا له ، عجبًا بظرف لسانه : ... اجدت ابا عمرو ، فجوّد لنا الخمرا[1]

وعلق شارح الديوان على البيت الثاني انه « يقول ظننا انه نصراني فاذا هو يهودي فغضب من قولنا : « انت نصراني » . والنصارى عندهم اظرف من اليهود »[1] وكان اليهود اكثر ما يعرفون بالغيار اي باللون الاصفر في عمائهم . ولما زار

١) ديوانه ، خزانة الفاتيكان رقم ٦٥٦ ، ص ١١٤

ابن سعيد مدينة القاهرة وكان وصوله للاسكندرية سنة ٦٣٩/١٢٤١ قال : « اكثر ما يتميش بالقاهرة اليهود والنصارى في كتابة الخراج والطب. والنصارى يمتازون بالزنار في اوساطهم واليهود بعمائم صفر ويركبون البغال ويلبسون الملابس الجليلة[1] »

ومع ان النصارى كانوا يمتازون ايضاً بعمائم خاصة بهم ، فلم يلحظ ابن سعيد من غيارهم الا زنانيرهم . وهو ما يدلّ على ان اليهود لم يكونوا معروفين خصوصاً كالنصارى بشد الزنار ، بل عالباً بلبس الغيار في العمائم والرقاع المخالف لونها لون ثيابهم ، كما سيأتي الكلام عليها . ولذلك كتب بديع الزمان في احدى رسائله : « من لم يلبس مع اليهود غيارهم ولم يعقد مع النصارى زنارهم ولم يشبّ مع المجوس نارهم هُدي[2] . . . فكان من ثم كلّ مزنّر يُرى لاول وهلة يُظن انه نصراني ، كما سبق من وهم ابي نواس .

ومن المُلح التي يطيب ايرادها هنا ما حكاه القاضي التنوخي بروايته عن ابي الحسن بن عياش قال:

« ان اسمعيل بن بلبل لما قصده صاعد (بن مخلد الوزير) لزم داره وكان له حمل قد قرب وضعه فقال : اطلبوا لي منجما يأخذ مولده فأتي به فقال له بعض من حضر : وما تصنع ايدك الله بالنجوم ؟ هنا اعرابي عائف (٣ ليس احذق منه . . . فلما دخل قال له اسمعيل : تدري لاي شيء طلبناك ؟ قال : نعم لتسألني عن حمل . وقد كان اسمعيل اوصى ألا يُعرّف ـ فتعجب من ذلك فقال له : فاي شيء هو ذكر ام انثى ؟ فادار عينه في الدار فقال . ذكر . . . فبينا نحن كذلك اذ طار زنبور على رأس اسمعيل وغلام يذبّ عنه فضرب الزنبور فقتله فقام الاعرابي وقال : قتلتَ والله المزنّر وولّيت مكانه ولي حتى الشارة وجعل يرقص واسمعيل يبكّته فنحن كذلك اذ وقعت الضجّة بخبر الولادة فقال : انظروا ما المولود فقالوا ذكر . . . فما مضى على هذا الا دون شهر حتى استدعى الموفق (اخو الخليفة المعتمد) اسمعيل وقلّده الوزارة وسلّم اليه صاعداً وذكر حديث الاعرابي فطلبه فجاؤوا به فقال : خبّرني كيف قلت ما قلته ذلك اليوم . . . فقال : نحن اذا تفاءل وتزجر الطير ونميف ما وراءه فسألتني اولاً لأي شيء طُلبتُ فتاملّت فرأيت فوق البرّاءة عصفوراً ذكراً ثم طار

---

١) نفح الطيب ١ : ٤٩٣

٢) رسائله ، طبعة الاستانة ، ٢٢١

٣) العائف هو زاجر الطير . والعيافة ان تعتبر اسماء الطير ومساقطها واصواتها فتستدل او تتشاءم

الزنبور عليك بحضر والنصارى متخصرون بالزنابير والزنبور عدو يريد ان يلسعك وصاعد نصراني الاصل وهو عدوك فزجرت ان الزنبور عدوك وان الغلام لما فيه انك ستقتل (١)

وفي ما سبق دليلٌ ظاهر على ان اختصاص النصارى بالزنار كان للتمييز بينهم وبين اليهود ، تفياً لكل اشتباه لان الصليب لم يكن يعلق دائماً في كل الاعناق ولذلك خُص النصارى بالزنار الظاهر ، كما خص اليهود بالغيار الاصفر ليُعرف به كلٌ من الفريقين لاول نظرة.

٤ - عقد الزنار كنايةٌ عن التنصر وقطعه كنايةٌ عن الخروج من النصرانية

لما غلب انفراد النصارى بالزنار ، واشتهروا بعقده دون سائر اهل الذمة ، اصبح لفظ « عقد الزنار » كنايةً عن التنصر ، فكان يقال لكل من مرق من دينه وانتحل الدين المسيحي « قد عقد الزنار » . وهو التعبير الذي اختاره ابن جبير الرحالة الاندلسي المشهور قال:

« من سوء الاتفاقات المستغاذ من شرها انه صحبنا في طريقنا الى عكة من دمشق رجل مغربي من برقة محل بجاية كان اسيرا فتخلص على يدي ابي الدرداقوت مولى الطائي وبقي في جملة صبيانه فوصل في قافلة الى عكة وكان قد صحب النصارى وتخلق بكثير من اخلاقهم لما زال الشيطان يستهويه ويستغويه الى ان نبذ دين الاسلام فكفر وتنصر مدة مقامنا بصور فانصرفنا الى عكة وأخبرنا بخبره وهو فيها قد نفس ورجس وقد عقد الزنار واستعجل النار وخفت عليه كلمة العذاب وتأهب لسوء الحساب (٢)

وفي ضدّ ذلك كانوا يقولون « قطع الزنار » لمن تبرأ من النصرانية ، وخالف سُننها ونواهيها ، واستحق الاطراح منها ، كأنه تخلص مما كان يربطه بها من اواصر الاعتقاد ، وافلت من علائقها وعوائقها . واكثر ما كان يستعمل هذا التعبير في الرهبان ورجال الدين المارقين ، وهو حقيقة غير مجاز لانهم كانوا وقتئذٍ يخلعون فعلًا الزنار ، ويلقونه بعيدًا عنهم كأنهم تحرّروا من ربقته وتبرّروا من سمته . ولما قصد تادورس مطران باجرمى دار السلطان ببغداد في ايام الوزير علي بن عيسى « قال ابو الفرج بن ديزار : « كنت حاضرًا ورأيته قبل دخوله ليترع ثياب البهاء ويقطع الزنار قد عثر وانكبّ على وجهه فخرج

(١) نشوار المحاضرة ١ : ٢٦٤

(٢) رحلته ، طبعة ليدن ، ٣٠٨ - ٣٠٩

من جبهته الدم[1] » . وحُكي ايضاً عن مطران تكريت انه « دخل بغداد واختصم مع اهل نحلته . واستوعب مال بيع تكريت وبغداد وعبر الى دار السعيد واسلم على يده واكل اللحم ودخل دار الخليفة وقطع زناره وكفر بالمسيح . . . وقصد اليعاقبة اقبح قصد وادعى عليهم كل دعوى[2] » .

ومن النكات المروية في هذا المعنى ما حدث به ابو العتاهية الشاعر المعروف من اخباره مع عتبة جارية قصر المهدي التي كان يتغزل بها قال:

« جلست عتبة يوما في اصحاب الجوهر وعرضت قلبست ثياب راهب . . . وسألت عن رجل كبير من اهل السوق فدُلت على شيخ صائغ فجاءت اليه فقالت اني قد رغبت في الاسلام على يدي هذه المرأة فقام معي وجمع جماعة من اهل السوق وجاءها فقال ان الله قد ساق اليك اجرًا هذا راهب قد رغب في الاسلام على يدك قالت : هاتوه فدنوت منها فقالت : اشهد ان لا اله الا الله وان محمدا عبده ورسوله وقطعت الزنار ودنوت وقبلت يدها فلما فعلت ذلك رفعت العرنس فعرفتني وقالت : تَحُوه لعنه الله[3] »

وما لبث المكدّون والنصابون ان ادخلوا قطع الزنار في جملة حيلهم واحابيلهم ، وتوصلوا الى صيد الدراهم من ايدي المغفلين . ومن املح الحكايات المروية في هذا الباب ما حكاه القاضي التنوخي قال ، وحكايته مثال من افانين المحتالين والمصوص التي اتقنوها وبلغوا الغاية منها لخداع الناس:

« قال بعض المكدّين ببغداد عن شيخ لهم أيسر وعظمت حاله واستغنى عن الشحذ فكان يعلمهم ما يعملون فسألنا عن سبب نعمته فقال : كنت تعلمت السريانية حتى كنت اقرأ كتبهم التي يصلون بها ثم لبست ثوب راهب وخرجت الى سرّ من رأى وبها قواد الاتراك فاستأذنت على احدهم فأدخلت فقلت له : انا فلان الراهب صاحب الدير الفلاني (اي الدير) وذكرت ديرًا بعيدًا بالشام وانا راهب فيه منذ ثلاثين سنة وكنت نائما فرأيت النبي صلعم وكأنه دخل الى عمري فدعاني الى الاسلام فاجبته فقال لي امض الى فلان القائد حتى يأخذ عليك الاسلام فانه من اهل الجنة فجئت لأسلم على يديك قال ففرح التركي فرحا عظيما شديدا . . . وقطعت الزنار واسلمت بحضرته قال فوصلني بما قيمته خمسة آلاف درهم من الدراهم والثياب وغيرها وعدت الى منزلي فلما كان من غد بكرت الى قائد منهم يزي الرهبان وقلت له كما قلت للاول واعطاني اكثر من ذلك حتى طفت على جماعة منهم فحصل لي من جهتهم اكثر من خمسين الف درهم[4] . . . »

---

١) اخبار فطاركة المشرق ٩١

٢) اخبار فطاركة المشرق ١١٥ – ١١٦

٣) بغية الطلب لابن العديم ، ٢٩٣٨ باريس ، ١٠٢ ٤) نشوار المحاضرة ٨ : ١٦٣

وكان حنين بن اسحق العبادي الطبيب واشهر التراجمة في ايام العباسيين يلبس الزنار[1] . ولما اوجب الجاثليق والاساقفة لعنه في مكيدة دُبّرت عليه « لُعن سبعين لعنة بحضور الملا من النصارى وقُطع زناره[2] »

٥ ـ الزنار في الغزليات والخمريات

اكثر الشعراء في الاسلام من ذكر الزنار في ابياتهم التي وصفوا فيها فتيان النصارى وفتياتهم . واشهرها بيتان لبكر بن خارجة قالهما في عيسى بن ايليا[3] العبادي الصيرفي من مزدوجة نظمها في اطراء النصارى وتعداد شرائعهم واعيادهم والثناء على اديارهم ، وهما:

وشادن قلبي به مسهود ، شيبته الهجران والصدود
زنّاره في خصره معقود ، كأنه من كبدي مقدود

قال دعبل : ما يعلم الله اني حسدت احدًا قط ما حسدت بكرًا على هذين البيتين[4]

ولبكر بن خارجة ايضاً من قصيدة:

معاقد الزنار في خصره عذّبني في الحب الوانا[5]

ونظيرها قول مدرك بن علي الشيباني في مزدوجته المشهورة « من عاشق نآه هواه دانِ »

يا ليتني كنت له زنّارا يديرني في الخصر حيث دارا[6]

ولابي نواس من قصيدة استحلف بها غلاماً كان يهواه:

وبالصُلب العظيمة ، حين تبدو ، وبالزنار في الخصر الدقيق[7]

---

١) تاريخ الحكماء للقفطي ، طبعة ليبسيك ، ١٧١
٢) عيون الانباء لابن ابي اصيبعة ١ : ١٨٩ ، ١٩٥
٣) الاغاني ٢٠ : ٨٧ ، ومسالك الابصار ٣٠٨ . وفي الاغاني ان اسمه كان عيسى بن البراء ، وهو تصحيف .
٤) الديارات للشابشتي ، الورقة ١٠٦
٥) اسواق الاشواق لابي الحسن ابرهيم البقاعي ، ٣٠٦٥ باريس ، ١٥١
٦) الديارات للشابشتي ، الورقة ٨٩

ولمهلهل بن يموت بن المزرّع في غلام نصراني:

شدّ زناره على رقة الخصـــــر ، وشد القلوب في زناره(١

ولابن المعتز في ساقٍ نصراني كان يلبس القُرطق ، وهو نوع من القباء ، ويعلق ذيله في زناره:

وان شئتُ عاني غزال دساكرٍ يبقر احشاء الدجى بمزاره
مليح كغصن البان ، يحمل ذيله زناره ، في قرطقٍ غير سبلٍ(٢

وله ايضاً في ساقٍ آخر:

وعاقد زنار على غصن الآسِ دقيق الماني ، خلف الخصر ، مياسِ
سقاني عقاراً صبّ فيها مراحها فاضحك عن ثغر الحباب فم الكاسِ(٣

ولابي الحسن المرورذي المتوفى في حدود الاربعمائة في غلام نصراني:

وما انسَ لا انس ظبي الكنا س يريد الكنيسة من دارهِ
يحوط بزنـاره خصره ، ويرعى الحلال بمزاره(٤

ولابي الحسين بن الصبان المهدوي — ورد دمشق في دولة نور الدين وتوفي بها — في غلام نصراني في صقلية:

ومزنر عقد الصليب بنحرهِ ، وادار حول وشاحه انجيلا
خمدت بجنح الليل جمرة ناره ، فاقام غمرة دمّه قنديلا
متطلع لذوي الهدى من كأسه نجم يكون الى الصباح دليلا(٥

ولسبط ابن التعاويذي في شماس من دير الثعالب ، رآه في بغـداد ، في عيد للنصارى:

وغزال علقتهُ ، يومَ دير الثعالبِ
من ظباء الصريم يخـــــطر في زيّ راهبِ
كالقضيب الرطب يو هبهِ حمل الذوائبِ
شدّ زنـاره فحـــــلّ عقود المذاهبِ(٦

١) الديارات للشابشتي الورقة ٩٢
٢) ديوانه ، رواية الصولي ، ٣٠٨٧ باريس ، ١١٣
٣) غاية الآداب للنويري ٤ : ١٣٠
٤) الثاني عشر من عيون التواريخ للكتبي ، من الخزانة التيمورية ، ٢٥٦
٥) خريدة القصر للعماد الاصبهاني ، ٣٣٣٠ باريس ، ٥٨
٦) ديوانه ٥٢ — ٥٣

ولابي الهيذام في وصف مهرجان نصراني:

فمن مواه هناك مقبلة ، ومن غزال عليه زنّارُ(١

ولابي الحسن بن وكيع التنيسي في غلام مزنّر:

فصلّ النصرانّ لاحا من غرسنا عند التأمل ، وهو غرس البارئ
قد عيّب الزنار رقةُ خصره حتى ظننّاه بـلا زنار(٢

ولابن المعتز في وصف رهبان دير عبدون:

مزنّرين على الاوساط قد جعلوا على الرؤوس أكاليلًا من الشعر(٣

وللسري الرفاء في راهب يقرع الناقوس في دير الشياطين:

حتى اذا انطق الناقوسَ بينهم مزنّر الخصر ، رومي الفرابين(٤

ولابي علي حسن الغزي في رهبان دير المصلبة:

ومزنرين اذا تلوا انجيلهم ، وتمطفوا ، دحمام وعسون(٥

وللشهاب العمري في راهب دير الخمان:

ما شدّ زنارًا لها في بيعة ، الّا وحلّ عزائم الرهبان(٦

وله ايضاً في راهب دير بلوذان:

ناحل الخصر حلّ عقد اصطباري عندما شدّ خصره الزنارُ(٧

وله من ارجوزة في رهبان الدير الابيض بمصر:

وقدموا في البيعة القنديلا ، وزنّروا الرؤساء والانجيلا
وزيّنوا الهيكل بالقربان ، وصفّفوا الشموع والقناني
وسكبوا الصهباء في الابريق ، صفراء ، او حمراء ، كالعقيق
وصبّها في الكأس مثل اللهب ، عقدة مثل شريط الذهب
يسعى بها مفرطقٌ مزنرٌ شبه الغزال الخشف ، أحوى ، أحورُ
من فتية داروا على الانجيل من لي بجم ، لو اضم من جبلي(٨

(١) ارشاد الاريب ٦ : ٣٠٩
(٢) اليتيمة للثعالبي ، طبعة القاهرة ، ١ : ٢٢٥
(٣) معجم البلدان ٣ : ٦٧٨
(٤) معجم البلدان ٣ : ٦٧٣
(٥) مسالك الابصار ١ : ٢٤٠
(٦) » » ١ : ٢٤٩
(٧) » » ١ : ٢٥٨
(٨) » » ١ : ٢٨١

ولاحد الشعراء في وصف خروج النساء الى قبة السنيق:

والنصارى مشدّدين الزنا نير، عليهنّ كل حلي وثيق
يتمشين من قباب الشما نين الى صحن قبة السنيق (١)

وللرقيق القيرواني في راهبة في دير القصير، بالقرب من القاهرة:

مسيحية خوطية، كلما انثنت تشكّت اذى الزنار من رقة الخصر (٢)

ولعبدالله بن العباس في فتاة نصرانية كان يهواها، ولا يراها الّا اذا خرجت الى البيعة، فوقف لها مرة في عيد الشعانين وانشد فيها وغنّى فيه:

يا نظرة امنت جوى قاتلا من شادن، يوم الشعانين
خرجنَ يغنينَ الى تربة، عوانفا بين البساتين
مزنّرات صابيناتها، والعيش ما طيّب الغانين (٣)

وكان بعض النساء النصرانيات الفاتنات المشهورات بالحسن يكتبن احياناً على زنانيرهن ابياتاً من الغزل، تحبباً وتظرفاً. قال الوشاء: رأيت جارية في بيعة ماري مريم في دار الروميين، بمدينة السلام، كأنها فلقة قمر، خارجة من الهيكل وفي وسطها زنار عليه بيتان:

زنّارها في خصرها يطربُ، وريحها من طيبها اطيبُ
وجهها احسن من حليها، ولونها من ثوبها اعجبُ

ومثل هذا التظرف والافتنان في الزيّ والملبس، تحول الزنار النصراني من سمة الذلّ والصغار الى شارة التجمل والفخار. حتى كان كل مزنّر او ضامر الخصر من الطُرق والتحف ينسب فوراً الى النصرانية، كبعض كؤوس الشراب المستدقة الوسط التي وصفها عبد الصمد بن بابك بقوله في الخمر:

هيم القسّ حولها، وتغنى بزمامير دنّها المزمارُ
ثم لما انتمت الى دين عيسى، شُدَّ في حقو كأسها زنار

ولا يخفى ما في مثل هذا التنبُّه والتخيُّل من الدقة واللطف.

---

١) الديارات للشابشتي ١٠٥ – ١٠٦
٢) ارشاد الاريب ١ : ٢٦١
٣) الاغاني ١٧ : ١٢٦
٤) كتاب الموشّى لابي الطيب محمد الوشاء، ليدن، ١٧٣

٦ ـ تعليل الافرنج زنار النصارى واختلاف اقوالهم في تعيين المزنرين منهم

في رحل الاوروبيين الى الشرق ، بين القرن الرابع عشر والسابع عشر ، عدة اشارات الى نصارى الزنار ، كما يقولون Chrestiens de la ceinture ، وتعليلات غريبة للبس الزنار . ذكر بعضهم انهم دعوا كذلك لانهم يتمنطقون بزنانير عراض من الجلد[1] ، تذكارًا للقديس توما الذي القت العذراء عليه زنارها يوم انتقالها[2] . وزعم آخرون ان هذا الاسم أطلق عليهم لانهم حين يُعمَّدون ويُغطَّسون يشد الكاهن وسطهم بزنار[3] ، عملًا بقول الكتاب : « لتكن احقاؤكم مشدودة »[4] . واضاف آخر انهم يعرفون في زعمه بعلامتهم الصفر[5] .

وقد تباينت ايضاً اقوالهم في تعيين الفرق التي كانت تُلقَّب بالمزنَّرة . وعدد احدهم طوائف النصارى في بيت المقدس وذكر منهم الفرنج ، والارمن ، والروم ، و« نصارى الزنار » (كذا) ، والقبط ، والسريان (?Serfz) والملكيين[6] . فهل عنى بنصارى الزنار الموارنة ، كما يستدل من قول احدهم : « كان عطاؤه نصرانيًا مارونيًا وبعبارة اخرى مزنَّرًا ، للبسه زنارًا طويلًا عريضًا من الجلد[7] ؟ » وقال آخرون ان المزنرين هم الروم ، واتتهم اليونانية[8] ، والقبط ، ولهم صليبات

---

(١) *Voyage du Seigneur de Villamont* (1589). Rouen, 1618 p. 337.

(٢) Gabriel Giraudet, *Discours du voyage d'Outremer* (1583). Rouen, 1637, p. 112.

(٣) Greffin Affagart, *Relation de Terre Sainte* (1533-34). Paris, 1902. p. 131 .

Bernard Parisien. *Voyage de Hierusalem* (1616-17). Paris, 1921. p. 236.

(٤) Francisco Suriano : *Il Trattato de Terra Santa e dell'Oriente* Milano, 1900. p. 76.

(٥) Carlier de Pinon, *Relation du voyage d'Orient* (1579). Paris, 1920. p. 250.

(٦) Le Baron d'Angelure : *Le Saint Voyage de Jérusalem* (1395). Paris, 1858, p. 221.

H. Moranville : *Un voyage en Terre Sainte* in Bibliothèque de l'Ecole de Chartes LXVI 1905. p. 83.

(٧) *Voyage du Seigneur de Villamont*, p. 337.

(٨) Bernard Parisien : *Voyage de Hierusalem*, p. 236.

في كنيسة القيامة[1] وفي كل هذه الاقوال وهم والتباس لان الزنّار كان واجباً على كل نصارى الدولة المصرية ، ولان العمائم الصفر كانت غيار اليهود واما النصارى فكانت عمائمهم زرقا كما سيجيء.

٧ ـ الوانه الزنار

تقدّم ان الزنار كان يتخذ من جلد ، وشعر ، وصوف ، وقطن ، وابريسم ، وحرير فكانت من ثمّ الوانه تختلف ، بحسب ما يعمل منه ولم يكن يطلب من اهل الذمة الّا ان يكون ظاهراً بيناً ، ليتميّزوا به عن المسلمين . ولعلّ اول من الزمهم الاقتصار فيه على السواد كان الحاكم بامر الله ، كسائر ما احدثه بهم من الحماقات والسخافات . قال يحيى بن سعيد الانطاكي : « سنة ٤٠١ (١٠١٠م) امر الحاكم ان تؤخذ الذمة من النصارى واليهود بتغيير الزنانير الملوّنة التي يلبسونها والاقتصار على لبس الزنانير السود فقط دون غيرها من الالوان[2] ».

وروى المقريزي هذا الامر بتاريخ سنة ٤٠٣ (١٠١٢م) فقال : « فيها امر النصارى بلبس السواد . . . وان يشدّوا الزنانير[3] ». ولا يتضح من هذه الرواية هل كان السواد يعم الاثواب والملابس كلها ام كان منحصراً في الزنانير والعمائم فقط .

وبعد مقتل الحاكم خفف النصارى الغيار ، اي لبس السواد ، وتبعهم لا شك في ذلك اليهود « واقتصر الاكثرون على لبس زنار وعمامة سوداء[4] ». ويظهر انهم عادوا بعد ذلك الى اتخاذ ما شاؤوا من الالوان ، الى ان كانت سنة ٦٥٩ للشهداء (١٢٤٣م) وفيها « كان النصارى في مصر في ضائقة من قِبَل القاضي حتى انه كأنّ الناس ان من كان ثوبه ابيض يجعل زناره ازرق او اسود او لوناً يخالف الابيض وان كان ثوبه اسود او ازرق فيكون زناره ابيض واخذ جماعة بذلك فكان العوام اشد من هذه الامور كلها . ولم يكن في القاهرة شيء من هذا[5] » يريد ان النصارى واليهود لقوا من عوام المسلمين عنتاً واضطهاداً

(١) *Voyage de Georges Langherand...* (1485-86). Mons 1861 notes

(٢) كتاب الذيل ٢٠٠

(٣) الخطط ، بولاق ، ٢٨٧

(٤) كتاب الذيل ٢٢٨

(٥) سير البطاركة لابن المنفع ٤٢٤

في اختيار الملابس والالوان ، اشدّ من عنت مخالفة الالوان نفسها ، ومن الغريب ان تكون احكام القضاة في مصر لا يعمل بها في القاهرة.

ولا ريب ان حجة القاضي في هذا التلوين ان يكون الزنّار بيّناً مميزاً ينم على ذميّة حامله بمجرد النظر اليه ، لئلا يظن انه مسلم فيوقّر . وقد اخطأنا التوفيق ، فلم نعثر ، في كل ما طالعناه ، على اقل اشارة الى الوان زنانير النساء في اوقات السلامة والرخاء والمباهاة بالازياء . ولا نشك انهن كنّ يتزيّنَ بالخز والوشي والديباج ، ويتفنّنَ في التزيّن ، ايام الاعياد والمواسم ، بكل ادوات الزخرفة ورسوم النقوش والكتابة ، كالزنار الذي وصفه الوشّاء في حسناء دار الروم ببغداد.

٨ ـ الاوامر السلطانية بشد الزنار

حكى السيوطي ان ابن السلعوس ، وزير الملك الاشرف بن قلاوون ، كان يكره تقي الدين عبد الرحمن ابن القاضي تاج الدين ابن بنت الاعزّ ، « فعمل ورتب من شهد عليه بالزور بامور عظام . . . واحضروا من شهد بانه يحمل الزنار في وسطه فقال القاضي : ايها السلطان . . . حمل الزنار لا يعتمده النصراني تعظيماً ولو امكنه تركه لتركه فكيف احمله ؟ » وقد اثبتنا ملياً ان الزنّار في نظر الشارع سمة للذل والصغار ، ولذلك كان هم النصارى اهماله واطراحه كلما وجدوا اليه سبيلاً ، فكانت الاوامر السلطانية ترد عليهم من حين لآخر مشددة بالرجوع الى الشروط العمرية . وقد جمعنا منها كل ما تيسر لنا العثور عليه ، اثناء مطالعاتنا في اسفارنا من اخبار الزنار ننقلها هنا على ترتيب تواريخها . وقد فاتنا لا محالة نظائر لها واشباه لاهمال المؤرخين الاحاطة بكل ما جاء منها واستقراء كل ما خصّ الزنار ، في جملة الحوادث والوقائع النصرانية واليهودية التي ذكر فيها الغيار خاصة ، وهو يتناول احياناً الزنار والعمامة ايضاً في ما عدا الرقاع ، وهما نوع من انواع الغيار.

---

١) حسن المحاضرة ٢ : ١١٢

« سنة ١٩١ (٨٠٧ م) فيها امر الرشيد بهدم الكنائس بالثغور واخذ اهل الذمة بمخالفة هيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم »(١

« سنة ٢١٠ (٨٢٥ م) وثب ابرهيم بن عائشة (بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس) في جماعة معه . . . فدوّنوا الدواوين واثبتوا اسماء الرجال وسمّوا العمال فظفر به المأمون بحمص في المطبق فاحتال ابن عائشة اهل المطبق حتى حملهم على الوثوب وان يشهروا وتنصروا وشدوا الزنانير في اوساطهم والصُلُب في اعناقهم . . فركب المأمون الى المطبق . . . ودعا بابرهيم فضرب عنقه »(٢

« سنة ٢٣٥ (٨٤٩ م) امر المتوكل اخذ النصارى واهل الذمة بلبس الطيالس السلية والزنانير . . . وامر باخذ عمالهم بلبس الزنانير وجعلهم لبس المناطق »(٣

« سنة ٣٩٥ (١٠٠٤ م) امر الحاكم بامر الله ان يلبس النصارى واليهود دون الخيارة زنانير في اوساطهم والعمائم السود على رؤوسهم وامتثل ذلك في سائر مملكته »(٤

« سنة ٦٨٢ (١٩٠١ م) خرج توقيع من الخليفة بالزام اهل الذمة لبس الغيار والزنار ودرهم الرصاص المعلق في اعناقهم مكتوب فيه « ذمي » وان تلبس النساء مثل ذلك درهم في خلوقهن عند دخول الحمام ليُعرفن وان يلبسن الخفاف وردًا اسود وفردًا احمر وخلخالًا في ارجلهن »(٥

سنة ٥٦٤ (١١٦٨ م) لما قدم الامير اسد الدين شيركوه وتقلد وزارة الخليفة العاضد شدد على النصارى وامرهم بشد الزنانير على اوساطهم ومنعهم من ارخاء الذوّابة التي تسمى اليوم العَذَبة(٦

« سنة ٩٥٥ (للشهداء (١٢٣٩ م) اتخذ للناس رجل خادم يقال له شيل الدولة خادم النبي وادعى انه رأى نبيّهم في النوم وقال له : حذ الذمة بتغيير حليتهم فانهم قد خرجوا عن حدهم وشرع في ضرب الناس والإحراق بهم من النصارى واليهود فالنصارى يُحزم برفع الذوائب وشد الزنانير واليهود بعمل العلامة الصفراء وصار بعض الجماعة (اي الاقباط) يشد الزنار ويرخي الذوّابة وانتهى الى قطع ذوّابة القس كاتب الخوانجخانة لانه كان ارخاها وشد الزنار وكان اذا لم يجد مع واحد زنارًا قطع عمامته وشد وسطه بها ونودي على ذلك بالاشهار في يوم السبت الخامس عشر من ابيب (٩ يوليو سنة ١٢٣٩ م) ووقع الناس من ذلك في شدة وثقل عليهم لانه شيء قد ببعد عهدهم به منذ عشرين سنة . . . واسلم بهذا السبب رجل من خيار النصارى يقال له الثقة بن الشماس وكان صاحب ديوان الخوانجخانة والبيوت والاصطبلات وديوان الحاشية واخذوه بشد الزنار فشده فاخذوه

(١) الكامل لابن الاثير ، وتاريخ الطبري ، طبعة اوربة ٣ : ٧١٢-٧١٣

(٢) تاريخ اليعقوبي ٣ : ٥٥٨-٥٥٩

(٣) تاريخ الطبري ٣ : ١٣١

(٤) كتاب الذيل ليحيى بن سعيد ١٨٧

(٥) عجائب البدائع لابن الجوزي ١٥٦٧ باريس ٣٦

(٦) الخطط ١٦٠

برفع العذبة فابى فتكاثروا عليه وازروه فرمى الزنار فقالوا : انه اسلم وشهدوا عليه فاسلم وكان النصارى في هذا الوقت في ضيق عظيم وهوان اليم وراي من اقبيم من العامة والسوقة شتمهم وسبّهم ثم ان الامر تحلل في امر العذبة فصار بعض الناس يرخيها لكن بامر استاذ الدار وهم ثلثة انفس الذين رُسم لهم بارخاء العذبة مع شد الزنار ثم انهم اجتمعوا وكتبوا فتاوى واخذوا فيها خطوط الفقهاء في امر الذوّابة من العامة فافتوا جميعهم بانه لا يلزمهم رفعها بل شد الزنار خاصة للتمييز بينهم وبين المسلمين . . .

فلما كان يوم الخلوق(١ اتفق ان الخادم المشار اليه كان في البحر واتفق ان قوماً من النصارى كانوا في مركب في البحر وفيهم من هو مشدود الزنار ومن هو بغير زنار فعرفهم الخادم والصق(٢ عليهم وحملهم الى جمال الدين استادار فسيّرهم الى المحتسب بمصر فحمل الامر على انهم جميعاً بغير زنار فضربوا وشهروا في مصر كلها وكانت قضية شديدة على النصارى وفكمن العوام منهم وكانت بدعة عظيمة »(٣

سنة ٩٥٨ للشهداء (١٢٥٢ م) في هذه الايام نودي بمصر بما حكايته : رسم الشرع ان تشد النصارى الزنانير في اوساطهم وقيل السبب فيه ان حرادة (متولي الجوالي) لانه شكا الى القاضي ان النصارى ما عادوا يعرفون من المسلمين لانهم ما يشدون الزنانير وان الرسل ربما سكروا المسلمين فأمر بهذا النداء فرجع الناس شدوا الزنانير في اوساطهم المشايخ منهم ومن يخاف على عرضه وتسلط العوام على جاري عادتهم »(٤

« سنة ٧٥٥ (١٣٥٤ م) عاد اهل الذمة الى المباشرات فانتدب السلطان الملك الصالح صالح ابن الملك الناصر لمنعهم من ذلك والزمهم بالشروط العمرية وكتب بذلك مرسوماً شريفاً وبعث بنسخته الى الاعمال فقرئت على منابر الجوامع . . . (ومما جاء فيه :) ان يلزموا زيهم حيثما كانوا ويشدوا زنانيرهم غير الحرير على اوساطهم »(٥

« سنة ٧٦٥ (١٣٦٤م) من مرسوم كتب به عن نائب المملكة الشرقية الى نائب حصن الاكراد بإلزام اهل الذمة بما أُجري عليهم احكامه من امير المؤمنين عمر بن الخطاب :

« واما اهل الذمة فما رفع عنهم السيف الا باعطاء الجزية والتزام الاحكام واخذ عهود أكيدة عليهم من اهل النقض والابرام فليتقدم الجناب الكريم بالزامهم بما التزموه به الفاروق رضوان الله عليه وليلجئهم في كل احوالهم الى ما الجأهم اليه من اظهار الذلة والصغار وتة بر التمل وشد الزنار وتعريف المرأة بصبغ الازار . . . »(٦

---

١) الخلوق نوع من الطيب كان يُطيّب به عمود مقياس النيل حتى بلغ ارتفاع الماء ستة عشر ذراعاً .

٢) يريد بقوله الصق عليهم ادنى مركبه من مركبهم حتى بانه والصق به .

٣) سير البطاركة ٣٩٢ - ٣٩٣

٤) » » » ٤١٨

٥) صبح الاعشى ١٣ : ٣٢٨ - ٣٨٧

٦) صبح الاعشى ١٣ : ٣٠ - ٣٢

العمائم في الاسلام

١ ـ اوصاف العمامة وازيائها

ذُكرت العمامة عند ابي الاسود الدؤلي فقال: «جُنّة في الحرب ومكنة من الحر ومدفأة من القر. ووقار في الندي وواقية من الاحداث وزيادة في القامة وهي تمدّ من عادات العرب[1]». واملح ما في هذا الوصف قوله: «زيادة في القامة» لعظم ما بلغته العمامة في الحضارة من الارتفاع والاتساع، كما سيأتي من اخبارها. ولذلك عُدّت وقارًا في المجلس، ولا سيما اذا تناهت منها حلقات دائرة تطلّ على لحىً عظيمة تفترش الصدور وتملأ الابصار هيبة وجلالًا، وتفغم الانوف بطيب ما ضُمّخت وحُشيت به من مسك وغالية.

وكان النصارى يأتنون غالبًا بالمسلمين في عمائمهم. وكانت لهم احيانًا عمم خاصة، كما كانت لسائر طبقات الناس في ايام الخلافة العباسية قال الجاحظ: «للخلفاء عمة وللفقهاء عمة وللبقالين عمة وللاعراب عمة وللصوص عمة وللابناء عمة وللروم عمة ولاصحاب التشاجي عمة[2]». وقد اغفل عمدًا او سهوًا عمم اهل الذمة وفاتنا اذة معرفة ما كان الفارق بين كل هذه العمم، وكيف كانت تُكوَّر او تشدّ كل منها، وما كانت تمتاز به من طول وعرض ولون وصبغ ولفّ وتكوير، ومن اي نسيج كانت تؤخذ من بزّ او خزّ ووشي او شرب وابريسم او حرير، وهل سبق للاشراف من الهاشميين الطالبيين لون خاص منها في غير السواد العباسي، قبل ان يمتازوا بالعصابة الخضراء في دولة الاشرف شعبان من ملوك المماليك. وقد حرمنا بالاجمال علم وصف الازياء من رجال ونساء منذ الهجرة واختلاط العرب بالروم والفرس الى استيلاء الاتراك العثمانيين على مصر والشام والعراق، فلم يتهيّ الينا الا لمحات بارقة بدرت من الاقلام عرضًا لا يصحّ ان يُبتّ معها حكم، او يستقرّ فيها رأي، لاقتصار اصحاب المعاجم على تفسير الفاظ اللغة من الملبس والمفرش بقولهم: «نوع من الثياب معروف».

---

١) البيان والتبيين للجاحظ ٣ : ٨٢ — ٨٣

٢) البيان والتبيين ٣ : ٧٨ — ٧٩

دون ان يتكلفوا له اقلّ نعت او شرح ، كما فعلوا في اكثر مرافق الحضارة في الاسلام ، فخفيت عنا اخبارها واوصافها واصبحنا اليوم في عجز عن المباهاة بطرائفها وتعداد فنونها.

ولولا علم الحديث وما ألّف لاجله من فقه وتفسير ، افاتنا ايضاً هذه البقية الباقية في الشرع من اوصاف العمة . وكان فيها نوعان : التلحي والاقتعاط . وفسروا التلحي بانه جعل بعض العمامة تحت الحنك ، والاقتعاط شد العمامة على الرأس من غير ادارة تحت الحنك[1] . وأمر بالتلحي ونُهي عن الاقتعاط . روى ابن وهب عن مالك انه سُئل عن العمامة يعتمّ بها الرجل ولا يجعلها تحت حلقه ، فانكرها وقال انه من عمل القبط[2] .

والمشهور من اوصاف العمم ثلاثة : الطابقية ، والميلاء ، والقفداء . والعمة الطابقية هي الاقتعاط اي ان يتعمم ولا يدير تحت الحنك ، والميلاء نوع ذُكر في كتب اللغة ولم تبين صفته[3] ، روي ان محمد بن سعد بن وقاص الذي قتله الحجاج كان يعتم الميلاء قال الفرزدق :

ولو شهد الجبل ابن سعد لقنّعوا عمائمه الميلاء عضباً مهنّدا[4]

والقفداء من العمم التي تُعقد في القفا ، ولا تُرخى فيها الذؤابة[5] . والسنة في العمامة ان يُسدل طرفها ان شاء بين يديه ، وان شاء بين كتفيه[6] . واكثر ما كانت تُرسل الذؤابة بين الكتفين ، وكان يقال لها العَذَبة ايضاً . وكان الاقباط يحرصون اشد الحرص على التشبه بالمسلمين في اسدال طرفها على الظهر كما تقدم من اخبارهم في الكلام على الزنار . ولما قدم الامير اسد الدين شيركوه وتقلّد وزارة الخليفة العاضد بمصر ، شدّد على النصارى وامرهم بعقد الزنار في اوساطهم ، ومنعهم من ارخاء الذؤابة . فكتب المهذب زكريا ابن ابي المليح كاتب ديوان الجيش لاسد الدين :

١) النهاية لابن الاثير ٣ : ٢٦٧ و ٤ : ٥٤ ؛ والتاج ٥ : ٢١٠ و ١٠ : ٢٢٤

٢) الاحاديث الحسان في فضل الطيلسان لجلال الدين السيوطي ، مخطوط عندنا .

٣) قاموس الفيروزابادي ٤ : ٥٢ ، واللسان ١٤ : ١٦٠

٤) البيان والتبيين ٣ : ٧٨ — ٧٩

٥) التاج ٣ : ٤٧٤

٦) كتاب المدخل لابن الحاج ١ : ١١٧

يا اسد الدين ، ومن عدله يحفظ فينا سنّة المصطفى ،
كفى غيارًا شد اوساطنا ، فما الذي اوجب كشف القفا ؟

فلم يسعفه بطلبته وعندما ايس من ذلك اسلم[1]. وقد روينا في جملة اخبار الزنار ان الثقة ابن الشماس ، صاحب ديوان الحوائج والبيوت والاصطبلات وديوان الحاشية ، لما اخذته العامة بشدّ الزنار وشدّه ، والحّوا عليه برفع العذبة فابى ، تكاثروا عليه ، فرمى زناره وشهدوا عليه بالاسلام فبذّل دينه فداء لعذبته . ومن الغريب الذي لا يقضى منه العجب ان يتفق بعض جلّة الاقباط على ايثار ذؤابة العمامة ، التي لا مزية لها الا التقليد ، على مزية الدين الذي رضعوا لبانه وشبّوا وشاخوا عليه . فهل كانت العذبة عند الاقباط عذبة الى هذا الحدّ حتى يبذوا الدين من اجلها نبذ النواة ؟

ولا شك انه كانت ، في ما عدا انواع العمة الثلاثة التي ذكرناها ، انواع اخرى تختلف بحسب اختلاف البلدان والشعوب . وما فتئت الخواطر تعمل عملها في تطوير العمامة وتكويرها حتى غلب الشذوذ على بعضها ، وبلغت حدّ الاغراب والسخف . وربما علق باحدهم لقب من صفة عمائهم كالواعظ شمس الدين محمد بن عمر بن حماري الظفاري اليمني المتوفى في القاهرة سنة ٧١٠ (١٣١٠م) قالوا كان يتعمم بعمامة كأنها أبلوج السكر ، فاشتهر لذلك بالابلوج[2].

ويستدل من بعض الاقوال ان العمائم ، في ايام بني امية ، كانت تتخذ عند الخاصة والمتأنقين من جنس الثياب قالوا : دخل سرة سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب على هشام بن عبد الملك وعليه عمامة تخالف ثيابه فقال هشام : كأن العمامة ليست من الثياب ؟ قال انها مستعارة[3].

وفي ايام العباسيين والفاطميّين كانت العمائم لا تُخلع الا في عزاء الخلفاء ، - حدّث محمد بن عباد المهلبي قال : « لما مات ابو عيسى بن الرشيد دخلت الى المأمون وعمامتي على فخلعت عمامتي ونبذتها وراء ظهري والخلفاء لا تعزّى في العمائم[4] ».

١) الخطط ٢ : ١٦٠
٢) جزء من ذيل الجواني على ابي عامة ، ليدن (د) Oral. 1700()
٣) الكامل للمبرد ١ : ٢٧٥ - ٢٧٦
٤) الاغاني ٩ : ٩٧

وفي سنة ٣٦٤ (٩٧٥م) « مات الامير عبدالله بن المعز وجلس المعز للتعزية ودخل الناس بغير عمائم واظهروا الجزع[1] ».

٢ طول العمائم وعجمها

كانت العمامة سبعة اذرع ونحوها ، يخرجون منها التلحية والعذبة ، على ما نقله الطبري . ولكن كثيراً ما كانت تتجاوز هذا الذرع ، كالعمائم الشرب التي كانت تعمل في دبيق من قرى دمياط ، ويكون كل عمامة منها مئة ذراع وفيها رقمات منسوجة بالذهب فتبلغ العمامة من الذهب خمس مئة دينار سوى الحرير والغزل . وحدثت هذه العمائم وغيرها في ايام العزيز بالله سنة خمس وستين وثلاثمئة (٩٧٥م) ، الى ان مات في شعبان سنة ست وثمانين وثلاث مئة (٩٩٦م)[2].

ولا حاجة الى القول ان مثل هذه العمائم المثقلة الغالية كانت نصيب الخلفاء والوزراء والاغنياء وحدهم . واما عامة الناس فكانوا يقنعون بدونها ذرعاً وقيمة . وقلّ جداً من خرق المعتاد بطول عمامته وزنة قبعه كالشيخ شمس الدين الرومي القاهري المتوفى سنة ٨٥٥ (١٤٥١م) قالوا: « كان طوالا كبير اللحية زنة قبعه نحو عشرة ارطال بالمصري وعمامته ازيد من ثوب بعلبكي حفظاً لدماغه وعينيه[3] ». والثوب البعلبكي لا يقل عن ثلاثين ذراعاً.

ومن اشتهر بكبر عمامته قاضي الاسكندرية عماد الدين الكندي قال ابن بطوطة : « كان يعتم بعمامة خرقت المعتاد للعمائم لم أرَ في مشارق الارض ومغاربها عمامة اعظم منها رأيته يوماً قاعداً في صدر محراب وقد كادت عمامته ان تملأ المحراب[4] » وقريبٌ منه القاضي الاعز محمد بن هبة الله بن خلف التيمي المتوفى سنة ٥٣٢ (١١٣٧م) اكثر ابن منير الطرابلسي هجاءه لطول عمامته . وله فيه من قصيدة :

---

١) تاريخ ابن ميسر ٤٦

٢) الخطط ١ : ٣٦٥

٣) التبر المسبوك للسخاوي ٢٧٤

٤) رحلته ١ : ١٠

هو قاضٍ كما يقول ، ولكن ما عليه من القضاء علامة
همّة غلاّ القضاء عليه ، فوق وجه كعُشر عشر القُلامة
ويليها من التصاوير ما لم يجمع القدس مثلها والقُمامة[1]

ومن مُلح هجاء العمامة الضخمة على الرأس الصغير قول بعضهم:

في رأسه عمامة ملفوفة مزمّلة ،
كأنها في رأسه ، قدر على سفرجلة[2]

واخص من عرفوا دائماً بكبر عمائهم ، والولع باتخاذ كل واسع وطويل خارق حيّاً للتميز والتعاظم ، القضاة حتى اضحوا احياناً هزءاً وسخرية للناس قال ابن الحاج : « ان بعض المخايلين من اهل اللهو واللعب اذا عملوا الخيال بحضرة بعض العوام وغيرهم في بعض الاوقات يخرجون في اثناء لعبهم لعبة يسمونها لعبة القاضي فيلبسون زيه من كبر العمامة وسعة الاكمام وطولها وطول الطيلسان فيرقصون به ويذكرون عليه فواحش كثيرة ينسبونها اليه فيكثر ضحك من هناك ويكثرون التقوط عليهم بسبب ذلك[3] ».

وكان كلما ازداد طول العمامة ازداد بالضرورة ثقلها . وحكي عن عبد المحسن بن محمد الصوري ، احد شعراء اليتيمة ، ان « بعض الامراء اعطاه عمامة حسنة فلبسها اياماً ثم باعها ولبس عمامة لطيفة ومشى فقال بعض من رآه ثقلت عليه العمامة فباعها فقال ارتجالاً:

قالوا : عمى ثقلت عليـــــه فباعهـا من غير عُدم
والله ، مـا ثقلت عـــــليّ عمامتي ، بل خفّ كيسي[4]

اي فرغ كيسي.

وبقيت عادة تكوير العمائم الكبار الى ايام الاتراك العثمانيين . فكان الوزراء لا يُقابلون الا بهـا ، لضمّة العمائم الصغار وانحطاطها في نظرهم . وفي الشقائق النعمانية « ان المولى يوسف بن حسين الكرمانيني المتوفى في حدود

١) شذرات الذهب في اخبار من ذهب ٤ : ١٠١
٢) حكاية ابي القاسم الطنبوري ؛
٣) المدخل ١ : ١٣١ – ١٣٢
٤) يتيمة الدهر ، طبعة القاهرة ، ١ : ٢٥٧

النعمانية (٩٥ – ١٤٩٤م) ذهب يوماً الى المسجد بعمامة صغيرة . ولما خرج من المسجد طلبه الوزير ابرهيم باشا لمصلحة اقتضت حضوره فلم يبدل عمامته خوفاً من ترجيح جانب الوزير على المسجد . فلما رآه الوزير على تلك الهيئة سأله عنها فقال في جوابه: حضرت لخدمة الخالق بهذه الهيئة ولم اجد في نفسي رخصة في تغيير الهيئة لاجل الوزير[1] .

وكان الفرزدق يؤثر العمائم الضخمة قيل : دخل النصيب الشاعر على سليمان ابن عبد الملك وعنده الفرزدق فاستنشد الفرزدق . . . فانشده . . . وعمامته على رأسه مثل المنسف[2] ولا شك ان هذا التهويل كان عاماً شاملاً اكثر الخاصة وبعض العامة من المشرقين ، كالاطباء المتبسطين في الاسواق لعلاج المرضى ومن النكت المروية في هذا الباب ان بعض الحاكة جاز على طبيب فرآه يصف لهذا النقرع ولهذا الثمر الهندي فقال : من لا يحسن مثل هذا ؟ فرجع الى زوجته فقال: اجعلي عمامتي كبيرة فقالت : ويحك اي شيء طرأ لك ؟ فقال : اريد ان اكون طبيباً .

٣ – عمائم النساء

كان النساء يتعممن كالرجال . وفي حديث عن ابي هريرة وصف نساء كاسيات عاريات محولات مائلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة[3] اشارة دون ريب الى كبر العمائم والعصائب التي كان النساء يتخذنها احياناً . وفي خبر يوم الدوحة الذي حكاه عمر بن ابي ربيعة صفة فتاة في زيّ غلام ، وعليها عمة خز سوداء[4] . ولما زار ابن بطوطة القسطنطينية قال : والنساء لهن عمائم كبار[5] . وفي سنة ٦٤١ (١٢٤٣م) « انفذ محيي الدين يوسف بن الجوزي رسولاً الى ملك الروم كيخسرو بن كيقباذ فاجتمع به في انطالية فلما عاد حكى اشياء غريبة

١) الحدائق النعمانية ، جامش وفيات الاعيان ، ٢١٧

٢) الاغاني ، طبعة الدار ، ١ : ٢٢٦ – ٢٢٧

٣) صحيح مسلم ٢ : ١٦٧

٤) الاغاني ، طبعة برلاق ، ١٠ : ٥١

٥) رحلته ١ : ٢١٦

منها ان النساء يتعممنَ كالرجال... وعمائم النساء تختلف في الكبر والصغر لأن المرأة اذا جاءت بولد تممت بعمامة طولها ستة اذرع وكلما جاءت بولد زادتها ستة اذرع وذراعهم ذراع ونصف بذراع بغداد[1] ».

وما برحت المرأة تقلد الرجل في تكبير العمامة وتكويرها ، حتى اضطر الملوك والامراء والولاة الى تهديدها بالعقاب.

وفي سنة ٦٦٢ (١٢٦٣م) امر الملك الظاهر بيبرس « بان ينادى في القاهرة ومصر بان امرأة لا تتعمم ولا تتزيا بزي الرجال ومن فعلت مثل ذلك بعد ثلاثة ايام يُسلَب ما عليها من الكسوة[2] ».

وفي سنة ٦٩٠ (١٢٩١م) « رسم نائب السلطنة بدمشق ان لا ترجع امرأة تلبس عمامة كبيرة ومن خالفت المرسوم غلظت عقوبتها فامتنع النساء من ذلك على كره منهنّ[3] ». ورجعن الى عادتهنّ القديمة باتخاذ المقانع عملاً بامر النائب الامير علم الدين الشجاعي[4].

وبقيت عادة التعمم بين النساء ومحاكاة الرجال الى ما بعد القرن العاشر للهجرة ، كما يستفاد من كتاب « نسمات الاسحار في نُبذ من كرامات الاولياء والاخيار » لعلية بن حسن الملقب بعلوان الحموي ، رقم ٩٧و٩٨ من مخطوطات الظاهرية بدمشق (تصوّف) . ولكن هذه المحاكاة كانت اكثر ما تكون ، في يظهر بين العرائس ليلة الجلاء . واما في سائر ايامهن فكن يلبسن « الشربوش » او الشاش ويسمونه ايضاً « المُقنَّع » يكون اوله على جبين المرأة وآخره على ظهرها فمنه ما يبلغ طوله ممتدًا نحو الذراع في ارتفاع دون الربع الذراع[5]. ويشبه ان يكون هو الذي شبّهه الحديث السابق الذكر باسنمة البخت . ومن الغريب الجدير بالتنبيه عليه ان الماشطة كانت تذهب بالعروس بعد الجلاء الى

---

١) الحوادث الجامعة للفوطي ، الخزانة التيمورية ، ٨٨

٢) سيرة الملك الظاهر لمحيي الدين بن عبد الظاهر ، خزانة بريتش موزيوم لندرة Add 23331 f° 7

٣) تاريخ حوادث الزمان وانبائه للجزري ، ٦٧٣٩ باريس ، ٢١ - ٢٢

٤) ذيل اليونيني ، لندرة Add. 25728 f° 36

٥) السلوك للمقريزي ، ١٧٢٧ باريس ، ١٥٢

بيت « وتخلع عنها تلك الهيئة وتفرغ عليها ثياباً غير تلك الثياب وتلبسها عمامة كعمامة القاضي والفقيه والجندي وتمسك سيفاً مسلولاً ... » الى آخر ما هنالك من الفصل الممتع الذي يلذّ جدًا الوقوف عليه لما تضمنه من وصف الاخلاق والعادات السالفة[1].

وكانت النساء المسيحيات يقلّدن المسلمات في كل هذه الازياء الغريبة، كلما وجدن اليها سبيلاً.

٤ ــ الوان العمائم

كانت العمائم في ايام الامويين تكون غالباً من جنس الثوب، كما سبقت الاشارة اليه من كلام هشام بن عبد الملك. واما في ايام العباسيين فقد غلب عليها لون شعار الخلافة وهو السواد. واكثر ما كانت تكون من الخز واما اذا استثنيت ايام الاحتفالات وجُمَع الصلاة، فكانت تتخذ من كلّ الالوان والمنسوجات. وفي الاغاني ان الرشيد « هبّ ليلة من نومه ... وخرج في دراعة وشي متلثماً بعمامة وشي[2] ». ومعلوم ان الوشي يجتمع فيه الاحمر والاصفر والاخضر وسائر الالوان[3] وفي ايام سليمان بن عبد الملك عُمل الوشي الجيد ولبسه الناس جميعاً جبابا واردية وسراويل وعمائم وقلانس[4] وفي زمان الفاطميين كانت عمائم الشرب المذهبة لباس الخلفاء والوزراء واصحاب الثراء. وقد ذكرنا في ما تقدم ان الواحدة منها كانت تبلغ خمسمائة دينار. ومن المدن المصرية التي اشتهرت بها دبيق. وكانت تعمل ايضاً من الشرب الملوّن. وعمّت بين الملوك والوزراء عادة اتخاذ العمائم الملونة. ولما قتل امير الجيوش الافضل شاهنشاه بمصر، وُجد في تركته « عشرة مسامير من الذهب زنة كل مسمار مائتا مثقال عليها العمائم المختلفة الالوان مغطاة بالمناديل المزركشة[5] ». ولعمارة اليمني الشاعر

١) طالع هذا الفصل في كتابنا « خزائن الكتب في دمشق وضواحيها » ٥٤ – ٥٨
٢) الاغاني ٥ : ٣٠
٣) مروج الذهب، جاشن الكامل، ١٠ : ٢٤
٤) مروج الذهب ٧ : ١٠٨ – ٩ : ١
٥) غاية الارب للنويري، خزانة ليدن Arab. 2 gol. 126

ابيات استهدى فيها محمد بن شمس الخلافة وهو بدمياط عامة شرب وصفها بقوله :

كأن بياضها وجه بقي ، وحسن الرقم فوق الخد شامة(١

واشتهر اهل سجستان بالإغراب في العمائم. ولعلهم انفردوا بها فانهم كانوا « يعتمون بثلاث عمائم او اربع كل واحدة لون ما بين احمر واصفر واخضر وابيض وغير ذلك من الالوان على قلانس لهم شبيهة بالمكوك ويلفونها افاً يُظهر الوان كل واحدة منها واكثر ما تكون هذه العمائم من الاربيسم طولها ثلاثة او اربعة اذرع(٢) ».

وفي سنة ٧٧٣ (١٣٧١م) امر السلطان الاشرف شعبان ان يمتاز الاشراف من الناس بعمائم خضر على العمائم . وفي ذلك يقول شمس الدين بن بركة الدمشقي المزين :

اطراف تيحان انت من سندس خصر باعلام على الاشراف
والاشرف السلطان خصهم بها شرفاً ليفرقهم عن الاطراف(٣

٥ ــ عمائم النصارى واليهود

كلّ من تكلم قديماً على احكام اهل الذمة في ديار الاسلام ذكر انها وجبت عليهم « ليقع التفريق بين الكافر الذي تجب معاداته وبين المسلم الذي تجب موالاته ولا يكون ذلك الا بالزي(٤) ». وليس بين كلّ امارات الزي ما هو امثل للعيون واشدّ ظهوراً من العمامة ، لان الزنار فضلة قد تُطرح او لا تبين جلياً لاول نظرة ، خلافاً للعمامة فانها واجبة ظاهرة على كل حال. ولذلك كانت اهم العلامات البادية لكل الابصار ، وعليها عوّل الشرع خصوصاً للتمييز بين المسلم والذمي. ولا يُدرى في الصحيح متى بدأ هذا التمييز فعلاً . ولعلّ الارجح ان اول ما نجمت عروقه وراجت سوقه بين القرن الثالث والرابع للهجرة ،

١) النكت العصرية ٢٩
٢) معجم البلدان ٣ : ٤٢
٣) ابناء الغمر في ابناء العمر للشهاب المستقلاني ١٦٠١ باريس ٢
٤) بيان ما يلزم اهل الذمة فعله للفراء ١ و٢

لاننا لم نظفر بقول فيه ورد لاحد المتقدمين قبل المئة الثالثة ، ولم يُشر احد الى نوع هذا التمييز هل كان في الهيئة والشكل ام في اللون ، وهل كان واحداً لكل الذميين . ولذلك يتعذر علينا اليوم ان نعين الزمن الذي بدأ فيه تلوين العمائم للنصارى واليهود للتفريق بينهم وبين المسلمين ، قبل ان يأمر الحاكم الفاطمي بصبغها بالسواد فقط . ولم نقف على ذكر لون لها خاص في اوائل الخلافة العباسية ، والرأي الشائع ان تخصيص الزرقة لعمائم النصارى ، والصفرة لليهود ، والحمرة للسامريين والمجوس ، كان سنة ٧٠٠ (١٣٠١م) . ولكن بعض هذا التلوين كان دون ريب قبل هذا التاريخ . وفي سنة ٥٩٢ (١١٩٦م) كان الملك العزيز جالساً بدار العدل ، فدخل عليه رجل له هيئة حسنة فلما شك العزيز انه من الاشراف . فلما علم انه ذمي « امر ان ينادى في دمشق ان تلبس اهل الذمة العمائم الغيار ليعرفوا من المسلمين[1] » . وقد اغفلوا ذكر لون هذا الغيار ، والارجح انه كان الاصفر ، لان الابيض كان لون عمائم الناس عادةً . ثم انفرد اليهود بالاصفر خاصة قبل تمييزهم بسه بامر سلطاني سنة ٧٠٠ (١٣٠١م) كما يستدل من قول ابن سعيد لما زار القاهرة سنة ٦٣٩ (١٢٤١م) ان اليهود كانوا يعرفون بعمائم صفر ، وقد سبق الاستشهاد بقوله في الكلام على زنار النصارى .

وكان النصارى يتقون دائماً سوء عواقب التمييز عن المسلمين ، وما يجره عليهم من الصغار والامتهان ، ويحرصون اشد الحرص على محاكاتهم وتقليدهم في الظاهر من احوالهم وما امكن من ازيائهم وملبوسهم ، ليأمنوا كل احتقار لهم واستطالة عليهم وعرف الاقباط بالافراط في هذا التقليد حتى في الاختتان احياناً ، واختيار الاسماء والالقاب والكنى[2] حتى اعتادوا ايضاً كتابة البسملة الاسلامية بدلاً من النصرانية[3] ، واتبعوا السنة المحمدية حيث لا يعد اتباعها فرضاً على المسلم نفسه ، كما في ارخاء ذؤابة العمامة كما تقدم . ولما مُنعوا منها

---

١) نهاية الارب للنويري ، خزانة ليدن Arab. 2 gol. F. 214

٢) المجلة الشرقية المشرق ١٩٦٨ ك١-اذار ص١-٢١

٣) طالع كتابنا : الصليب في الاسلام ٥ - ٦

اختاروا انتحال الاسلام لخوفهم سوء مغبّة التميز عن المسلمين بشيء من اللباس قد ينمّ على ملّتهم ونسبتهم . ولكنهم تجاوزوا كل حدّ في هذا التشبه والاقتداء حتى كانوا يحاكون القضاة في تكبير العمائم ، ولبس الفرجيات والجباب بالاكمام الطويلة الواسعة[1] ، بحيث اضطر الولاة الى تحذيرهم وردعهم ، وانشاء المراسيم مرة بعد اخرى بوجوب التزامهم شروط الغيار والصغار ، وتحديد ذرع العمامة لهم وتضييق الاكمام . فكانوا يزدجرون حيناً ثم يعودون الى ديدنهم . وكانت الدواوين السلطانية ملأى بالكتاب والعمال منهم ، فكانوا يعلمون من اين تؤكل الكتف ، ويبذلون كل رخيص وغالٍ للتحرّر من كل قيد وشرط ولذلك تعددت الاوامر ، وتجددت الكتابات والتواقيع في كل عصر في معنى واحد ، وهو ما يدل على انها لم تكن تُتبع دائماً أو لا تلبث ان تضعف وتبطل باحتيال رجال الدولة ومباشريها .

وقد اختلفت اقيسة عمائم الذميين في المراسيم السلطانية بين خمسة وسبعة وعشرة اذرع .

« وفي سنة ٧٥٥ (١٣٥٤م) في جمادى الآخرة منها ألزم اهل الذمة بالشروط العمرية . . . وان لا تزيد عمامة احدهم على عشرة اذرع . . . وكتب بذلك الى المالك الاسلامية »[2] .

ونقل ابن دقماق هذا الخبر في سنة ٧٥٤ .

« وفي سنة ٨٢٠ (١٤١٧م) في ثامن شعبان اجتمع عدة من فقهاء القاهرة عند الامير فخر الدين عبد الغني بن ابي الفرج الاستادار في امر نصراني ادُّعي عليه بما اوجب اراقة دمه . . . وتجاوزوا ما فيه النصارى من كبر عمائمهم ولبسهم الفرجيات والجُبب بالاكمام الطويلة الواسعة كهيئة قضاة الاسلام فنودي بمنعهم من ذلك ومن ركوب الخُمر الفُرّه ومن استخدامهم المسلمين وان يلتزموا الصغار ولا يلبسوا الا عمامة من خمسة اذرع فما دونها »[3] .

« وفي سنة ٨٢٣ (١٤١٩م) في ربيع الاول الزم صدر الدين محتسب القاهرة اليهود والنصارى بتضييق الاكمام الواسعة وتصغير العمائم حتى لا تتجاوز عمامة احدهم سبعة اذرع »[4] .

---

١) السلوك للمقريزي ، خزانة بريتيش موزيوم Or. 2902 f° 45 b

٢) ذيل السخاوي على دول الاسلام ، اكسفرد Marsh. 503 والسلوك للمقريزي ، ١٧٢٧ باريس ، ١٥

٣) السلوك ، اندرة Or 2902 f° 60 a

« وفي المحرم سنة ٨٣٠ (١٤٢٦م) نودي على اهل الذمة ان يصغروا عمائمهم وان لا يدخلوا الحمامات مع المسلمين ومن دخل منهم فليكن في عنقه جنجل او طوق حديد الى اشياء كثيرة اخترعها المحتسب تبعاً لغيره فضجروا من ذلك ورفعوا امرهم الى السلطان فاحضر القضاة في ثالث عشر المحرم وسألهم عما يجب فتقرر الحال ان لا يدخلوا الحمام الا بخيط في رقبتهم ويكون فيه خاتم من حديد او رصاص وان لا يتعرّض لعمائمهم الملونة كبرت ام صغرت . . . »(١) .

« وفي سنة ٨٥٦ (١٤٥٢م) في يوم الثلاثاء ثالث عشري صفر نودي بالقاهرة بانه لا يزيد كل من النصارى واليهود في عمائمهم على سبعة اذرع الكوهم تمردوا في ذلك وزادوا على الحد . . »(٢) .

« وفي سنة ٨٦٨ (١٤٦٣م) نودي بشارع القاهرة ان احداً من الاعيان لا يستخدم ذمياً في ديوانه . . . وقرئت المهود المكتتبة قديماً على اهل الذمة فوجدوا في بعضها ان احداً من اهل الذمة لا يباشر بقلم الديونة عند احد من الاعيان . . . ولا يلف على رأسه اكثر من عشرة اذرع . . . ودام ذلك نحو السنة وعاد كل شيء على حاله ولم السلطان ذلك فلم يتكلم بكلمة واحدة . . . »(٣) .

٦ ــ الوانه عمائم الذميين

لم ترد اشارة الى ما كانت الوان عمائم النصارى واليهود في خلافة بني امية ولا يبعد انها كانت من نفس الملابس في الغالب ، كما يتحصل من كلام هشام ابن عبد الملك . ومن ثم لم يكن يحرم عليهم لون من الالوان الشائعة ، واغلبها كانت كذلك في ايام العباسيين مع تفضيل السواد ، وهو شعار الخلافة . ويتحصل من بعض الاقوال ان لون العمائم عادة في العراق ومصر والشام كان غالباً البياض كما بقي في الكرك والشوبك بين النصارى حتى عنّ للحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥ (١٠٠٤م) « ان يلبس النصارى واليهود دون الخيابرة الزنانير في اوساطهم والعمائم السود على رؤوسهم فامتثل ذلك في سائر مملكته »(٤) واعاد هذا الامر سنة ٤٠١ (١٠١٠م) بتغيير الزنانير التي يلبسونها ، والاقتصار على لبس الزنانير السود فقط ، دون غيرها من الالوان والعمائم السود(٥) » . وخفّف الغيار بعد موته ، واقتصر الاكثرون على لبس زنار وعمامة سوداء .

١) إنباء الغمر للعسقلاني ، ٤٠٦٣ ، ١٥٤
٢) التبر المسبوك للسخاوي ٢٠٦
٣) النجوم الزاهرة ، طبعة ليدن ، ٧٢١ ــ ٧٢٢
٤) كتاب الذيل ليحيى بن سعيد ١٨٧ ٥) كتاب الذيل ليحيى بن سعيد ٢٠٠

وانما اختار الحاكم السواد للباس النصارى واليهود ، لانه كان شعار العباسيين فاراد اذلاله والحطّ منه ايضاً بتخصيصه باحقر قوم في مملكته ، في اعتباره ، وهم اهل الذمة الذين رسم الشرع الاسلامي جباههم بالذل والصغار.

ومن الابيات التي أشير فيها الى بياض عمائم الذميين قول احد ادباء الكوفة في علام نصراني:

كأنما عقد الزنار فوق نقاً واعتمّ فوق دجى الظلماء بالنور(١)

وقد نصّ غير واحد من المؤرخين على ان تشهير العمائم بالزرقة والصفرة والحمرة كان في شعبان سنة ٧٠٠ (١٣٠١م) ، اجابة لطلب وزير مغولي حضر في عرض رسالة ، فرأى حال اهل الذمة وترفهم ومباهاتهم ، فانكره واتصل نكيره بالسلطان ، فامر بجمع الفقهاء للنظر في الحدود التي تقف عندها اهل الذمة فاجمع الملأ منهم على تعيين الزرقة للنصارى ، والصفرة لليهود ، والحمرة للسامريين(٢) . وفي ذلك يقول علاء الدين الوداعي:

لقد ألزم الكفار شاشات ذلّة تربدم من منة الله تشويشا
فقلت لهم ما ألبسوكم عمائماً ولكنهم قد ألزموكم براطيشا(٣)

وارتى عليه الشيخ شمس الدين الطيبي في المجاملة واللطف فقال :

تعجبوا للنصارى واليهود معاً والسامريين لما عمّموا المِرقا
كأنما بات بالاصباغ منهلّا نمر السماء فاضحى فوقهم ذرقا(٣)

وقذفهم ابن حبيب في النار فقال:

عمائم اهل الذمة البُهت اشبهت ثلوناً ما يقضي عليها من النار
فاصفر يتلو احمرًا بعد ازرق سمات انت بالخزي والذل والعار(٤)

قال النويري:

وتقرر بدمشق ان لابس النصارى العمائم الزرق واليهود العمائم الصفر والسامرة العمائم الحمر واستمر ذلك في سائر المملكة الا بالكرك فان النائب بها جمال الدين أقش الاشرفي رأى ابقاءهم على حالهم واعتذر ان اكثر اهل الكرك نصارى وان المسلمين بها قليل وان هذا

(١) مسالك الابصار للعمري ٢١٢
(٢) العبر لابن خلدون ٥ : ٤١٦ والبداية والنهاية لابن كثير ١٤ : ١٦
(٣) المنهل الصافي لابن تغري بردي ، ٢٠٧٣ باريس ٣٠٠
(٤) درة الاسلاك في دولة الاتراك ١٧١٩ باريس ١١٠

العدد يؤدي الى ظهور كثرتهم للتريب وما اشبه هذه الاعذار فاستقر ذلك بالكرك والشوبك الى الآن واخبرني سيف الدين بليان الجوكندار في سنة احدى وسبعمائة (١٣٠٢م) وهو يومئذ استاذ الدار السلطانية وشاد الدواوين بدمشق قال : ركبت في الموكب مع الامير جمال الدين اقش الافرم نائب السلطنة بما قرر ما طائفة من اهل الذمة بالاقشة النفيسة والعمائم اللاتس قال فشق علي كونهم لم يتميزوا علامة فذكرت ذلك لنائب السلطان وقررت معه ان يأمر بتغيير هيئاتهم وان تلبس النصارى العمائم الزرق واليهود العمائم الصفر والسامرة العمائم الحمر وتقرر ان يطالع في ذلك فورد مثال السلطان بذلك قبل وصول المطالعة وراقني تاريخ تلبيسهم بالديار المصرية التاريخ الذي حدثت نائب السلطنة فيه تلبيسهم ١ .

ولا يخفى ما في هذه الشهادة من القدر والشان في تاريخ نصارى الكرك والشوبك .

وقال المقريزي بعد شرح ما سبق :

« وقدم البريد في امر الذمة الى دمشق يوم الاثنين سابع شعبان (١٧ ابريل = نيسان ١٣٠١) فاجتمع القضاة والاعيان عند الامير اقش الافرم وقرئ عليهم مرسوم السلطان بذلك فنودي في خامس عشريه ان يلبس النصارى العمائم الزرق واليهود العمائم الصفر والسامرة العمائم الحمر وهددوا على المخالفة فالتزم النصارى واليهود بسائر مملكة مصر والشام ما أمروا به وصبغوا عمائمهم الا اهل الكرك فان الامير اقش الاشرفي اعتذر بان اكثر اهل الكرك نصارى فلم يغير اهل الكرك والشوبك من النصارى العمائم البيض .

« وبقيت الكنائس بارض مصر مدة سنة مُغلقة حتى قدمت رسل الاشكري (Escaris) ملك الافرنج يشفع في فتحها ففتحت كنيسة المعلقة بمدينة مصر وكنيسة ميكائيل الملكيين ثم قدمت رسل ملوك أخر ففتحت كنيسة حارة زويلة وكنيسة نقولا . . . واتفق ان بعض النصارى فتح كنيسة فأجتمع العامة ووقفوا الى الامير سلار النائب وشكزا النصارى انهم فتحوا كنيسة بغير اذن وان فيهم من امتنع من لبس العمامة الزرقاء واحتمى بالامراء فنودي بالقاهرة ومصر بان من امتنع من لبس العمامة الزرقاء حل ماله وحلّ دمه وحريمه وان لا يُستخدم نصراني عند امير ولا في شيء من الاشغال السلطانية . . . فامتدت ايدي العامة الى اليهود والنصارى فكادوا يقتلونهم من كثرة الصفع في رقاعهم بالاكف والنعال فامتنع الكثير منهم من المشي في الاسواق خوفاً على نفسه »٢ .

وحاول النصارى بعد ذلك ان يرجعوا الى عمائمهم البيض وضعفوا على ذلك مالاً جزيلاً كل سنة فلم يسمع لهم قول ولم ينجح سعي واشار الى ذلك ابن كثير فقال :

---

١) نهاية الارب ١٥٧٨ باريس ، ٢١١ – ٢١٢

٢) السلوك ١٧٢٦ باريس ، ٢٨٢ – ٢٨٣

« سنة ٧٠٩ (١٣٠٩م) تكلم الوزير ابن الجيلي في اعادة اهل الذمة الى لبس العمائم البيض بالعلائم واخذ قد التزموا الديوان بسبع مائة الف في كل سنة زيادة على الجالية فسكت الناس وكان فيهم قضاة مصر والشام وكبار العلماء من اهل مصر والشام . . . »[١]

وبقي اللون الابيض محرماً على النصارى الى ايام الاتراك العثمانيين كما نبه على ذلك القرماني فقال :

« في شعبان سنة سبعمائة أبيحت النصارى واليهود بمصر والشام العمائم الزرق والصفر واستمر الحال الى ان امر السلطان الاعظم المرحوم مراد خان بن سليم في سنة تسعمائة واثنين وثمانين (١٥٧٤م) بعدم لبس العمائم ووعدوا ان يدفعوا في كل عام ليت المال مالاً جزيلاً فلم يرضَ ولم يرجع عن قوله »[٢].

وكان سُفّار الفرنج اذا قدموا لزيارة الاماكن المقدسة يضطرون الى دخولها بالعمائم الملونة وقد اشار الى ذلك احدهم فقال بتاريخ ١٦١٦ — ١٦١٧ ما تعريبه من جملة وصاياه :

« متى وصلت الى اول ميناء او مدينة من مدن الاتراك يجب اتباع عادة ملونة خلا الابيض والاخضر من الالوان فانهما غير مسموح بهما للنصارى »[٣].

وللشعراء اوصاف وتوريات كثيرة في العمائم الزرق والصفر والحمر نذكر منها ما يأتي :

للصلاح الصفدي في غلام نصراني :

البسوه عمامة للنصارى قد حكى اللازورد في اللون عنها
وجلوا طلعة كبدر تمام ليس تحت الزرقاء احسن منها[٤]

وله في مليح قبطي :

رب قبطي تبدّى من بدور التم اشرق
فرقه كالصبح اضحى : وهو بالعمة ازرق[٥]

ولابن المستوفي في مليح لابس عمامة زرقاء :

بامن يدلّ بحسنه وجماله ويذيب قلب محبه بجفائه

---

١) البداية والنهاية ١٤ : ٥٤

٢) اخبار الدول وآثار الاول ١٨٣

٣) B. Parisien : *Voyage de Hierusalem*. p. 75.

٤) مراتع الغزلان للنواجي ٢٨٣ الفاتيكان ، ٢٧

٥) الحسن الصريح في ملاحة مليح (٥١٣٠ ادب) دار الكتب المصرية ، ص ٢١

لم يبقَ شك فيك انسك واحد الفسرين حين لبست ثوب سهاده (١

وللشهاب الحجازي في مليح نصراني:

من النصارى سباني شادن ، وله عمامة كمياء لازورديه
ناديته اليوم قصدي ان ابيضها فقال يا سيدي دعها سوداء (٢

ولسعد الدين بن الشيخ محيي الدين بن عربي:

وغزال من اليهود اتاني ، زائراً من كنيسه او كنائسه
بت احمي الشقيق من وجنتيه ، واشم البهير من انفاسه . . .
من رآني يظنني ، لنحولي واصفراري ، علامة فوق رأسه (٣

وللصلاح الصفدي في يهودي بعمامة صفراء:

حبي يهوديّ مرضت عليه ، وترايدت بي مهجتي الادواء
من لون عمّته ، وكحل جفونه ، لعبت بي الصفراء والسوداء (٤

وله في سامري بعمامة حمراء:

سامريّ سبى جميع البرايا عسال اجملت فيه البهاره
فهو من عمّةٍ واين قوامٍ عصن بان وفوقه جلنار (٥

ولبدر الدين حسن الزغاري مضمناً:

وبي سامريّ مرّ بي بعمامة قد اكتسبت من وجنتيه احمرارها
وردّة دارت بوجه ، كأنما تناولها من خده فـادارها (٦

ومثله قول الشيخ عز الدين الموصلي:

وسامريّ اعـار البدر منه سنًا سـمّره فجماً ، وهذا النجم غرّارُ
تحتّ قامته من تحت عمته ، كأنه عالم في رأسه نـارُ (٧

وكانت التواقيع والوصايا السلطانية التي تعطى من مصر الديّان برئاسة اليهود تتضمن احياناً الامر بالتزام العلامة الصفراء « راية الذلة ». نقل القلقشندي امثلة منها كقوله: « من ركن في امرها الى الاخلاد والاخلال وسكن الى

(١ غرة الصباح في الوجوه الصباح لابن البدري لندرة Add. 23415 f° 42
(٢ جنة الولدان في الحسان من الغلمان ٣٣
(٣ نفح الطيب ١ : ٢ و ٤
(٤ الحسن الصريح ٢٢
(٥ خزانة الادب لابن حجة ٢٩ ؛ والدرر الكامنة للعسقلاني ، طبعة حيدر اباد ٢ : ٢٢
(٦ خزانة الادب لابن حجة ٢٩

الاهمال ولم يرضَ بان راية الذلة الصفراء على رأسه تُشال فألزمه إنكارا وألزمه منها شعارًا[١] ». وقول شهاب الدين العمري : « ليُعلم ان شعارهم الاصفر موجب لئلا يُراق دمهم الاحمر وانهم تحت عَلَم علامته آمنون وفي دعة اصائله ساكنون وليأخذهم بتجديد صبغه في كل حين وليأمرهم بملازمته ملازمةً لا تزال علائمه على رأسه تبين[٢] ». ونظير ذلك في وصية السامريين : « ليُحسِن بحسن السلوك دماتهم التي كانما صبغت عمائمهم الحمر منها بما طُلَّ وأوقد لهم منها النار الحمراء فلم يتقوها الا بالذل[٣] ».

ويؤخذ مما حكاه يحيى بن سعيد الانطاكي ، والنويري ، وابن خلكان ، ان الحاكم بامر الله استثنى الحيابرة من لبس العمائم السود ولم يذكر احد منهم سبب ذلك ، ولا ما كان لون عمائمهم في ديار الاسلام . وكان الحيابرة ذوي بأس وشدة في بغداد ، فهل كانوا كذلك في القاهرة ومصر ؟

وظل التضييق على النصارى باتخاذ العمائم الزرق الى القرن التاسع عشر ايضاً روى كامل الغزي بتاريخ سنة ١٢٢٩/١٨١٣ : « في ثلاثين من ربيع الاول امرت الحكومة النصارى ان يعتموا بعمائم سماوية اللون وان يلبسوا بارجلهم النعال الحمر[٤] ».

V ـ الكلفتات والقلانس المُشهرة

قال رضي الدين الحلبي : « الكَلَوتة ، بفتح الكاف واللام وسكون الواو وبعدها تاءآن ، عمامة ملساء ذات قرنين منعطفين الى اسفل يمنة ويسرة واسمها الصحيح الكلافتة بالفاء وجدته بخط بعض الضابطين من المؤرخين[٤] » قلنا هي المعروفة عند الفرنج باسم Calotte خلا انها عندهم بغير قرنين وقد شُوِّهت هذه الكلفتات في المغرب واتخذت لتمييز اليهود من المسلمين قال عبد الواحد المراكشي :

---

١) صبح الاعشى ١١ : ٣٨٨

٢) التعريف بالمصطلح الشريف ١٤٣ - ١٤٤

٣) نهر الذهب في تاريخ حلب ٢ : ٣٣١

٤) در الحبب في تاريخ اعيان حلب ، ٢١٤٠ باريس ، ٥٣ه

« وفي آخر ايام ابي يوسف يعقوب بن عبد المؤمن امير الموحدين ٥٨٠-٥٩١للهجرة) امر ان يتميز اليهود الذين بالمغرب بلباس يختصون به دون غيره وذلك ثياب كحلية واكمام مفرطة السعة تصل الى قريب من اقدامهم وبدلا من العمائم كلونات على اشنع صورة كأنها البراديع تبلغ الى تحت آذانهم فشاع هذا الزي في جميع يهود المغرب ولم يزالوا كذلك بقية ايامه وصدرًا من ايام ابنه ابي عبدالله الى ان غيره ابو عبدالله المذكور بعد ان توسلوا اليه بكل وسيلة واستشفعوا بكل من يظنون ان شفاعته تنفعهم فامرهم ابو عبدالله بلبس ثياب صفر وعمائم صفر فهم على هذا الزي الى وقتنا هذا وهو سنة ٦٣١(١٢٣٦م)وانما حمل ابا يوسف على ما صنعه من إفرادهم بهذا الزي وتمييزه اياهم به شكنه في اسلامهم وكان يقول : لو صح عندي اسلامهم اتركتهم يختلطون بالمسلمين في انكحتهم وسائر امورهم . ولو صح عندي كفرهم لقتلت رجالهم وسبيت ذراريهم وحملت اموالهم فيئًا للمسلمين ولكني متردد في امرهم .

ولم تنعقد عندنا ذمة ليهودي ولا نصراني منذ قام امر المصامدة . ولا في جميع بلاد المسلمين بالمغرب بيعة ولا كنيسة انما اليهود عندنا يظهرون الاسلام ويصلون في المساجد ويقرئون اولادهم القرآن حاذرين على دمائهم وسنتنا والله اعلم ما تكنه صدورهم وتخوي بيوتهم[١] ».

وكان لليهود بالاندلس ايضاً « سمة تشهرهم وشارة تميزهم ليوفوا حقهم من المعاملة[٢] ».

وقد اشتهرت الفلانس في ايام العباسيين بالافراط في الطول والاتساع ، حتى شبهها ابو دلامة في شعر له « بدنان يهودٍ جُلّلت بالبرانس » وكانت تدعم من داخلها بالقصب والعيدان . وغلب عليها هذا الشبه حتى سميت دنّية . واختار القضاة لبسها خصوصاً لزيادتها في المهابة والتهويل . ومن النكات التي ذكرها علي بن سعيد في كتابه جني النحل ان قاضي مصر ابا الطاهر الذهلي « كان في خلافة المطيع يلبس السواد ويضع على رأسه دنّية طويلة تزيد على الدماغ فتحاكم اليه زوجان فبدر من المرأة في حق زوجها كلام فقال لها : اسكتي هذا القاضي هو ابو الطاهر متى زدت من هذا المنى نزع الخف الذي على رأسه وقطّعه على دماغك فقال له ابو الطاهر : ثم يا كذا وكذا الى امة الله من اين لك ان هذا خف ؟[٣] ».

---

(١) المعجب في تلخيص اخبار المغرب ٢٢٣

(٢) النسمة البدرية في الدولة التركية لسان الدين الخطيب ١١

(٣) رفع الأسر ٩٨ ، والتلخيص ٧٧ ، في ذيل كتاب الولاة للكندي ٥٨٧

« وكان زي اهل مصر وجمال شيوخهم واهل الفقه والعدالة منهم لبس القلانس الطوال كانوا يبالغون فيها فامرهم ابن ابي الليث (امير مصر) بتركها وتنعم لباسها وان يتشبهوا بلباس القاضي وزيه . فلم ينتهوا فجلس ابن ابي الليث في مجلس حكمه في المسجد . واجتمع اولئك الشيوخ عليهم القلانس . فاقبل عبد الغني وعطر (غلام ابن ابي الليث) فضربا رؤوس الشيوخ حتى القوا قلانسهم قال عتبة بن سطام: رأيت قلانس الشيوخ وقتئذ في ايدي الصبيان والرعاع يلعبون بها وكانوا بعد ذلك لا يدخلون الى ابن ابي الليث ولا يحضرون مجلسه في قلنسوة »[١].

وفي شروط الذميين نهي عن التشبه بالمسلمين في لبس قلنسوة ، ومن لبسها منهم وجب عليه « تصيير زرين على قلانس من لبس منهم قلنسوة مخالفة لون القلنسوة التي يلبسها المسلمون[٢] » . وفي كتاب ابي يوسف يعقوب « لتكن قلانسهم طوالا مضربة[٣] » قال الفراء : يعقد في رأسها علم ليُفرق بينها (اي بين الذمي والمسلم) مخالفاً قلانس القضاة لان عادة قلانس القضاة ان يكون في آذانها شفاشك وقلانس هؤلاء على ما قلنا وقد قيل تكون قلانسهم مضربة لان هذا النوع من القلانس قد كان يختص اهل الذمة بلبسه ويتميزون بها من غيرهم[٤] ».

ولا ريب انه كان هنالك فوارق لم تتصل بنا أدخلت على مرّ الزمان بحيث اصبحت قلنسوة النصراني مثالاً للذلّ والصغار ، وبقيت كذلك في ايام الاتراك العثمانيين . وفي سنة ٩٨٨ (١٥٨٠م) خرج امر السلطان مراد بقتل محمود البواب المعروف بتكوري بلزاي اي الذي لا يعرف الرب « فجمع الوزير حسن باشا ابن محمد باشا نائب الشام اعيان دمشق باسرهم ولما أحضر البواب المذكور امر الوزير بنزع كسوة السلطان منه و لُبس قلنسوة نصراني . قال المحبي بعد ان حكى ما تقدم : كان محمود البواب المذكور . . . بعد ان هرب الشيخ شمس الدين الخطابي الى طرابلس الشام . . . سار البواب وقبض عليه واتى به الى دمشق وعلى رأسه قلنسوة نصراني وفي رجليه القيود وفي عنقه الغل[٥] ».

---

١) كتاب الولاة والقضاة للكندي ٤٦٠

٢) تاريخ الطبري ٣ : ١٢٩

٣) كتاب الخراج ١٥٢

٤) بيان ما يلزم اهل الذمة فعله ١٠

٥) خلاصة الاثر ٢ : ٤١

الغيار

١ الغيار في اللغة والشرع

الغيار مصدر غاير اي خالف . ويطلق في العرف على العلامات والقيود التي وُضعت على اهل الذمة لتشهيرهم وتمييزهم . فيتناول كل ما خالف زيّ المسلمين من ازياء النصارى واليهود ، كالزنّار ، والعمامة ، ورُقَع الدرنريع ، والخيوط الملونة الموضوعة على الكتف ، وكل ما خيط على الثياب الظاهرة مما يخالف لونه لونها ، وما كان يُعلّق في الرقاب عند دخول الحمامات من الدراهم المكتوب عليها « ذمي » ، والخواتم ، والاطراق من حديد او رصاص ، ويجعل احياناً في الاعناق من الجلاجل ، وما كان يمتاز به الرجال من النعال ، والنساء من الاخفاف ، ويوضع على العمائم من الطيالسة السلمية او المقوّرة ، وبالاجمال كل ما خالف العادات والالوان المختصة بالمسلمين وملابسهم .

وقد ورد كثيرًا في الشعر كقول ابي اسحق القيرواني الحنفي في مليح عليه غيار انشده بدمشق سنة ٦٣٠/١٢٣٢ — ١٢٣٣

لما بدا في ثياب خضر ، وابدى عذاره
فقلت غصن وريق بدت به جلناره
قالوا : عليه غيار ، فقلت : مني استعاره (١)

وفي شفاء الغليل : « الغيار هو علامة الكفار كالزنار » . وفي شرح المهذب : « الغيار ان يخيطوا على ثيابهم الظاهرة ما يخالف لونه لونها . وتكون الخياطة على الكتف دون الذيل والاشبه ان لا يختص بالكتف »(٢) . وهذا التحديد هو الاصل في وضع الغيار . ولكنه عم بعد ذلك كل مخالفة في الملبوس والمركوب ولا سيما في الالوان .

---

(١) المنهل الصافي لابن تغري بردي نسخة ، مصورة عن نسخة باريس في الجامعة العبرية ١ : ٣٦

(٢) شفاء الغليل للخفاجي ١٦٦

وربما شمل الغيار ما خالف بعض العادات والهيئات كجزّ النواصي وعدم ارسال الذوائب ، والركوب على الحمير بالأكف ، وركب الخشب عرضاً من غير تزيين لها ولا قيمة عظيمة ، وما اشبه من الحدود والشروط المستنبطة على توالي العصور .

واهم غيار الذميين بالاجمال الزنار والعمامة لظهورهما لاول نظرة . وقد فصلنا في ما سبق الكلام على كل منهما ، فلا يبقى الا التنبيه على ما عداهما من القيود النصرانية واليهودية على قدر ما تهيأ لنا الوقوف عليه من الاخبار القليلة المروية في كتب التاريخ والادب . وقد اضطررنا الى الاغضاء عما جاء منها في كتب مذاهب الفقه لتعذر الاحاطة بها وتشعب الاقوال في معناها

٢ الاوامر السلطانية بإلزام الغيار

اول ما اتُخذ الغيار ، في ما يظهر ، في ايام عمر بن عبد العزيز ، اذا صحّ ما نسب له من الاوامر في اهل الذمّة وقام على اثره هرون الرشيد في سنة ١٩١ (٨٠٦–٨٠٧ م) « وامر بهدم الكنائس في الثغور وكتب الى السندي ابن شاهك باخذ اهل الذمة بمدينة السلام بمخالفة هيئتهم هيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم »[1] . وقد فاتنا معرفة السبب الذي دعاه الى التفريق بين الذميين والمسلمين في اللباس والمركوب ولم يتعرض احد لذكره مع اهميته . وكذلك سكت المؤرخون عن علة هدم كنائس الثغور . فهل كان فيها بعض عيون للروم يطالعونهم باخبار الاسلام ؟ وقد نصّ الطبري على ان الغيار كان مقتصراً على ذمّي بغداد ، ولم يذكر سبب انحصاره فيهم دون سواهم من اضرابهم في سائر المدن . ويبعد جدًّا ان لا تكون بقية المدن اقتدت بقاعدة الخلافة في التضييق على من خالفهم في دين ومذهب ، والظلم ، كما قيل ، من شيم النفوس ، ولا سيما على من كان معدودًا من جملة الاعداء والكفّار . وقد سكت كتاب المجدل لساري بن سليمان ، من كتّاب النساطرة ، عن كل اشارة الى امر الرشيد تقيّةً لا شكّ او سهوًا .

---

١) تاريخ الطبري ، طبعة اوربة ، ٣ : ٦٧٢–٦٧٣

ويتحصل من المراسيم العديدة ، التي تتابعت منذ القرن الثاني للهجرة في الزام الغيار ، انه كان يبطل مرة بعد اخرى او يزول باحدى الشفاعات ، ثم يتجدد بتجدد الاحن والدسائس . وقد تنوعت اشكاله ، وتبارت القرائح والفنون في التشنيع فيه والإغراب كاوامر المتوكل على الله في تسيير صور الشياطين على ابواب دور النصارى ، وتعليق الصلبان الخشب زنة اربعة اوطال في اعناق الخارج منهم ، والكُرات كرأس العجل في حلوق اليهود ، وما اشبه من نظائر هذه السخافات والاهانات التي كان يُراد بها تشهير الذميين وانزال صنوف الاحتقار بهم والاساءة اليهم .

وهذه اهم ما عثرنا عليه من الاوامر السلطانية في الغيار نذكرها بترتيب تواريخها :

• سنة ٢٣٥ (٨٤٩ م) امر المتوكل اهل الذمة ان يتميزوا عن المسلمين في لباسهم وعمائمهم وتياجم وان يتطيلسوا بالمصبوغ بالعفص وان يكون على عمائمهم (والصواب دراريعهم) رقاع مخالفة للون ثيابهم من خلفهم . ومن بين ايديهم وان يلزموا بالزنانير الغليظة لتياجم كزنانير الفلاحين اليوم وان يحملوا في رقابهم كرات خشب كبيرة وان لا يركبوا خيلًا ولتكن ركوبهم من خشب الى غير ذلك من الامور المذلة لهم المهينة لنفوسهم وان لا يستعملوا في شيء من الدواوين التي يكون لهم فيها حكم على مسلم وامر بتخريب كنائسهم المحدثة وتضييق منازلهم المتسعة فيؤخذ منها العشر وان يُجعل ما كان يتسع من منازلهم مسجدًا وامر بتسوية قبورهم بالارض وكتب بذلك الى سائر الاقاليم والآفاق والى كل بلد وستاق [١] .

ولم نجد احدًا جمع في اخبار هذه السنة ما جمعه ابن كثير من مظالم الذميين . ومنها ما حدث بعد المتوكل استمده ابن كثير من ذاكرته وحفوظه لشدة بغضه للنصارى :

• سنة ٢٣٩ (٨٥٣ م) زاد المتوكل في التغليظ على اهل الذمة في اللباس وأكد الامر بتخريب الكنائس المحدثة في الاسلام [٢]

• وفي سنة ٣٩٥ (١٠٠٤ م) قرئ سجل في الجوامع بمصر والقاهرة والجزيرة بان تلبس النصارى واليهود الغيار والزنار وغيارهم السواد غيار العاصين العباسيين [٣]

---

١) البداية والنهاية ١٠ : ٢١٣ - ٢١٤

٢) البداية والنهاية ١٠ : ٢١٧

٣) الخطط ٢ : ٢٤١

« وفي سنة ٤٠٣ (١٠١٢ م) وقعت فتنة عظيمة في بغداد . . . وطلبت العامة جماعة من النصارى . . . وألزم اهل الذمة بالغيار »(١

« وفي سنة ٤١١ (١٠٢٠ م) أُلزم النصارى الغيار . . . واشتد الغيار واستدعي الجاثليق وقُدّم اليه بالزام اهل الذمة لبس الغيار »(٢

« وفي سنة ٤٢٩ في سلخ رجب (١٠٣٨) جمع الاشراف والقضاة والفقهاء والوجوه الى بيت النوبي واستدعي جاثليق النصارى ورأس جالوت اليهود وخرج توقيع الخليفة في امر الغيار والزام اهل الذمة اياه وكان في التوقيع : « كان الخلفاء الراشدون فرضوا على على اهل الذمة الماهدين حدوداً معقودة على الاستتمار والإخبات والاستكانة والتفرد عن المسلمين اعظاماً للاسلام واهله وما تعرّق على هذه السنّة إغفال واستمر فيها الاعمال اطرحت هذه الطائفة دواعي الاحتراس وتشبهت بالمسلمين في زيهم فرأى امير المؤمنين الابعاد اى جميع اهل الذمة بتغيير اللباس الظاهر ما يعرفون به عند المشاهدة فليلتزم ذلك من وأي امير المؤمنين » فقالوا السمع والطاعة »(٣

« سنة ٤٤٨ (١٠٥٦ م) احتسب ابو منصور ابن ناصر السياري على اهل الذمة والزمهم الغيارات والعمائم المصبوغات وذلك عن امر السلطان فعرفت ذلك عنهم خاتون (زوجة طغر لبك) ومنعت المحتسب »(٤

« سنة ٤٥٠ (١٠٥٨ م) في شهر رمضان تجدد للعوام المتدينين المنسبين باصحاب عبد الصمد الزام اهل الذمة لبس الغيار وحضر الديوان رجل هاشمي منهم يعرف بابن سكرة فخاطب رئيس الرؤساء ابن المسلمة في ذلك وذكر ما عليه اهل الذمة من الانبساط وكلمه بكلام فيه غلظة فاغلظه فكتب الى الخليفة بذلك فخرج ما قوّى امر ابن سكرة وكان ابو علي بن فضلان اليهودي كاتب خاتون فامره ابن المسلمة بالتأخر في داره وان يتقدم الى اليهود واهل المعايش بمثل ذلك وامر ابن الموصلايا النصراني كاتب الديوان بمثل ذلك فانقطعوا عن المعاملات وتأخر الكتاب والجهابذة عن الديوان فبان للخليفة باطن الامر فتشدد فيه ولم يجد ابن المسلمة مساغاً لما يريد فصار اهل الذمة يتسللون ويخرجون الى اشغالهم »(٥

« وفي سنة ٤٧٨ (١٠٨٥ م) خرج توقيع من المقتدي بالله بنقض ما علا من دور بني الحرر اليهود وسد ابواب لهم كانت تقابل الجامع وأخذ عليهم غض الصوت بقراءة التوراة في منازلهم واظهار الغيار على رؤوسهم »(٦

---

١) تاريخ الاسلام للذهبي بريتش موزيوم Or. 49 f° 19b

٢) اخبار فطاركة كرسي الشرق ١١٥

٣) المنتظم لابن الجوزي ، طبعة حيدراباد ، ٨ : ٩٦–٩٧ والبداية والنهاية لابن كثير ١٢ : ٤٣

٤) المنتظم ٨ : ١٧١ ؛ والبداية والنهاية ١٢ : ٦٦

٥) المنتظم ٨ : ١٩٠

٦) المنتظم ٩ : ١٧

« سنة ٤٧٨ (١٠٨٥ م) خرج توقيع الخليفة المقتدي بامر الله . . . بالزام اهل الذمة بالغيار »(١

« سنة ٤٨٠ (١٠٨٨ م) في ذي الحجة خرج المرسوم انه قد أُفضي حال يهود بطريق خراسان وبلاد ابن مزيد لا يلبسون غيارًا ولهم شعور كالاتراك ويكنون بكُنى المسلمين فتُقدَّم بخروج من عُيّن من العدول والفقهاء فمضوا نواحي بغداد وقصدوا حلّة ابن مزيد فجذبوها »(٢

« سنة ٤٨٦ (١٠٩٣ م) في رابع عشر صفر خرج توقيع الخليفة بالزام اهل الذمة بلبس الغيار والزنار والدرهم الرصاص المعلق في اعناقهم مكتوب عليه « ذمّي » وان تلبس النساء مثل هذا الدرهم في حلوقهن عند دخول الحمام ليعرفن وان يلبسن الخفاف ردًا اسود وردًا احمر وحاجبًا في ارجلهن وشدد الوزير ابو شجاع في هذا فاجابه المقتدي الى ما اشار به واسلم حينئذ ابو سعيد بن الموصلايا كاتب الانشاء وان اختتن ابو نصر هبة الله بحضرة الخليفة »(٣

« في سنة ٤٨٧ (١٠٩٤ م) وزر لامير الموصل رجل من اولاد الخراسانية فمنّ له ان يلزم النصارى بلبس الغيار بالموصل مثل بغداد فكثر الدعاء عليه . . . وقبض عليه بعد اسبوع وتولى حسابه النصارى وزال الغيار من مدينة السلام وعاد الناس الى ما جرت به عادتهم في يوم الجمعة ١٢ رجب سنة ٤٩٨ (١١٠٥ م) وكان بقاؤه ١٦ سنة وبعة اشهر وكان زواله بشفاعة ابي الفرج سعيد بن ابرهيم الواسطي القس الراهب وعلى يده رحمه الله تعالى لورده من الخدمة الشريفة الامامية المستظهرية وخدمته للجوانب المحترمة »(٤

سنة ٤٩٨ (١١٠٥ م) في ثاني عشر رجب أُزيل الغيار عن اهل الذمة الذي كانوا أُلزموه في سنة اربع وثمانين ولا يعرف سبب زواله »(٥

« سنة ٥١٥ (١١٢١ م) طولب اهل الذمة بلبس الغيار فانتهى الامر الى ان بذلوا الى الخليفة اربعة آلاف والى السلطان (محمود) عشرين الف دينار وأُحضر الجالوت فضمنها وجمعها »(٦

« سنة ٥٢٥ (١١٣١ م) في رجب أُعيد الغيار على اهل الذمة »(٧

---

١) غاية الارب للنويري ، خزانة ليدن ، دون ارقام [ms] Arab. 19 ؛ والبداية والنهاية لابن كثير ١٢ : ١٢٧ و ١٢٧

٢) المنتظم ٩ : ٢٨

٣) المنتظم ٩ : ٥٥

٤) اخبار فطاركة المشرق ١٤٤

٥) المنتظم ٩ : ١٤٣ ، والبداية والنهاية ١٢ : ١٦٤

٦) المنتظم ٩ : ٢٢٨

٧) المنتظم ١٠ : ٢٠

« وفي سنة ٥٩٢ (١١٩٦ م) منع العزيز بن صلاح الدين من استخدام اهل الذمة في شيء من الخدم السلطانية والزموا لبس العيار »[1]

وكان سبب ذلك ان الملك العزيز لما جلس بدار العدل دخل عليه رجل له هيئة حسنة فلما شك العزيز انه من الاشراف فلما علم انه ذمي امر بذلك[2] وبقي سيف العيار مصلتا فوق رؤوس الذميين حتى ما بعد استيلاء العثمانيين على مصر والشام والعراق وكان بعض الولاة الظلمة اذا ضاقت ذات يدهم او هاجت بهم اطماعهم يستدرّون حلوبة العيار كلما امكنتهم الفرص وقد نقل الجبرتي امثلا منها فقال بتاريخ سنة ١٢٠٠ (٧٨٦ م):

« في شوال يوم الاربعاء نودي على طائفة النصارى بان لا يركبوا الدواب ولا يستخدموا المسلمين ولا يشتروا الجواري والعبيد ومن كان عنده شيء من ذلك باعه واعتقه وان يلبسوا زيهم الذي شد الزنار والربوط »[3]

وفيه يوم الاربعاء نودي على النصارى واليهود ان يغيروا اسماءهم التي على اسماء الانبياء كابرهيم وموسى وعيسى ويوسف واسحاق وان يحضروا جميع ما عندهم من الجواري والعبيد وان لم يفعلوا وقع التفتيش على ذلك في دورهم واماكنهم فصاحوا على ذلك بانل تحصل العفو واذنوا لهم في ان يبيعوا ما عندهم من الجواري والعبيد ويقبضوا اثمانها لانفسهم ولا يستخدموا المسلمين فخرجوا ما عندهم وباعوا بعضه واودعوه عند معارفهم من المسلمين »[4]

٣ الوانه العيار

كان العيار يتناول في الواقع كل ما دعا الى التشهير والتمييز مما خالف المليوس او المألوف ، فتدخل فيه كل الالوان كما تقدم في شرح الوان الزنار. قال القلقشندي في ذكر ما يحتاج الكاتب الى معرفته في عقد الذمة :

« المطلوب منهم ستة اشياء . . . منها التمييز عن المسلمين في اللباس بان يخيطوا في ثيابهم الظاهرة ما يخالف لونها سواء في ذلك الرجال والنساء والاولى باليهود الاصفر وبالنصارى الازرق والاكهب وهو المعبر عنه بالرمادي وبالمجوسي الاسود والاحمر »[5]

---

١) السلوك للمقريزي خزانة اكسفرد بنمبر الرقام Marsh. 287

٢) نهاية الارب خزانة ليدن Warn. 2 (ms) f° 214

٣) عجائب الاثار ٢ : ١٢٤

٤) عجائب الاثار ٣ : ١٢٦

٥) صبح الاعشى ١٣ : ٣٦٤

. وقد فاته ان الاحمر كان ايضاً شعار اليهود السامريين ، كما نقلناه في الكلام على الوان العمائم . وكانت الصفرة اشهر الوان غيار اليهود والنصارى، قبل ان ينفرد اليهود بالصفرة ، والنصارى بالزرقة في القرن السابع للهجرة.

ولسبط ابن التعاويذي في الصفرة :

ونازح الاهل بعيد الدار حبيته صفراء كالدينار
كأنه الذمّيّ في النيار صلت الجبين اسود العذار(١

ولابي الفرج بن هندو الكاتب في وصف تردده على الحانات :

كلّ ما لي فهو رهن ما له من فكاك في مساء وابتكار
فؤادي ابدًا رهن الهوى ، وردائي ابدًا رهن عقار
لو ترى ثوبيّ مصبوغًا بما قلت ذمّيّ نبدى في غيار(٢

وربما عبّر احياناً عن الصفرة باللون العسلي . قال ابن الجوزي في اخبار سنة ٢٩٦ (٩٠٨ — ٩٠٩ م) : « فيها امر المقتدر ان لا يستخدم احد من اليهود ولا من النصارى الا في الطب والجهبذة فقط وان يطالبوا بلبس العسلي »(٣ . . .

وقال ابن الاثير في اخبار سنة ٢٣٥ (٨٤٩ م) : فيها امر المتوكل اهل الذمة بلبس الطيالس العسلية . . . ومن خرج من نسائهم تلبس ازارًا عسليًا»(٤ وزاد على ذلك القلقشندي : « خرج امره بان تلبس النصارى واليهود ثياب العسلي وان لا يمكنوا من لبس البياض لئلا يتشبهوا بالمسلمين . . .»(٥

وورد قايلًا ذكر العسلي في الشعر فقال ابو محمد عبدالله بن محمد الاصفهاني :

ان هذا النيار البس عطفي عسليًا وديني التوحيدا(٦

ويدخل في السواد اللون النيلي ، كما سبق من كلام عبد الواحد المراكشي في لباس اليهود بالمغرب ، في ايام امير الموحدين يعقوب بن يوسف.

١) ديوانه ٢٣٨
٢) ارشاد الاريب ٥ : ١٦٩ — ١٧٠
٣) مرآة الزمان ، طبعة لندرة Or. 4619 f° 41°
٤) الكامل لابن الاثير ٧ : ١٧ ؛ والطبري ٣ : ١٣٩٠
٥) صبح الاعشى ١٣ : ٢٦٦
٦) خاص الخاص للثعالبي طبعة القاهرة ١٨٠٩ ، ص ١٢٦

٤ رقاع الثياب

لم نجد في كل ما راجعناه من اخبار الامويين اقلّ اشارة الى تمييز الذمّيين في ايامهم برقاع في ثيابهم تخالف لونها التدلّ عليهم . ولا شك انها من وضع العباسيين . واول مرّة ورد ذكرها صريحاً كان في حكاية اضطهاد المتوكل على الله النصارى سنة ٢٣٥ (٨٤٩م) ، وهو اول من اسرف في إعناتهم والتضييق عليهم ، وابتدع بعض الاحكام الجائرة لامتهانهم واذلالهم ، عقيب سخطه على طبيبه بختيشوع بن جبرئيل حكيدة دُبّرت عليه لا تخلو من الحسد على نعمته وثروته منذ ايام الرشيد . قال سعيد بن بطريق : « وسخط المتوكل على بختيشوع المتطبب وكتب الى جميع البلدان ان يأخذوا النصارى بلباس الغيار والرقاع في الدراريع رقعة من قدام ورقعة من خلف . . . »[1]

ووصف الطبري هذه الرقاع اتمّ وصف بقوله : « تكون احدى الرقعتين بين يديه عند صدره والاخرى منها خلف ظهره وتكون كل واحدة من الرقعتين قدر اربع اصابع ولونها عسلياً »[2] وكانت هذه الرقاع قاصرة على الرجال لظهور ثيابهم واما النساء فقد أُمرن ان يتخذن الأزر العسلية .

وقد سبق من كلام الخفاجي ان الرقعة تكون على الكتف ، ولا يمتنع ان تكون ايضاً على الذيل . وقد اشتهر بها اليهود في بلدان الفرنج . واكثر ما كانت تكون الرقعة على القلنسوة او على الصدر من لون اصفر مستديرة واذلك كان يقال لها عندهم : Rouelle jaune au chapeau et pourpoint

وكانت هذه الرقاع كسائر علامات الغيار تبدو وتغيب حسب الايام والاحوال . ثم يعود الخلفاء والملوك الى احيائها ، كما نقل عن المقتدر بالله انه في سنة ٢٩٦ (٩٠٩م) امر « ان لا يستعان باحد من اليهود والنصارى والزموا بيوتهم وأخذوا بلبس العسلي والرقاع من خلف ومن قدام »[3] . وفي

١) نظم الجوهر ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ٣ : ٦٣

٢) تاريخ الرسل والملوك ، طبعة اوروبة ، ٣ : ١٢٩٠ – ١٢٩٤

٣) المنتظم لابن الجوزي ، ٥٩٠٩ باريس ، ٨٢

مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي :« وتعليق الرقاع المصبوغة على دراريعهم »[1]. وانفرد ابن كثير بالقول ان الرقاع تكون ايضاً على عمائمهم وعزا هذا الامر الى المتوكل على الله الخليفة العباسي سنة ٢٣٥/٨٤٩[2]. وقد وهم في ذلك والاظهر ان لفظة عمائمهم وردت غلطاً في كتابه المطبوع في مكان «دراريعهم».

٥ ... غيار الحمامات

اوّل من ابتدع المظالم النصرانية وعقد لها شروطاً واحكاماً سلطانية في الخلافة العباسية هو المتوكل على الله. وبعد ان قربهم، وتسادم اشهر الاطباء النساطرة بينهم وهو جبرئيل بن بختيشوع، غضب عليه واقصاه ونكبه، وقلب لهم ظهر المجن، وابتكر اهانات وضروباً من الاذلال والامتهان لهم بلغ بها غاية السخف والنكاية. ولم يكتف بالتضييق عليهم في ملابسهم ومعاشهم بل فتقت له قريحته الغاشمة ان يطاردهم ويقتص آثارهم حتى في الحمامات حيث تتساوى الاجسام في العراء ولا يميز بين الكافر والمؤمن، فسامر ان يعلق النصارى واليهود في اعناقهم جلاجل اي اجراساً، كما تعلق في رقاب التيوس والدواب. ولما اذاع اول احكامه الجائرة سنة ٢٣٥ (٨٤٩ م) قال ابن مسكويه « امر بأخذ النصارى واهل الذمة بلبس العسلي ... وان دخلوا الحمام كان معهم جلاجل»[3]. واقتدى به في مثل هذه الحماقات والغرائب الحاكم بامر الله الفاطمي فامر سنة ٣٩٨ (١٠٠٧ — ١٠٠٨ م) « ان يتميز النصارى في الحمامات بصليب معلقونة في رقابهم، وان يتميز اليهود بجلجل مكان الصليب فلبثوا بذلك مدة ثم زال»[4]. وفي السنة المذكورة كان الغيار عموماً قد بطل من بغداد بشفاعة ابي الفرج سعيد بن ابرهم الواسطي القس الزاهب طبيب القصر في خلافة المستظهر بالله[5]. فاعاده الحاكم في مصر وادخله في الحمامات.

---

١) خزانة بريتش ـ وزيوم Or. 4619 f° 41b

٢) البداية والنهاية ١٠ : ٢١٣ — ٢١٤

٣) السادس من تجارب الامم، طبعة سنة ١٨٧١، ص ٥٤٥

٤) كتاب الذيل ليحيى بن سعيد الانطاكي ١٩٥

٥) اخبار فطاركة المشرق ١٤٤

والحاكم هو ، فيما يظهر ، اول من افرد حمامات خاصة للنصارى واليهود ، ومنع اختلاطهم بالمسلمين . ولم نجد لاحد قبله امرًا بهذا المعنى وروى ابن خلكان ان امر الحاكم في غيار الحمامات كان سنة ٤٠٢ (١٠١١ م) اي بعد اربع سنوات من التاريخ الذي نقله يحيى بن سعيد ، ورواية ابن سعيد اصح لانه كان اقرب من عصر الحاكم ، ووقف على كتابات وآثار من عهده لم يقف عليها ابن خلكان ، لتأخر زمانه . وهذا نص كلامه : « فيها امر النصارى واليهود الا الخيابرة بلبس العمائم السود . . . وان يكون في اعناق النصارى اذا دخلوا الحمام الصلبان وعلى حمامات اليهود صور القرامي[1] . يريد لا شك لا ما اشبه القرامي في الشكل والرسم بل ما كان حقيقة على هيئتها من اصول الشجر وقد تصفحت لفظة قرمية في تاريخ ابن كثير المطبوع وجاء في مكانها « قربة بالباء » ، اي الوعاء الذي يجعل فيه الماء ، والكتاب مشحون بامثال هذه الغلطة الفاحشة . ولا بأس ان ننقل ههنا رواية ابن كثير على طولها لما تضمنه من الفوائد والزوائد قال:

« سنة ٣٩٨ (١٠٠٧ – ١٠٠٨ م) نودي في النصارى من احبّ الدخول في دين الاسلام دخل ومن لا يدخل فليرجع الى بلاد الروم آمنًا ومن اقام منهم على دينه فليلتزم بما شرط عليهم من الشروط التي زادها الحاكم على العمرية من تعليق الصلبان على صدورهم وان يكون الصليب من خشب وزنه اربعة ارطال وعلى اليهود تعليق رأس العجل زنته ستة ارطال وفي الحمام يكون في عنق الواحد منهم قربة (قرمية) زنة خمسة ارطال بأجراس وان لا يركبوا خيلًا ثم بعد هذا كله امر باعادة بناء الكنائس التي هدمها واذن لمن اسلم منهم في الارتداد الى دينه وقال نتزّه مساجدنا ان يدخلها من لا نية له ولا يعرف باطنه »[2] .

وقد خلط ابن كثير بين عدة اخبار للحاكم وانفرد بوجوب تعليق اجراس لليهود مع القرامي ، ومنعهم ركوب الخيل ، وهو لم يُنقل عن الحاكم . ومن الشقاء ان لا يكون المؤرخون قد اعتادوا امانة النقل ونسبة كل قول لمن سبقهم من الرواة ، ليستطيع الناظر في اخبارهم مقابلة ما تقدم منها بما تأخر واسناد كل رأي الى صاحبه ، والتمييز بين الاصيل منه والدخيل ليتيسر نقدها وتزييف الضعيف منها والتنبيه على الراجح منها والمرجوح .

١) وفيات الاعيان ٢ : ١٦٦

٢) البداية والنهاية ١١ : ٣٣٩

ولا شك ان تعليق الصلبان والقرامي والاجراس في الاعناق كان عاصفة هبّت ثم سكنت ، وما لبثت ان تنوسيت واطرحت ، لصعوبة التشدّد بها وارغام الناس عليها ، ولذلك اتُخذ بدلاً منها تعليق الدراهم في الاعناق مكتوب عليها « ذمّي » ، او خواتم من حديد او رصاص . قال ابن الجوزي بتاريخ سنة ٤٨٤ (١٠٩١ م) :

« فيها خرج توقيع من الخليفة بالزام اهل الذمة بلبس الثيار والزنار والدرهم الرصاص المعلق في اعناقهم مكتوب فيه « ذمي » وان تلبس النساء مثل ذلك الدرهم في حلوقهن عند دخول الحمامات ليُعرفن » (١

ولم يذكر احد هل كان يُختم احياناً او يُكوى في الاعناق لفظ « ذمي » كما كان يختم قبلاً في مصر على ايدي الرهبان لجبايتهم واما الختم بالرصاص فقد زعموا انه من وصاة عمر بن الخطاب ، رواه ابن الحكم باسناده الى عبدالله بن عمر قال : «كتب عمر بن الخطاب ان يُختم في رقاب اهل الذمة بالرصاص»(٢) . وكان ثاني الخلفاء الراشدين ارشد واعقل من ان يُسيء الى مثل هذه الدنايا التي تجلّ عنها سياسته البصيرة ، ويضيق بمثلها وقته الذي انفقه في ادارة الفتوحات ومتابعة النجدات والامداد وتصيير الامصار . وقد نسبوا له من الكتابات والاوامر والنواهي ما لا تتسع له خلافته القصيرة الامد ، واكثرها منحولة له ، موضوعة من بعده في القرنين الثاني والثالث ، فلا يجب ان يكترث لها ولا يوثق بها . ورووا في معنى هذا الختم في الرقاب بيتاً لبشار بن برد في آخر ابيات له في عبدة قال فيه :

ختم الحبّ لها في عنقي موضعَ الخاتم من اهل الذمم

قال ابو الفرج الاصبهاني : « وكان بشار ينكر هذا البيت »(٢)

وقد تعدّدت الاوامر السلطانية في غيار الحمامات نروي منها ما يأتي مرتبة حسب تواريخها التالية لما قدمناه منها :

« سنة ٧٢١ (١٣٢١ م) نودي على النصارى ان يخرجوا بالثياب الزرق والعمائم الزرق وان يحمل الجرس في اعناقهم في الحمام (٣ .

١) عجائب البدائع ، ١٥٦٧ باريس ، ٣٦

٢) الاغاني ٦ : ٥٣

٣) تتمة المختصر لابن الوردي ٢٧١

« سنة ٧٥٤ (١٣٥٣ م) في يوم الجمعة ثامن عشر رجب الفرد قرئ بجامع دمشق . . . كتاب السلطان بالزام اهل الذمة بالشروط العمرية وزيادات أخر منها . . . ان لا يدخلوا الحمامات الا بالعلامات من جرس او خاتم رصاص اصفر او رصاص ولا تدخل نساؤهم مع المسلمات الحمامات وليكن لهن حمامات تختص بهن » (١)

« سنة ٧٦٥ (١٣٦٣ م) يوم الخميس حادي عشر صفر نودي في البلد (دمشق) على اهل الذمة بالزامهم بالصغار وتصغير العمائم وان لا يستخدموا في شيء من الاعمال . . . وان يكون في رقابهم ورقاب نسائهم في الحمامات اجراس . . . (٢)

« سنة ٧٦٧ (١٣٦٥ — ١٣٦٦ م) نودي في البلد (دمشق) بان نساء اهل الذمة لا تدخل الحمامات مع المسلمات بل تدخل حمامات تختص بهن ومن دخل من اهل الذمة الرجال مع رجال المسلمين يكون في رقاب الكفار علامات يعرفون بها من اجراس وحوائج ونحو ذلك » (٣)

« في سنة ٨٠١ (١٣٩٨ — ١٣٩٩ م) نودي في القاهرة . . . ان النصارى واليهود لا يدخلون الحمامات الا وفي اعناقهم اجراس » (٤)

« وفي سنة ٨٢٢ (١٤١٩ م) نودي ان من دخل منهم الحمام فليكن في عنقه جرس . . . وكسرت عليهم الحمامات وضرب منهم جماعة لاجل ذلك » (٥)

« وفي سنة ٨٣٠ (١٤٢٦—١٤٢٧ م) نودي على اهل الذمة ان يصغروا عمائمهم وان لا يدخلوا الحمامات مع المسلمين ومن دخل منهم فليكن في عنقه جلجل او طوق حديد » (٦)

وكان النساء سواء في ذلك والرجال . نصّ الفراء على « ان الذمية اذا دخلت الحمام يكون في رقبتها خاتم رصاص او حديد او جلجل ليقع الفرق بينها وبين المسلمات »[٧] . وزاد السيوطي الخلخال ولم يخص به النساء فقال : « اما اهل الذمة اذا دخلوا الحمام مع المسلمين فيدخلون منفردين الا انهم اذا دخلوا حماماً فيه مسلمون أمر كل واحد منهم ان يجعل في عنقه خاتماً من حديد او رصاص ونحوه او في رجله خلخالاً وذلك ليتميز بذلك من المسلمين فلا يُوقّر ولا يُحترَم »[٨] .

١) البداية والنهاية ١٤ : ٢٥٠
٢) البداية والنهاية ١٤ : ٣٠٥ - ٣٠٦
٣) البداية والنهاية ١٤ : ٣١٧
٤) السلوك للمقريزي ، ١٧٢٨ باريس ، ٣٥
٥) السلوك ، ١٧٢٧ باريس ، ٣٢٨ — ٣٢٩
٦) انباء الغمر للعسقلاني ، ١٦٠٢ باريس ، ٥٤
٧) بيان ما يلزم اهل الذمة فصل ١٥
٨) تحفة المتأمل ومرشد المتأهل ، لندرة Or. 4640 f° 137

ولم نرَ ذكر الخلخال لاحد غيره ، وهو للرجال من الغرابة بمكان ، ما لم يقصد به النساء . ولا يبعد ان يكون تصحيف الجاجل كما جاء في عجائب البدائع لابن الجوزي ، كما سيمرّ بنا قريباً .

٦ ـ نعال الرجال واخفاف النساء وأزرهن

في جملة ما زعموه من الشروط العمرية ان لا يتشبه الذميون بالمسلمين « في شيء من لباسهم في قلنسوة . . ولا نعل ذات عذبة . . . ». وعلّق الفراء على ذلك التفسير الآتي : « اما النعلان فقد قيل انه تجعل شُرُك نعالهم مثنية وان يحذوها حذو المسلمين لان هذا كان عادة لهم في لباسها وأمروا بالبقاء عليه ليقع الفرق والتمييز بينهم وبين المسلم وانما اعتبر ذلك في النعال لان المتأمل منا ينظر الى قدم الماشي والذاهب في الطرقات فاذا وجد هيئته على هيئته (اي هيئة الذمي) حكم له بحكمهم »[1] .

واختلفوا في تعيين الوان الاخفاق للنساء. ففي سنة ٤٨٤ (١٠٩١م) خرج توقيع من الخليفة بالزام « اهل الذمة لبس الغيار . . . وان يلبس النساء الخفاف فردًا اسود وفردًا احمر وجلجلًا في ارجلهن »[2]

« سنة ٧٥٥ (١٣٥٤ م) جيء بالبطرك ورئيس اليهود فوقفا على ارجلها وقرئ عليهما نسخة العهد وفيها ان تلبس المرأة السائرة خفين احدهما اسود والآخر ابيض »[3]

« وفي سنة ٧٦٥ (١٣٦٣ م) يوم الخميس خامس عشر صفر نودي في البلد (دمشق) على اهل الذمة . . . ان يكون في رقابهم ورقاب نسائهم في الحمامات اجراس وان يكون احد النعلين اسود مخالفًا للون الاخرى ففرح لذلك المسلمون ودعوا للآمر بذلك »[4]

« وفي سنة ٧٦٧ (١٣٦٥ – ١٣٦٦ م) أُمر نساء اهل الذمة بان تلبس المرأة خفّيها مخالفين في اللون بان يكون احدهما ابيض والآخر اصفر او نحو ذلك »[5]

واما أُزر النساء فكانت تابعة لعمائم الرجل في اللون ، اي الزرقة للنصرانيات ، والصفرة لليهوديات .

١) بيان ما يلزم اهل الذمة فصل ١٠

٢) عجائب البدائع ، ١٥٦٢ باريس ، ٢٦

٣) السلوك ، ١٧٢٧ باريس ، ١٦ ، وصبح الاعشى ١٣ : ٢٧٩

٤) البداية والنهاية ١٤ : ٢٠٥ – ٢٠٦

٥) البداية والنهاية ١٤ : ٢١٧

« وفي سنة ٧٥٤ (١٣٥٣ م) قُرئ بجامع دمشق . . . كتاب السلطان . . . ان يكون ازار النصرانية من كتان ازرق واليهودية من كتان اصفر وان يكون احد خفّيها اسود والآخر ابيض وان يحكم حكم مواريثهم على الاحكام الشرعية »(١

٧ ـ الطيالس المقوّرة والمصبوغة

قال جلال الدين السيوطي في كتابه « الاحاديث الحسان في فضل الطيلسان » :

« نصّ العلماء على انه ينبغي ان يكون للعالم لباس خاص ليُعرفوا فيُسألوا ويرقّروا.. ومن هنا منع اهل الذمة من مساواة المسلمين في اللباس وألزموا بلباس يتميزون به بشرط عمر بن الخطاب رضي الله عنه بذلك .

حكى الماوردي في الحاوي والمرزباني في البحر وجهاً ان اهل الذمة يمنعون من لبس الطيلسان لانه اجل ملابس المسلمين وحكاه بعدهما كثير من الاصحاب منهم الرافعي والنووي وابن الرفعة وآخر من حكاه وعلّله بهذه العلة الكمال الدميري في شرح المنهاج ونقله صاحب البيان عن مذهب ابي حنيفة واحمد وكذا نقله الرافعي عنهما واستدركه الزركشي في القواعد بان القاضي ابا يعلى من الحنابلة قال : لا يُمنعون من الطيلسان المقوّر لانه لباس اليهود قديماً والعجم وما كانت العرب تعرفه ورأيت في الهداية وغيرها من كتب الحنفية ما نصّه : ويُمنعون من لباس يختصّ باهل العلم والزهد والشرف وفي الينابيع من كتبهم ما نصّه : وليس لهم ان يلبسوا طيالس المسلمين ولا اردية مثل اردیتهم ولا كل لباس يختص باهل العلم والزهد والشرف وقال الحافظ ابو القاسم بن عساكر في تاريخه : كتب عمر بن عبد العزيز الى امصار الشام : لا يتشبّهنّ نصراني مفروق الناصية ولا يلبس قباء ولا يتشبّهنّ الا بزنار من جلد ولا يلبسنّ طيلساناً

قال القاضي ابو يعلى الفراء من الحنابلة : لا يُمنع اهل الذمة من الطّيلسان وهو المقوّر الطرفين المكفوف الجانبين المكفوف بعضها الى بعض وما كانت العرب تعرفه وهو لباس اليهود قديماً والعجم ايضاً والعرب تسميه ساجا ويقال ان اول من لبسه من العرب جبير ابن مطعم وكان ابن سيرين يكرهه »(٢

ولما اخذ الرشيد سنة ١٩١ (٨٠٦ – ٨٠٧ م) اهل الذمة بمخالفة زي المسلمين في ملبوسهم(٣) كان في جملة ما تميزوا به صبغ الطيالسة بالصفرة « فدخل

---

١) البداية والنهاية ١٤ : ٢٥٠

٢) الاحاديث الحسان في فضل الطيلسان ، مخطوط عندنا ، ومنه نسختان في خزانة الاسكوريال في اسبانية.

٣) العبر لابن خلدون ٣ : ٢٢٦

اليه جبرئيل بن بختيشوع الطبيب بطيلسان مصبوغ فانكر ذلك عليه فقال : انا احد الذمة ولا يجوز ان اخالف زيهم فاستحسن ذلك من قوله ورفع ذلك عن النصارى »[1] . ولكن المتوكل على الله ما لبث ان احيى هذه المظلمة « وامر اهل الذمة بلبس الطيالس العسلية »[2] . وفي سنة ٤٠٣ (١٠١٢ م) تقدم الحاكم ان تلبس النصارى واليهود دون الخيابرة طيالسة سودا وعمائم سودا »[3] .

وسقط بعد ذلك ذكر الطيلسان في احكام اهل الذمة ، ولا ريب انه كان كل مرة داخلا في جملة الشعار .

٨ ـ حز النواصي والامتناع من ارسال الذوائب

قال القلقشندي في ذكر ما يحتاج الكاتب الى معرفته في عقد الذمة :

« ان كان على رأس أحدهم شعر أمر بجز ناصيته ويُمنعون من ارسال الضفائر كما تفعل الاشراف »[4]

وقد مرّ بنا ان عمر بن عبد العزيز كتب الى امصار الشام : لا يشبهنّ نصراني مفروق الناصية وفسر الفراء هذا الفرق بقوله :

معناه اذا كان على رأسه جمة شعر يقبرّه على ما هو عليه ولا يفرق الشعر فرقتين كما يفرق النساء شعورهن لان الفرق من سنّة المسلم واما جزّ مقادم الرؤوس فهو ان يتحذّقوا على عادتهم وهو الشعر الذي بين العذار والشرعتين ولا يتحذقوا شوابير فانها عادة الاشراف . وقد امتنع بعض اصحاب ابي حنيفة من هذا وقال : « هذا الموضع يتغطى بالقلانس والعمائم فلا معنى له » . وهذا خلاف ما روي عن عمر ولان العادة ان مقدم الرأس يظهر ولا يتغطى بالعمامة »[5]

وزاد ابن تيمية فقال :

« لا يتشبهون بالمسلمين لا في شعورهم ولا في لباسهم فلا يفرقون شعورهم كما تفعل الفقهاء ولا يرخون لهم الذوائب كما تفعل العلماء ولا يتشبهون باجناد المسلمين كما كان يفعله اهل البرّ من الجبلية »[6]

١) اخبار قطار كة كرسي المشرق ٧٣

٢) الكامل ٧ : ١٧

٣) كتاب الذيل ليحيى بن سعيد ٣٠٢

٤) صبح الاعشى ١٣ : ٣٦٤

٥) بيان ما يلزم اهل الذمة فعله ١١

٦) نسخة الدرج الذي قرئ بدار الامارة بدمشق على الامراء والملوك والقضاة ٧ شعبان سنة ٧٠٠ في اقامة الشروط العمرية مخطوط عندنا .

ومن هذا التفسير يتضح بعض ما أقحم في الشروط العمرية من الزيادات والتعليقات التي احدثها الفقهاء ، وحكموا فيها ما نشأ في ايامهم من العادات والازياء ، ودسوها في عهد اهل الذمة ليوهموا قدمها ويستعيروا لها سلطة ثاني الخلفاء ، وهو مؤلهم واليه مرجعهم في ردّ الاحاديث وتأليف الحجج .

٩ — الركوب على الحمير عرضاً بالسروج الخشب والاكف دون الخيل والبغال

اكثر ما تدور شروط اهل الذمة على الملبوس والمركوب . وقد ذكرنا اهم ما يتعلق باللباس ، واما المركوب فقد زعموا ان عمر قال :

« يركبون على الأكف عرضاً ولا يركبوا الخيل لاحا من المفاخر واما يركبون البغال والحمُر لانه لا فخر في ركوبها ويكون ركوبها على الاكف عرضاً دون السروج وقوله عرضاً معناه يكون الرجلان الى جانب والظهر الى الجانب الآخر وقيل يركبون سروجاً وعلى قربوس السرج مثل الرمانة لان هذا كان صفة مراكبهم فأمروا بالبقية عليها ليحصل الفرق بذلك »[1]

واختُلف في البغال . ذهب الغزالي وغيره الى المنع منها ، والراجح الجواز . الا انهم لا يتخذون اللُجُم المحلاة بالذهب والفضة[2] . ومع هذا الجواز غلب في المراسيم السلطانية المصرية المنع من ركوب البغال مطلقاً وهذه منصوص بعض هذه الاحكام التي نودي بها في مصر والشام :

« سنة ٦٩٦ (١٢٩٦-١٢٩٧ م) نودي بمصر في ذي الحجة ان لا يركب احد من اهل الذمة فرساً ولا بغلا ومن وجد بيده راكباً ذلك أخذ منه »[3]

« سنة ٧٥٤ (١٣٥٣ م) في يوم الجمعة ثامن عشر رجب الفرد قرئ بجامع دمشق بالمقصورة بحضرة نائب السلطنة وامراء الاعراب وكبار الامراء واهل الحل والعقد وعامة كتاب السلطان بالزام اهل الذمة بالشروط العمرية وزيادات أخرى منها . . ان لا يركبوا الخيل ولا البغال ولكن الحمير بالاكف عرضاً . . »[4]

« في سنة ٧٥٤ (١٣٥٣ م) برز مرسوم السلطان (بمصر) بان يكون ركوب اليهود والنصارى على الحمير عرضاً وان تكون قيمة الحمار دون المائة درهماً »[5]

---

١) بيان ما يلزم اهل الذمة فعله ١٠

٢) صبح الاعشى ١٣ : ٢٦

٣) البداية والنهاية ١٣ : ٢٥

٤) البداية والنهاية ١٤ : ٢٥

٥) الجوهر الثمين لابن دقاق رقم ١٦٩٣ من الخزانة التيمورية

« وفي سنة ٧٥٥ (١٣٥٤ م) أمروا ان لا يركبوا الخيل والبغال ويركبوا الحمير عرضاً بالاكف من غير تزيين ولا قيمة عظيمة لها »(١

« في سنة ٧٦٥ (١٣٦٣ م) يوم الخميس خامس عشر صفر نودي في البلد (دمشق) على اهل الذمة ان لا يركبوا الخيل ولا البغال ويركبوا الحمير بالاكف عرضاً »(٢

« وفي سنة ٧٨٢ (١٣٨٠ م) ألزمت اهل الذمة بركوب الحمير بسبب ارسال الرجل »(٣

« وفي سنة ٨٢٢ (١٤١٩ م) امتنعوا جميعهم من ركوب الحمير بحيث ان العامة اذا رأوا نصرانياً على حمار صرعوه واخذوا حماره وما عليه فصاروا لا يركبون الحمير الا خارج القاهرة »(٤

ومن الجهل والسخافة عدّ ركوب الحمير حطة وعاراً . وقد كان الخلفاء العباسيون انفسهم لا يأنفون من اتخاذها . وكان للرشيد حمار يركبه في القصر اسود قريب من الارض(٥ . وقبله ركب الهادي الحمار . وفي كتاب المحاسن والمساوئ للبيهقي في خبر له « اذا الباب قد فتح واذا الخدم قد دخلوا واذا امير المؤمنين الهادي على حمار في وسطهم »(٦ وركب المعتصم بعدهما الحمار « وكان قد زار الواثق ثم دعا بحماره فركبه »(٧ . وكان في دار الخلافة ببغداد دار انشأها المكتفي بالله ابن المعتضد سُميت دار الحمار « لانه كان يصعد اليها على حمار له لطيف وتشرف على ما حولها »(٨

وقد وصف عبداللطيف البغدادي الحمير المصرية فقال:

« الحمير بمصر فارهة جداً وتركب بالسروج وتجري مع الخيل والبغال النفيسة ولها تسيقها وهي مع ذلك كثيرة العدد ومنها ما هو عالٍ بحيث اذا رُكب يسرج اختلط مع البغلات يركبه رؤساء اليهود والنصارى يبلغ ثمن الواحد منها عشرين ديناراً الى اربعين »(٩

---

١) السلوك ، ١٧٢٧ باريس ، ١٦
٢) البداية والنهاية ١٤ : ٣٠٥ - ٣٠٦
٣) انباء الغمر ، ١٦٠١ باريس ، ٢٥ - ٢٦
٤) النجوم الزاهرة ٦ : ٢٩٨ - ٠٠ ٤
٥) الاغاني ٥ : ٢٠
٦) المحاسن والمساوئ ١٢٦
٧) نهاية الارب ٤ : ٢٢٦
٨) معجم البلدان ٤ : ٢٤
٩) كتاب الافادة والاعتبار ١٩

ولذلك لم يُنعَ النصارى واليهود في الخلافة العباسية الا عن ركوب الخيل والبراذين فقط ، وهي الخيل الغير الاصيلة . وفي سنة ٢٣٥ (٨٤٩ م) امر المتوكل بلبس اهل الذمة الطيالس العسلية وركوبهم البغال والحمير بِرُكب الخشب والسروج التي فيها الأُكر ولا يركبوا الخيل والبراذين ويصيروا على ابوابهم خشباً فيها صورة الشياطين » واعاد الطبري ، وابن الاثير ، والمقريزي مثل هذا بتاريخ سنة ٢٣٩ (٨٥٣ م) واسخف ما فيه تسمير صور الشياطين على ابواب الذميين. وقد انفرد به المتوكل ، ولم نرَه لاحد من قبله ولا من بعده ، ولا عجب من اسرافه في هذا الاذلال والاضطهاد وقد اشتهر عنه انه « اهلك العلماء والكتاب في زمانه وحطّ مراتبهم وعادى العلم واهله فانقضت العلوم في ايامه وقتل كثيراً من الكتاب واستصفى اموالهم وهدم منازلهم ولقي اهل الذمة منه الشدائد وكل اذى ومكروه بتغيير زيهم وتذليلهم واهانتهم وهدم بِيَعهم وكنائسهم وهدم قبورهم وتسويتها بالارض »[1] . ولذلك عجل الله في الانتقام منه ، وسلّط عليه ولده المنتصر ، فأغرى الاتراك بقتله ، وهو اول خليفة لقي حتفه بيد احد قواده منهم ، وهلك بنفس السيف الذي اهداه له فكان كالباحث عن حتفه بظلفه.

وظلّ الذميون يركبون الحمير بغير ارسال الرجل الى سنة ٧١٠ (١٣١٠ م). وفيها وصل رسل قيصر الروم وصحبتهم رسل الكرج الى الابواب السلطانية بمصر وشُفِعوا في فتح الكنائس التي كانت مغلقة منذ عشر سنوات « ورسم للنصارى بالاستواء في الركوب وكانوا قبل ذلك يركبون عرضاً من جهة واحدة[2] » ولكن ما عتم هذا الرسم ان أُهمل وأُبطل وتجددت الاوامر السلطانية منذ سنة ٧٥٤ (١٣٥٣ م) ، وما يليها بالركوب على الحمير عرضاً ، كما تقدم من كلام ابن دقماق ، والمقريزي ، وابن حجر العسقلاني.

---

١) اخبار قطار كة كرسي المشرق من كتاب المجدل لعمرو بن متى ٧٠ – ٧١

٢) غاية الارب ١٥٧٨ باريس ، ٢١١ – ٢١٢

الادب التركي

في نهضته الحاضرة

عرض للدكتور اندري لوجنيسكل البلجيكي

على جبهة البناية الرائعة المخصصة لمعهد اللغات والتاريخ والجغرافية في انكرة ، نُقشت ، حروفاً ضخمة ، هذه العبارة من اقوال اتاتورك : « Hayatta en Hakiki Murçit Ilmidir » وهو ما يمكن تعريبه بـ « ان اصدق مرشد في حياة الانسان هو العلم » انها لدعوة خفية الى العمل ، يواصل القائد العظيم حث مريديه بها — دعوة لم تبقَ دون جواب . ذاك ان الحياة الفكرية التركية اشبه ما تكون اليوم بالفوّار ؛ كأنها ماء حُبس طويلاً في الاعماق ، فاندفع وانتشر يحطّم الاسداد العتيقة التي تصدّه . ثم اخذ ينتظم في مجرى مخطّط . الّا انّ غمره لا يزال يتوائب على شيء من الصخب — فمن اي غور ثريّ ينبجس حتى يطمو هكذا وينتشر ؟ علينا لكيما نتبين الامر ونتوضحه ، ان نغوص الى الاعماق التي فيها الينابيع — اي الى الغياهب الحالكة البعيدة من الشخصية القومية ، في حاضرها والماضي . والواقع ان الكاتب ، اذ يدفعه شيطانه الى التعبير ، يوزون الكلم او بمنثوره ، عما تكتزه نفسه ، فانما يزعم انه ينطق بلسان الجمهور الذي منه انبثق والذي يبقى مشدوداً اليه بمرى من العواطف والاماني الواحدة الصميمة . مطمحه في ان يفصح عن الذات القومية باخلاص يتمكن معه كل فرد ان يلقى بغبطة فلذةً من ذاته تنعكس في صفيحة النتاج الادبي . اما الذات القومية فانما الاجيال هي التي صهرتها على مهل . وبالتالي فان علينا ، لكي نحظى بمفتاح للخلق التركي ، ان نتمكن من الانحدار ، لا الى اعماق الشخصية القومية وحسب ، بل الى غياهب ذلك الماضي الذي وهمنا انه اندثر في حين لا يزال مقيماً . يجب ان نحظى بالزجالين العتاق يستثيرون الجماعات فتتبعهم متحمسة للاهازيج المطولة تتساوق وايقاع العود والناي والدمبلق .

يجب ان نبعث الحياة صاخبة عنيفة في تكايا الدراويش ، يجب ان نستقي من مخطوطات استنبول معيناً تعددت وجوه غناه اذ فيه اخبار الرحالة ، ومواعظ الحكماء ، وتعاليم الفلاسفة ، وانطلاقات المتصوفين ، بل يجب ان نلجّ ايضاً في الغوص لنسمع ، عبر الاجيال ، اصداء الاهازيج الشعبية القديمة التي كان الاتراك القدامى يهزجون بها بين موقمة وموقعة ، او تلك الاناشيد الحربية الموجهة لحماستهم ، وهم منطلقون لمهاجمة ملك الصين او لدك حصون آسية الوسطى . ذلك لان هذا الماضي السحيق اللاواعي هو ما يعطي لمجرى الفكر التركي الحديث زخمه وطابعه الخاص . وان تعذّر علينا اليوم ان نبلغ ، في انحدارنا ، الى هاتيك الاعماق ، فبوسعنا على الاقلّ ان نحاول استنباش العروق التي في غور الارض والتي منها تنبع العين الحالية ، اعني اولئك الروّاد من الجيل الماضي الذين لا يزال ذكرهم حياً والذين يحتفظ التتاج الحديث بطابعهم . لاننا اذا طفقنا نتحدث عن الادب التركي في يومنا دون ان نشير ولو اشارة عابرة الى سلفائه وافرانه المباشرين ، نكون كمن يقتطع من الشجرة عروقها وليس بعيداً المجال الذي يوصلنا الى الاسلاف . يكفي ان نجوب الهضاب المخضرة من ايب (Eyb) وفاتيح (Fatih) والروملي حصار (Rumeli hissar) وسكوتاري (Scutari) وقاضي كوي (Kadi Köy) ، فنلقاهم جماعة اثر جماعة .

هنالك يرقدون تحت عمائم الرخام ، في اروع بقعة من الدنيا ، وفي ظلّ سرو هرم يتطاول نصالاً دكناء نحو زرقة السماء . فكأنهم لا يزالون عبر القبر ، في خشعة الصمت ، ينشرون هالة الشعر حول الحاضرة العريقة التي غنوها في حياتهم . فلقد عاشوا الشعر يهيئون للامة مستقبلها ، او انهم جادوا باعمارهم في هذا السبيل . اولئك هم الرواد الجسورون الذين ارغب ان استهلّ الحديث بذكرهم .

هلا رجعنا القهقرى الى العهد المسمّى بعهد التنظيمات ، اي العهد الاصلاحي . كانت السلطنة العثمانية العجوز تشعر انها مضعضعة حتى في الاسس ، تحاول ان تتدارك امرها وتجدد احوالها . كان المفكرون يومها ، في طليعة حركة الانبعاث ، واثارهم مفعمة بارادة الحياة .

فكيف كانت حالة الادب يومذاك ؟

كان الادب امينا لتقاليد السلف يهيمن عليه النتاج الشعري . وكان الشعر يسير في مجرى مزدوج استمر حتى الحرب العالمية الاولى: كلاسيكي يستوحي الفارسية على الاخص والعربية — وشعبي ذو تعبير اصفى وحيا ينشد اكثر مما يلقى .

ان واصف Vasif ، وعزت ملا Izzet Molla وعاكف باشا Akif Paşa هم اسياد الشعر التقليدي ، بينما كان ارضروملو امره Erzurumlu Emrah اشهر الكتاب الشعبيين . اما بين ارباب النثر فتميز اسعد افندي Esad Effendi لعنايته بصفاء اللغة . بيد ان الاصلاحات لم تكن بعد قد اثارت التيار الاصلاحي العميق بانتظار سنة ١٨٦٠ حيث تظهر مدرسة جديدة على شعار « الفن في سبيل المجتمع » Cemiyet icin Sanat — وبالتالي فان شعارها يفصح عن مراميها العامة — انها ستعمل لتحويل المجرى الادبي كل اماني الاصلاح الاجتماعي الحاغة في الفضاء — اما مترعمو هذه المدرسة فهم سينازي Sinasi († ١٨٧١) ضيا باشا Ziya Paşa († ١٨٨٠) وخصوصاً نامق كمال Namik Kamal († ١٨٨٨). كان هؤلاء الثلاثة اجرأ الرواد ، جعلوا هدفهم الاول ان ينقلوا حيوية جديدة الى العروق التركية ، وذلك بان يعاونوا مواطنيهم على ايقاظ الحس الوطني في الضمائر وعلى اضرام القلوب بحب الوطن ، في وجهه الجديد المتراني من خلال الدستور ، وعلى تقييم الحقوق الاساسية للشخصية الانسانية .

كان عليهم ، تحقيقاً لهذا الهدف المثالث ، ان يتوسلوا باساليب جديدة ارقى من القديمة . وهكذا توجب عليهم بادئ ذي بدء ان يجعلوا اللغة في متناول الشعب ، فتصدوا الكتابة بلغة سهلة خالصة التركية — ثم كان عليهم ان يطوروا القالب الشعري ويحملوه مؤثرات جديدة مباشرة . وراحوا من ثم — ولعل هذا اقصى ما ابتدعوه من التجدد — يخاطبون الشعب بالصحيفة والكتاب والمسرح . فتوالت مذاك كتب الامثال والحكايات القديمة ، والمؤلفات في الحكم الشعبية ، والابحاث التاريخية ، واولى المحاولات القصصية . ومالوا شطر الغرب يكثرون موحياتهم — توجهوا نحو فرنسة على الاخص ، فنشروا ،

مترجمة الى التركية ، عددًا من مؤلفات الادباء الفرنسيين ، نذكر منها مسرحيات موليار وراسين ، وقصائد لافونتين ، وكتب فنلون وجان جاك روسو — بل ان نامق كمال انبرى يكتب في الدفاع عن رينان.

وبديهي ان هؤلاء الرجال الذين يضطرم فيهم الشوق الى الحرية لم يسهل عليهم ان يتابعوا رسالتهم في ظل نظام اوتوقراطي مثل الذي كان اتركية في ذلك العهد . فانقضى شطر مديد من عمرهم في المنفى . الا انهم لم ينفكوا عن الدعوة للاصلاح حيثما كانوا سواء في باريس ام في لندره ام في سواهما — عاشوا روّادًا متشردين تكتنفهم الصعوبات لانهم مثاليون تعلقوا في خدمة هدف وطني جبار — الا انه كان ينبغي ان يكون عملهم اقل عنفًا من حيث طابعه ليتوصل الى التأثير في البلاد ذاتها ويتغلغل الى اعماقها . وهذا ما تنبه اليه من تلاهم اذ راحوا يؤسسون مدرسة جديدة على نظرية « الفن للفن » Sanatiçin Sanat كانت حلتها بالسياسة والاجتماع اوهى ، وحصرت اهتمامها باصلاح اللغة وتجديد الادب . انما اخذ عليها تقليدها الغرب في ذاك التجدد ، على تفاوت في النجاح ، بحيث وقعت في رومنطيقية مائعة . ولكن هذه المدرسة خلفت اثارًا قيّمة ، واليها ينتسب ثلاثة يعتبرون من كبار الادباء : رقاعي زاده اكرم Recai Zade Ekrem ، وعبد الحق حامد Abdulhak Hamid وسامي باشا زاده سيزاي Sami Paşazade Sezai .

خلف اكرم عددًا من المجموعات الشعرية ، تزدحم فيها اروع الخلط القوالب الشائعة في ذلك العصر ، كما خلف ثلاث روايات ، ومسرحيات وترجمة لاتلا ، ومحاولات في النقد وفي الدراسة التاريخية ، فضلًا عن مقالاته الادبية العديدة .

اما عبد الحق حامد ، وقد ولد سنة ١٨٥٢ وعاش حتى سنة ١٩٣٧ ، فاميز ادباء هذه المدرسة . ان ثقافته العظيمة واطلاعه العميق على الاداب الفرنسية والانكليزية اعطت نتاجه الادبي مظهرًا من الشمول . كان خصب الشاعرية ، خلف عددًا من المسرحيات ، بينها اقتباس شعري لـ « السيّد Le Cid » ولمسرحيات « هوراس Horace ». اما « فنتن Finten » اشهر مسرحياته ، فقد استوحاها من الاغة الانكليز.

واما سامي باشازاده سيزاي (١٨٥٩ — ١٩٣٦) فقد اشتهر بحكاياته التي نهج فيها على الاسلوب الاوربي ولكنه كان اميل الى الواقعية وابعد عن الرومنطيقية من اقرانه ، مما يقربه الى ادباء الفترة التالية .

اذا كان جماعة « الفن للفن » يبدون على عقلية اوفر « برجوازية » من جماعة نامق كمال ، فانهم والحق يقال قد حسنوا القوالب الشعرية بما انهم قربوها من القوالب الاوروبية ، واغنوا اللغة دون ان يتنكروا بها عن الجادة الكلاسيكية ، فضلاً عن انهم حملوا معاصريهم على الاطلال على الغرب .

ويحسن ان نجعل في مصف هؤلاء الادباء الكبار عدداً من الكتاب وجهوا جل اهتمامهم نحو الادب الشعبي مثل احمد مدحت Ahmed Midhat ، وابو الضيا توفيق ، وملحم ناجي — فان لغتهم اقرب الى التركية المتداولة واثارهم الخاص تأثيراً .

وتتقدم الحركة الاصلاحية في السنوات الاخيرة من القرن التاسع عشر . فنرى جماعة جديدة تلتف حول مجلة ادبية جديدة Serveti Fenun ان المرحلة من تاريخ الادب التي تلقبت باسمها تبدو اوفر خصباً وانشط حيوية ، كأنها ارتعاشة اعنف تتوسط فيها الانطلاق المقبل . والت هذه المدرسة نشاطها في نطاق الفن للفن ، لان عمل الكاتب في السياسة كان لا يزال ، بالواقع ، في حيز المستحيل . فتميزت بصفاء البيان وبالمظهر الارستقراطي المتأنق .

اسس احمد احسان مجلة الفنون سنة ١٨٩١ ، وراحت تنشر الى جانب مؤلفات تركية خالصة ، كثيراً من الترجمات عن الفرنسية — واخذ شعراؤها امثال توفيق فكرت ، شناب شهاب الدين وسليمان ناصيف ، يتباعدون عن الاساليب القديمة . في تلك الحقبة ظهرت القصيدة القصيرة Sonnet ، واخذ يتكامل كيان القصة والاقصوصة على يد خالد ضيا ، ومحمد رؤوف ومحمد جاهد يالثين (الذي زار لبنان في العام الفائت) — اما الادباء الشعبيون فاشهرهم في تلك الحقبة حسين رحمه واحمد راسن .

وتجدر الاشارة الى حركة رصينة هدفت الى التعمق في الدراسات التركية . فاذا احمد وفيق باشا ينقل كتاباً في اللهجة الشغاتية Djagatay ، وينشر اول

قاموس في العامية – واذا سليمان باشا يصدر محاولة في تاريخ الاتراك القدامى، واذا شمس الدين سامي ينشر اول معجم تركي في الف وخمسماية صفحة، وينقل لاول مرة، الى التركية الحديثة نصوص الارخون القديمة التي كان قد نشرها رادلوف – واذا نسيب عاصم يحيي كاتبين من القرن الثاني عشر ويترجمها – واذا احمد حكمت ينشر، في جملة ما ينشر، دراسة عن تقاليد الاناضول وقصص اليوغور – واذا محمد امين يورداقول ينشر (١٨٩٩) ديوانه Türke Sürler على ايقاع جديد تختلج فيه النفس التركية:

« انا تركي خالص، اباني كبير وقومي كبار.»

ان صدري، بل كياني كله، يتأجج بهذا الغرام

Ben bir Türküm, dinim cinsim uludur
Sinen özün ateş ile doludure.

وهوذا مقطع من احد مؤلفات الروائي رفيق خالد، رسم فيه، بدعابته المعروفة، صورة الشعراء الشباب الملتفين تحت راية « سرقتي فنون »:

« طرابيشهم محددة وصلبة لانها مبطنة بالكرتون. تتهدل شعورهم فضفاضة مجعدة، فكأنّ رؤوسهم واجمة تعربش عليها النباتات. قياتهم منشاة، صلبة ومحددة، مثل طرابيشهم. اما كرافاتاتهم فلها طرف في رفع الخيط وطرف عريض بمثل الصدر. واما البنطرون والجاكيت فعلى ضيق غريب. حذاءهم ينتهي برأس ضيق محدد، له كعب في استدارة البيضة. شواربهم معقوفة بكياسة ومجدة بالكوسمانيك. اما بشرتهم فمن لون الورق المندى كأن العروق نافضة من الدم، فهياتهم كئيبة – يأخذهم السعال من حين الى حين بشكل يدمي الفؤاد... انهم صبية يتوجب ارسالهم الى المصح...»

ويهلّ القرن العشرون فاذا الحركة الادبية تسير في مجرى مثلث: ادب انيق يهيمن فيه الانتاج الشعري، غربي الوحي عثماني التعبير. وادب شعبي اقرب في تعبيره الى اللهجة التركية الاصلية (اللهم الا في المدن حيث تعكر صفاء اللهجة وتغرّبت) ثم نشاط في استجلاء التقاليد التركية الخالصة.

ويعلن الدستور سنة ١٩٠٨، فيبزغ عهد جديد في الصعيد الفكري، خصوصاً وقد كانت الطرق ممهدة امام الفكر المتحرر. فلا بدع ان تعرف

السنوات الاولى غلياناً مزبداً ، اذ راح شيوخ الكتاب يغالون في اظهار تطورهم ، بينما كان حماس الشباب يدفعهم الى التجدد في كل امر ويحملهم على تقويم كل شيء تقويماً نهائياً . ويتألف عدد من الاندية الادبية ، بينها ثلاثة كان لها تأثير خاص في الحركة الاصلاحية ، وهي : نادي فجر المستقبل Fecri Ati — الجمعية التركية Turk Derneği وخصوصاً جماعة الاقلام الفتية Genç Kalemler

اما شباب « فجر المستقبل » (وبينهم المع اسماء الادب المعاصر كاحمد هاشم Ahmed Hasim ، فؤاد قوبرولو Fouad Koprulu ، عبدالله صوفي Abdallah Suphi ، رفيق خالد Rafik Halid ، يعقوب قدري Yakub Kadri فقد توافقوا ردحاً من الزمن مع شيوخ مجلة Servet Fünun . ففي ١١ شباط ١٩٠٩ اذاعوا بياناً على صفحات المجلة عبروا فيه عن ارادتهم بالرجوع الى اسلوب ادبي خالص الاروعة التركية وموافق لنزعات الشعب .

الا ان اهم مركز تبلورت فيه الآمال الفتية التي كان يترقبها الادب فسالونيك حيث كان مقرّ حزب تركية الفتاة عند اعلان الدستور ومنذ سنة ١٩١٠ ظهرت في سالونيك مجلة جديدة اسمها «الشعر والجمال Hüsün ve Şür» بادارة علي قنيب يونتم Ali Canib Yontem . وما لبثت في سنة ١٩١١ ان قلبت اسمها الى «الاقلام الفتية» — وكان من اوائل معاونيها عمر سيف الدين ، وخصوصاً ضيا غوقلب « Omer Seyfeddine et Ziah Gokalp » الذي سيكون لشخصيته القوية كل الفضل في توجيه عدد كبير من الشبان الى الانضواء تحت شعار المجلة . اما الاصلاحات التي كانوا يريدون فرضها على اللغة فهذه اهمها :

١ — الاستغناء عن بعض علامات الجمع والكلمات المركبة الدخيلة من العربية والفارسية

٢ — استعمال كلمات تركية صرفة للتداول والتعليم .

٣ — تبني الكلمات التي يستعملها الشعب على ان لا تتألف من تراكيب مصطنعة .

وهذا اخذت الانواع الادبية تتطور بسرعة بفعل هذه الجماعات الادبية الفتية . ففي النثر ، انتشرت الصحافة انتشاراً واسعاً وتكاثرت المؤلفات

القصصية والتاريخية . اما الشعر فراح يستوحي الاغلم من المنابع القوميـة العريقة . واخذ الشعراء يعملون في تجديد القوالب والاساليب حتى انهم صاروا يعتمدون ، بعد اصلاح الانشاء ، القوافي والتقطيع ... على غرار الشعر الاوربي . وراح الادب في صعود صاعق منذ السنوات المضطربة التي سبقت الحرب العالمية . حتى اذا ظهر اتاتورك كانت البذور التي غرسها الشباب في مطلع القرن تعطي ثمرًا يانعاً .

ان مجال الوقت قصير امامنـا لكي ندرس الادب الحديث ونرافق تطوراته ، فلعل الخير ان نتعرف اليه من خلال رجاله ، وعليـه سأقدم نخبة من اقوى شخصيات الحركة الادبية الحالية ، تتلمسون من خلالهم تعدد وجوه الحركة وتنوعها — فلنبدأ بواحد من المقدمين وقد اسلفت الاشارة اليه : ضيا غوكلب .

ولد ضيا سنة ١٨٧٥ ، في ديار بكر ومات سنة ١٩٢٤ في استنبول . هو نموذج من الجيل الذي قام بالثورة ، على كونه قد مات قبل ان ينعم بثمارها . وهو ايضاً من ائمة الذين اشترعوا للمدارس الادبية اصولها الفنية . كان اديباً متين الثقافة ، يهتم بالفلسفة اولًا وبعلم الاجتماع . وكان الى ذلك صحافياً مرن القلم ومنشئاً معتبرًا ، كما كان يقول الشعر في بعض ساعاته . وقد اثر تأثيرًا كبيرًا في الشبيبة المثقفة في مطلع القرن .

كان ابوه امين المحفوظات في ولاية ديار بكر ، يحرر في الصحيفة المحلية ويعد بين الشخصيات المميزة في محيطه . تتلمذ على تامق كمال وغدا من المؤمنين بارائه . وبفضل تشجيعه انصرف ابنه ضيا يحماس الى ارتشاف العلم ، متخرجاً من المدرسة الحربية ومن المعهد الحاماني . وما لبث ان اتقن العربية والفارسية والكردية والفرنسية ، واظهر ميلًا خاصاً للفلسفة ، وعلى الاخص لفلسفة الاسلام . واعجب مثل ابيه بتامق كمال وتشرب من روحه ومثله في سبيل الحرية . الا انه ما لبث ان عانى ازمة نفسية حادة عندما تجلى له انه يستحيل عليه ان يحقق مشاريعه المثالية . وتفاقم يأسه على اثر موت والده خصوصاً وقد مني بخيبة عاطفية ، فرأى ذات صباح ان افضل وسيلة للخلاص هي ان يرمي

صدغه برصاصة . ولكن الرصاصة لم تقتله بل جرحته . فما ان استعاد العافية حتى تجالد وتعلق بالحياة وبمم استنبول ليستكمل معارفه وثقافته . وما عتم هناك ان انخرط في جمعية سرية الفها طلاب المعهد الطبي . ولكن رسالة كتبها ووقعت في يد الشرطة فضحت امره . فاعتقل ومكث تسعة اشهر في السجن ثم أبعد منفياً لديار بكر . وكان ان هذه الاقامة الجديدة في وطنه اتاحت له الاتصال المباشر بالشعب ، كما تسنى له حفظ القرآن ودرس اصول الدين . وعداة انقلاب سنة ١٩٠٨ اسس في ديار بكر فرعاً لجمعية الاتحاد والترقي ونشر صحيفة . وفي سنة ١٩١٠ قصد سالونيك ليمثل الفرع في مؤتمر عام عقدته الجمعية . وانتخب عضواً في المجلس الاداري . وبقي في سالونيك يتعاون وعلي قنيب وعمر سيف الدين في تحرير مجلة الاقلام العثية التي سبق الحديث عنها . وكان يوقع مقالاته بامضاء « عوقاب » فتغلب عليه اللقب . وبعد حرب البلقان رجع الى استنبول مع اللجنة الادارية ، فواصل الكتابة ونشر « المجلة الجديدة Yeni Mecmua » . وتعاظم شأنه لدى الشبيبة حتى اقد جاوزت له هيبة رسول وتأثيره . وعقيب الحرب الكونية نقلم الانكليز الى مالطه ، الا انه تمكن من الوصول الى الاناضول حيث واصل عمله دون كلل ، فأنشأ مجلة جديدة في ديار بكر دعاها « المجلة الصغرى Kuçuk Mecmua » وبعد ان صارت انقره العاصمة الجديدة استدعي اليها وتولى مهام مدير معاون في التربية الوطنية ومدير لجنة المنشورات والترجمات . وانتخب نائباً في المجلس الوطني الكبير . ونشر عدداً من الكتب المدرسية في التاريخ والاجتماع — ومات في ٤ تشرين الاول سنة ١٩٢٤ اثناء عملية اجريت له في استنبول .

كانت تسيطر على هذه الحياة المضطربة التي عاشها ضيا فكرة رئيسية هي تحرير الشعب سياسياً وثقافياً . وكان هذا هو المثل الاعلى الذي وضعه شبان الاتحاد والترقي نصب اعينهم ، الا ان ضيا هو الذي عبر عنه بقوة وجلاد . وكان يتمثل الروح التركية في العودة الى التقاليد الطورانية العريقة ، وهذا ما اوحى دعوته لتقارب الشعوب الاسيوية الناطقة بالتركية ، وتفاهمها . قال في احد مؤلفاته : « التترك هو إكبار الامة التركية وعبادتها » . وقال في موضع

اخر : « ليست الامة في وحدة الدم او الجنس او الارض او السياسة او الحكومة . الامة هي جماعة من البشر توحد بينهم لغة واحدة ، وايمان واحد ، وحضارة واحدة ، وتجمعهم عرى تربية واحدة » وكان موقفه من اللغة موقف الاقلام الفتية ، وقد المحنا اليه ، الا ان ضيا عبر عنه بهذه الرباعية :

اللغة الجميلة عندنا هي التركية	Guzel dil türke bize
كل لغة سواها ليست سوى كلمات	Bayka dil gece bize
ولهجة استنبول في سمعنا	Istanbul Konus Masi
اطرب اللهجات وارقها	En Saf, en ince bize

كان ضيا طيلة حياته عدوًا للفردية في الصعيد الاجتماعي ، يبشر بحرارة بقوة الاتحاد ويدعو الاتراك اليه . وقد سارت له اقوال كالامثال لبيانيتها الجامع المانع ، كقوله : « لا انا ، ولا انت . بل نحن Ben, sen yokuz, biz varız. .

وبالرغم من انصرافه الكلي الى العمل في سبيل الاصلاح الاجتماعي وفي سبيل تطهير اللغة ، وبالرغم من نضاله الصحفي ، فقد كان شاعرًا مرموقًا ينظم على المنهج الاوروبي .

كان من الضروري ان نبدأ بابراز هذا الوجه الرائع . فان ضيا ان اكمل رجال جيله ، هو عالم عامل دفع من شخصه وخاطر بحياته . ودمغ تركية الفتية بطابعه بفضل نضاله الملتهب وتفكيره المتين ، لذا اعتبرت وفاته خسارة وطنية .

❦

وارغب الان ان اعرض لوجه اخر جذاب ، كان صديقًا اضيا عوقلب ورفيقًا له في النضال ، ومات مثله قبل الاوان ، عنيت عمر سيف الدين . خطفه الموت سنة ١٩٢٠ ، وهو بعد في السادسة والثلاثين من العمر ، دون ان يرى تحقق حلمه . الا انه خلف اثارًا قيمة تجعله امير القصاصين في الجيل الجديد . قضى معظم حياته جنديًا ، واشترك في الحرب البلقانية فوقع اسيرًا عند اليونان . اما السنوات الست الاخيرة من حياته فقد قضاها استاذًا للاداب في علمانية قباتاس Kabatas في استنبول . كان وطنيًا صميمًا خص اكثر قصصه بابطال

الجيش التركي ، فاذا فيها تسري انتفاضات روح نارية فتية . اما لغته فمثال عما كان يبغي تحقيقه في اللغة جماعة الاقلام الفتية المصلحون : لا تثقلها مستحدثات لم تدرج ، بل تعتمد التعابير المألوفة في الاحاديث الشعبية . من اجل ذلك سارت لعمر سيف الدين شهرة عظيمة بين الشبيبة اذ كان اقرب الكلاسيكيين اليها — وخصوصاً من اجل انشائه الحيّ الجريء الواقعي ، الكثير الصور ، ومن اجل جمله النابضة الخفيفة الوقع المترعة بالمعنى .

ويؤسفني ان لا يسمح لي المجال بنشر واحدة من اقاصيصه التي تجدر قراءتها بجملتها لتذوق نكهتها .

❦

« ان المعلم الذي فتح المنافذ والشرفات على العصر الذهبي من ماضي تركية هو فواد قوبرولو». بهذه العبارة يقدم احد الكتّاب افضل مؤرخ معاصر في تركية . واننا لنتحدث عن فواد قوبرولو كمثال عن النشاط العلمي الذي برع فيه عدد من زملائه . ولد في ٢٢ تشرين الثاني في استنبول حيث انهى علومه الادبية والشرعية وانضوى في جمعية Fecri Ati ، واشترك اشتراكاً فعلياً في حملة اصلاح اللغة . ونظم عدداً من القصائد . الا ان اختصاصه كان التاريخ ، يبدع فيه ويتقنه حتى عين استاذاً للتاريخ في جامعة استنبول وهو بعد في الثالثة والعشرين ، واستمر زمناً طويلاً استاذاً في معاهد استنبول واقتره ، وانس في هذه الاخيرة مجلة دعاها « الامل Ulkü ». اثاره الادبية كثيرة . اما تآليفه التاريخية فلا تقل عن الخمسة والعشرين تتناول مختلف ميادين التاريخ من تاريخ تركية السياسي الى تاريخها الادبي الى تاريخ موسيقاها ، وتاريخ الحقوق وتاريخ الحضارة الاسلامية وتاريخ الآداب الارمنية ، فضلاً عن الدراسات المحددة المواضيع ، ناهيك بالسرد التاريخي . وتجاوزت شهرته تخوم بلاده ، فصار في سنة ١٩٣٤ عضواً شرفياً في اكاديمية العلوم في المجر ، وعين سنة ١٩٣٧ دكتوراً شرفياً من اكاديمية اثينا ، وفي سنة ١٩٣٩ دكتوراً شرفياً من السوربون . الا انه منذ الحرب الاخيرة حصر نشاطه في السياسة . وهو من مؤسسي الحزب الديمقراطي ، انتخب في ٢١ تموز سنة ١٩٤٦ نائباً عن استنبول

في المجلس الوطني التركي الكبير . وهو المرزخ المسوع الكلمة ، فمن المؤسف ان تكون السياسة قد عاقت نشاطه الادبي ، الا ان شخصيته مهما تكن قوية لا يصح ان تحجب عنا عشرات الباحثين الذين يدعون اليوم في علم التاريخ سواء اكانت مؤلفاتهم مدرسية ام ابحاثاً علمية صرفة .

القصة هي المجال الذي تطور فيه الادب العصري واخصب . فمن الطبيعي ان يسلك الادباء هذا المجال ليتصلوا بالجمهور ويحافظوا على صلتهم به . ولقد طرقوا هذا النوع من عديد وجوهه : من القصة التي تعتمد التاريخ ، الى التي تدرس الاخلاق ، الى التي تهدف الى اثبات نظرية ، الى التي تحلل النفس الانسانية الخ . . . وانه ليقتضي تعداد طويل ، بل وناقل ، للروائيين ورواياتهم لتتكون لديكم صورة عن سعة النتاج القصصي ووفرته . وعليه فاني افضل تقديم ثلاثة من اشهر الروائيين لا يزالون احياء : منهم اثنان يعقوب قدري ورفيق خالد معاصران اذ ولد كلاهما في سنة ١٨٨٨ ؛ ثم السيدة خالدة اديب وقد ولدت سنة ١٨٨٤ ، واقامت مدة في لبنان قبل سنة ١٩١٤ .

ولد يعقوب قدري دارامانلر في مانيسه ، وتلقى قسماً من علومه في معهد الفرار في القاهرة ، حيث تمكن من الادب الفرنسي . وجاء استنبول سنة ١٩٠٨ فانخرط في جماعة Fecri Ati ، مترئساً تحرير جريدة الاقدام Hadam ، مشتركاً في نشر مجلة درغه Dergah . وعين نائباً في المجلس الوطني الاعلى ، ثم استدعي الى السلك الدبلوماسي فعين على التوالي سفيراً لتركية في براغ ولاهاي وجنيف .

اما رواياته العديدة فتعرض الحقب التاريخية من الحياة التركية : منها « نور بابا وكيرالك قوناق Nur Baba et Kiralik Konak » على عهد السلاطين - و « بير سرغن Bir Surgün » تروي معيشة المنفيين . و « سادوم وعامورة » تجري وقائعها في ايام احتلال الحلفاء . و « انكره » في العهد الجمهوري الجديد . وان عنده طلاوة في السرد وغنى في الخيال يضمانه في مصاف اكابر الروائيين اما لغته فاقل بساطة من لغة عمر سيف الدين ، الا ان تصميمه اعظم . ولقد

كتب بعض رواياته ، مثل نور بابا وكيرالك قوناق ، حوالى سنة ١٩٢٢ وسنة ١٩٢٣ ، بالحروف القديمة . الا ان المؤلف اجرى تعديلات في معجمه اللفظي ، في الطبعات الحديثة ، ليتماشى مع تطور اللغة . وقد اثارت حكاية « نور بابا » نقاشاً حامياً . لان الكاتب وصف فيها سيرة احدى تكايا البكتشيه او البختشية Bektachis في اواخر عهدها ، راسماً عنها لوحة واقعية تخللها بعض المديح . على انه اوضح في مقدمة وضعها للطبعة الثالثة انه لم يتعمد ان يعطي حكماً قاطعاً في ماضي البكتشيه ، ولكنه وصف ما شاهده فيها في سنواتها الاخيرة التي سبقت الجمهورية

اما روايته بير سورغون Bir Surgun التي تصف معيشة المنفيين في فرنسة فمحشوة بالكلمات الفرنسية ، بينما رواياته الاخيرة مكتوبة بلغة اصفى تركية . ولقد الف قدري كتابين مهمين الاول عن سيرة اتاتورك والثاني عن الشاعر احمد هاشم الذي سيأتي الكلام عنه . وله ايضاً آثار صحفية مهمة ، كما ان له محاولات في اصول الفن ، وفي السياسة ، تبرهن عن نفاذ البصيرة .

رفيق خالد قراي هو ، بلا جدل ، من اسياد البيان الحديث ، شخصيته تختلف جداً عن شخصية يعقوب قدري ، استطاعت ان تفرض ذاتها على الجمهور حالاً . وهو اليوم من ارفر الادباء قراء . واخبرني بذاته ان بعضاً من رواياته بلغت طبعاته الاثنتي عشرة . يبدع في نقد الاخلاق ، وعنده تهكم لاذع يحق له من اجله ان يدعى « الولد الرهيب » في الادب . تثقف في علمانية غلطه سراي في استنبول ثقافة فرنسية الاصول . واستهوته ، منذ الصبا ، المبادئ الاصلاحية فانخرط في جماعة Feeri Ati . ساهم كثيراً في مجلة « المجلة الجديدة » التي انشأها ضيا غوكلب Ziya Gokald ، وكان خالد يجله اجلالاً عميقاً . الا ان براعته التهكمية تجلت على الخصوص في مجلة Aydedi (القمر الاب) . ولكن هذه البراعة هي ما اضره . وكان قد شغل عدداً من المناصب الادارية . فلما تأسست الجمهورية طفق يدعو الى سياسة المسالمة والتفاهم ، اعتقاداً منه ان الخلاف بين تركية والبلدان الاجنبية

مما يمكن تسويته بلا قتال . من هنا انه استهدف سياسة حكومة انكيره في انتقاداته ، فكان ان وضع المجلس الوطني الاعلى اسمه على قائمة المائة وخمسين شخصية غير المرغوب فيهم . فاضطر ان ينفي نفسه ، واستقر في سورية قريباً من بلاده ، حتى سنة ١٩٣٨ . ولكن من الواجب الاقرار بانه لم تحم شبهة حول وطنيته اللاهبة وتعلقه ببلاده . وعندما رجع الى بلاده بقي وفياً لدعوته الصحفية ، فكان يذيع مقالاً يومياً في جريدة اقشام Akçam ، كما استلم تحرير المجلة التهكمية Aydedi ينشرها مرتين في الاسبوع . وتبلغ مؤلفاته الخمسة والعشرين ، تنبي عن غنى مواهبه وتنوعها . عكف رفيق خالد على تصوير حياة الشعب الاناضولي ، فابدع كما سجل نواحي من المعيشة في استنبول قبل الثورة وبعدها . له طلاوة في السرد لا تدانى ، وقلم حي لاذع ، وشعور مرهف ، ومخيلة تجعل من لوحاته كلها روائع صغيرة ستخلد حتماً كافضل تراث من جيله .

اما خالده اديب انور Halide Edip Andivar فقصاصة من الطراز الاول . ثقافتها انكلوسكسونية لانها من خريجات الكلية الاميركية في استنبول . بدأت الكتابة في مطلع الشباب فاصابت نجاحاً . وانصرفت للتعليم فتولت تدريس الآداب الاجنبية في علمانية البنات وفي الجامعة . الا انها غادرت تركية في مستهل العهد الجمهوري مع زوجها عدنان انور Adnan Andivar واقامت في باريس ، ثم انتقلت الى اميركة حيث حاضرت في جامعة كولومبية . وفي سنة ١٩٣١ — ١٩٣٢ قامت برحلة الى الهند والقت سلسلة محاضرات ، ثم عادت الى تركية سنة ١٩٣٩ ، حيث تسلمت منبر الادب الانكليزي في معهد الادب في استنبول . تكتب خالده اديب الانكليزية بذات السهولة التي تكتب بها لغتها الاصلية . وقد وضعت بعض تآليفها مثل « دكان الذبان Sinekli Bakkal » في الانكليزية اولاً ثم نقلتها الى التركية . نشرت عشر روايات ومسرحيتين وتاريخاً للادب الانكليزي وعدداً من المحاولات والمقالات . في تآليفها نزعة روحية بينة ، ويتميز ابطال قصصها والبطلات برقة العواطف . وتأتي خالده

اديب في مقدمة سلسلة من الاديبات القاصات يصغرنها سناً ، الا انهن احتللن مقاماً في الادب التركي . وهن يكدن في الادب نشاط اديبات تقدمنهن، ظهرن في عهد التنظيمات وتميزن بالرومنطقية فكان منهن شاعرات مثل نزار خانم Nigar Hanim وفاطمه عليه خانم Fatma Aliye Hanim وقاصات مثل امينه سنيه خانم Emine Seniye Hanim . ويمكن القول ، نظراً لتزايد الفتيات المنتسبات الى معهد الآداب ، ان فريق الاديبات سيتضاعف بمن سينضممن اليه من اديبات ممتازات المواهب ، قد صقلتهن المدرسة الحديثة .

وقبل ان نصل الى الشعراء ، وبهم نختتم عرضنا هذا ، ارى من الضروري ان استرعي انتباهكم ايضاً الى شخصيات ادبية ثلاثة يتمتعون بشهرة عظيمة لاسباب مختلفة :

اولهم رشاد نوري غونتكين Reşad Nuri Güntekin وهو اديب في الثامنة والخمسين من العمر ، يتميز بوفرة تآليفه وتنوعها ، ذو ثقافة تركية فرنسية ، كرس حياته للتعليم وصار اليوم مفتشاً للطلاب الاتراك في باريس . كانت روايته الاولى الملك الصغير Çalı Kuşu مبدأ شهرته ، وقد اتبعها بعشر روايات ، فضلاً عن عدد من الاقاصيص والتمثيليات المتنوعة من الهزلية ، الى المآسي الى مسرحيات الصغار ، ناهيك بما نشره من اخبار رحلاته وما عرضه ونشره من نصوص مختارة (Anthologies)

اما حمدالله صوفي تنريوفر Hamdullah Suphi Tanrıöver فكان بالعكس مقلاً بالكتابة ، الا ان تأثيره كان عظيماً . استمر نائباً في المجلس الوطني الاعلى منذ تأسيس الجمهورية ، ما عدا ثلاثة عشر عاماً كان في اثنائها سفيراً لتركية في بخارست ، وولي وزارة المعارف مرتين . ومن اهم الاهداف التي كرس لها حياته تثقيف الشبيبة ، وقد راح منذ سنة ١٩١٢ يرئس نوادي الشباب . ثم انه خطيب لامع ، جمعت خطبه في الشباب في مجلدين بعنوان Dağ Yolu et Gune Bakan ويمكن اعتبارها منهجاً روحياً للشباب . وتأثيره يهدف الى الروحية اذ انه يتوخى ان يجب الاصول الدينية للفتيان . وكتب

ايضاً عدة مسرحيات شعرية وعددًا من المقالات . الا انه يصح عنه ما قاله احد الكتاب الاتراك : « ينحصر عمله كله في بعث الضمير المسلم وتثقيفه لمقاومة النزعات المادية . » وانه لمن المهم ان نشير الى وجود مثل هذه النزعة التعليمية ، الروحية والدينية ، التي يعتبر حمدالله صوفي اهم ممثل لها .

تطورت الصحافة في ظل الجمهورية وانتشرت انتشارًا عظيماً كما تبين مما سبق من الامثلة . ويمكن القول ان الادباء الاتراك الكبار قد عملوا في الصحافة باجمعهم ان قليلًا او كثيرًا . فلا بأس اذًا ، ان نذكر الصحافة كاحد الانواع الادبية ، ونذكر احد اساتذتها الحاليين : فالح رفقي أتاي Falih Rifki Atay . لبث زمناً في جريدة « طنين » وكان احد المحررين من كتابها . وهو اليوم يرئس تحرير جريدة « اولوس » شبه الرسمية - وهذا يعني انه يعتبر مع حسين جاهد يالشين Huseyn Cahid Yalçin امير الصحافيين المعاصرين . وعرف أتاي بحماسه الملتهب في الدفاع عن العهد الجديد ، الا ان مقالاته لا تنحصر في ميدان السياسة ، بل تتخطاه بعيدًا . وقد تميزت له مقالات مثلًا عن رحلاته الى ايطالية ، والاتحاد السوفياتي ، واميركة . ونشر سنة ١٩٣٢ قصة ذات دروس اخلاقية ، كما نشر قصة ثانية سنة ١٩٣٤ عن انكلترة ، عنوانها « على ضفاف التامیز » ونالت القصتان نجاحاً باهرًا .

اما الشعر فكانته في الادب الحديث اضأل منها في القرن الماضي ، بالنسبة لمجموع النتاج الادبي . لان كتاب اليوم يفضلون التعبير المباشر . وكأن نظرية الفن للفن قد تطورت حتى عادت الى ما نادى به تامق كمال قديمًا « الفن للمجتمع » او على الاصح « الفن للشعب » . ومع هذا فان عدد الشعراء المحدثين غير قليل . الا اننا سنقصر الحديث على الاثنين المميزين ، اولهما احمد هاشم Haşim وقد توفي سنة ١٩٣٤ ، اما الثاني فلا يزال حيًا وهو يحيى كمال Yahya Kemal

ولد احمد هاشم سنة ١٨٨٣ في بغداد ، من عائلة عربية الاصل ، وقدم الى استنبول في الثانية عشرة من عمره ، واقام فيها يتلقى دروسه في علمانية

غلطه سراي ، ثم درس الحقوق . وتولى عدداً من المناصب الادارية ، فضلاً عن انه كان استاذ الفرنسية في علمانية ازمير ثم في مدرسة العلوم السياسية . وزار فرنسة مرتين في ١٩٢٤ و ١٩٢٦ .

وهاشم شاعر رمزي . كانت قصائده الأولى كلاسيكية الاسلوب ، الا انه ما لبث ان استهوته الرمزية ، فبدت في قصائده الاخيرة فائقة النعومة . ولقد بسط نظرياته الشعرية في احد مؤلفاته ، كما نشر عدداً من المحاولات اكسبته شهرة واسعة .

اما يحيى كمال Yahyah Kemal فاوفر الشعراء شعبية في تركية . وما ذلك لوفرة نتاجه ، الا انه بفضل شاعريته التي لا تماثل وبفضل ثقافته الكلاسيكية العميقة ، وبفضل معرفته للشرق وللغرب ، استطاع ان يكون في اشعاره خلاصة العالمين . ثم ان فيه بساطة طبيعية ، الى ظرف متوهج ، تجذب اليه محبة الجميع من اول وهلة . وقضى يحيى كمال ردحاً من شبابه في باريس ، فاتصل بالحي اللاتيني وتابع دراسات كلية العلوم السياسية . وعاد من فرنسة وقد انطبعت شاعريته بالبارناسية ، وان كان البعض يرى ان شعره ليس محرراً من شخصيته للدرجة التي يمكن معها عده من اصلاء تلامذة البارناس . واشترك يحيى كمال اشتراكاً فعلياً بالثورة ، ثم دعي للنيابة وارسل سفيراً ، وهو اليوم اول ممثل لتركية في دولة الباكستان .

اما شعره فيتدفق فيه حب الوطن بما يعطيه طابعاً تركياً مميزاً ، وان كانت شاعريته تختلف عن الشاعرية التي اثرت عليها الثورة في الشعراء المحدثين : فهؤلاء اكثر واقعية ، وتعبيرهم مباشر ، وشخصيتهم اكثر تحديداً ، ثم هم اقل اهتماماً بشؤون الغرب . وبخصوص التأثير الغربي فان موقف يحيى كمال كان مناقضاً لموقف ضيا غوكلب . فهو يعتبر ان الشخصية التركية قد توطدت باتصالها بالغرب ، وعليها ان تستمر في اتجاهها : « واقعا فنوننا التركية كلها ، كما قد كتب ، سواء كانت اولية او ثانوية ، سواء الهندسة او الموسيقى او تخطيط الحواضر ، قد تطورت بعد ان توطد السلجوقيون في الاناضول اليونانية ، وعلى اثر قيام السلطنة العثمانية . وما ان توحدت الروملي واستنبول بشكل لا ينفصم ،

في السلطنة حتى اعطى هذا الوطن الجديد للامة كياناً جديداً مع ظروف جديدة للعيش ، — ان في شعر يحيى كمال تتجلى هذه الخلاصة التي تحملها نفسه من الحرفيتين الشرقية والغربية .

احمد هاشم ويحيى كمال وضيا غوقلب هم الشعراء الثلاثـة المميزون في الجيل الذي هيأ الثورة واشعلها امـا الجيل الذي تلاه والذي بدأ يكتب حوالي سنة ١٩٢٠ فيظهر في انتاجه الهوس الذي اشاعه فجر الحرية الجديد ، وقد عاشوه وهم على عتبة الرجولة . من هنا انهم واقعيون ، واشد اهتماماً بالمشاكل الاجتماعية التي اثارها العهد الجمهوري الجديد في البلاد . هذا ما يظهر في اثار فاروق نافذ Faruk Nafiz ، وناظم حكمت Nazim Hikmet ، ونـيب فاضل Necip Fazil ، وبهجت كمال Behçet Kemal ، واحمد محب Ahmet Muhip ، وياسر نابي Yasar Nabi ، واحمد قدسي Ahmet Kudsi وغيرهم .

فنّ التمثيل

في فصول قريبة

بقلم يوسف احمد داغر
احد امناء دار الكتب اللبنانية

فهرس ابجدي

بعناوين المسرحيات

(الموضوعة والمعرّبة)

٣

ف

الفارس الاسود : نثرية يتخللها شعر ، ذات ٥ فصول ، وضعها نجيب حبيقة ، جمع فيها ثلاث روايات افرنسية الفها الاب كاميل اليسوعي وهي : *Le Solitaire des Tombeaux* — *L'homme de la Forêt Noire* — *Le Roi des Oubliettes*. المطبعة العثمانية ببعبدا ، ١٨٩٩ ، في ١١٧ ص نقدها في المشرق ٢ : ٩٠٧

فارس البلقاء ابو محجن الثقفي : فصل واحد تأليف علي احمد باكثير ، نشرتها دار الفكر العربي ، مع مسرحية اخرى هي « ابراهيم باشا » — مصر ص ١١٥ ، و١٥٧

فاطمة : وضعها محمود كامل ومثلت لاول مرة على مسرح حديقة الازبكية سنة ١٩٣٠

وهنالك مسرحية بهذا الاسم تأليف الاب يوسف العلم .

الفاكهة المحرمة : اشترك في وضعها احمد عبد الرحمن قراعة ومحمد الوادي ومثلتها الفرقة القومية على مسرح الاوبرا . نقدها يوسف تادرس في الرسالة عدد ١٨٤

فاوست : تأليف غوتيه ، نقلها الى العربية محمد عوض محمد . نشرتها لجنة التأليف والترجمة والنشر ، مصر ١٩٢٩ ، لها مقدمة بقلم الدكتور طه حسين . نقدها شفيق جبري في « مجلة المجمع العربي » ١٠ : ٣١٩ — راجع فيها نقدًا وعرضًا تحليليًا الكامل يوسف في السياسة الاسبوعية ، عدد ١٩١ : ١١ و ١٨

الفتاة : ترجمتها بتصرف عن الانكليزية الآنسة مريم زكا ومثلتها لاول مرة تلميذات المدرسة السورية الاهلية (داري كساب) في بيروت (١٩٢٢) ونشرتها مجلة المورد الصافي ٨ : ٢٢١

فتاة الارز : تأليف ميشال يوسف الحايك — القاهرة ، المطبعة التجارية ١٩١٢ ، ص ٩٥ .

الفتاة الافرنسية : ذات ٥ فصول . وضعها الخوري بطرس البستاني ، ونشرتها مجلة رسالة السلام ، ١٥ (١٩٣٨) : ١٨٦ و ٢٣٠ و ٢٧٧

فتاة البادية : وضعها احد ادباء السودان ، ومثلتها الجمعية الادبية القومية للمسرح السوداني .

الفتاة الحرساء : مسرحية تأليف الخوري ميخائيل دلال الحلبي ، مثلت على مسرح مدرسة الشرفة حيث توجد اصولها الخطية .

فتاة الدستور : في ٥ فصول . وضعها نجيب كنعان (لبنان) — طبعت في القاهرة ١٩٠٨ في ١٠٥ ص . وبذيلها قصيدة الدستور لسعيد شقير .

الفتاة الظلوم : ذات ٥ فصول . تأليف نعمان متري . ص ٥٧

الفتاة العراقية : وضعها الاستاذ محمد نديم ، ذات ٥ فصول — بغداد ، مطبعة الفلاح ، ١٩٢٥ ، ص ٢٦

فتاة الغار : لبنانية مطبوعة .

الفتاة المسترجلة : مثلتها الفرقة القومية المصرية .

فتاة الناصرة : في ٤ فصول . تأليف الخوري بولس البستاني ، طبعت في المطبعة الكاثوليكية ببيروت ، ١٩٢٥ في ٧٤ ص — نقدها في المشرق ٢٣ (١٩٢٥) : ٥٥٥

فتاة الوطن : المؤلف : م. عادل ، الكاتب التركي ، المترجم محمد علي حامد حشيشو — صيدا ، مطبعة العرفان ، ١٣٣٤ ، ص ١٠١

فتح الاندلس : وضعها فؤاد باشا الخطيب شعرًا ، قدم لها خليل مطران ، دمشق ، مطبعة ابن زيدون ، ١٩٣١ في ٩٤ صفحة .

فتنة : في فصل واحد وضعها خليل هنداوي ونشرها في كتابه سارق النار ص ٢٩ — ٤٠

الفتية الثلاثة : وضعها الخوراسقف بطرس حبيقة في فصل واحد — بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٣٦ ، ص ٢٨

فجر جديد : في ٣ فصول وضعها عمر جميعي — القاهرة ، ١٩٤٧

فجر الفصح : وضعها الخوري انطون هبي في فصلين — حريصا مطبعة القديس بولس ، ١٩٤٤ ، ص ٢١

فجر النصر في كستروف كولب : تأليف كميل مارون — ١٨٩٢

الفداء : تأليف مرتينوس الياس طرزاوي — ١٩٣١

فران البندقية : ذات ٥ فصول عربها عن الايطالية الياس فياض ، طبعت في بيروت في مطبعة المكتبة الاهلية ، ١٩١١ ، ص ٦١ — نقدها في المشرق ١٤ : ٤٧٤

فرسنجتوريكس : نقلها إلى العربية وديع شديد عقل ، ١٩٠٧

الفرعون الموعود : في ٦ مناظر تأليف علي احمد باكثير — مصر لجنة النشر للجامعيين ، ص ٩٥ قطع كبير .

الفريسة : وضعها ابراهيم المصري ومثلت في مصر القاهرة لاول مرة في ٢ ك٢ سنة ١٩٢٨

فظائع جال في سوريا ولبنان : ذات ٤ فصول . تأليف عبده سليمان العظم ، نشرتها مطبعة السلام في بيروت ، ١٩٣٨ ، في ٧٩ ص .

فقراء باريس : غنائية — مصر

الفلاح والانتيكا : مسرحية مطبوعة — لبنان

فوق الانتقام : وضعها فريد مدور ، بيروت ١٩٣١ ، في ١٠٩ ص .

في بيوت الناس : اقتبسها سليم نجيب من احدى روايات ساشا غتري — القاهرة ، مطبعة التوكيل ، ١٩٢٤ ، ص ١١٤

في سبيل التاج : تأليف فرنسوا كوبيه ، ترجمها حليم دموس ، المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٢٥ في ٧٩ ص

— نقلها ايضاً احمد الرامي : مثلت على مسرح رعمسيس في مصر

في سبيل الثأر : شعرية ذات ٥ فصول تأليف متري نعمان ، حريصا ، مطبعة الآباء البولسيين ، ١٩٣٧ ، ص ٢٠٠

في سبيل الخلافة : وضعها ابراهيم حسن جعفر وعبد الغفار الجنيهي — مصر ، ١٩٣٩

في سبيل الشرف : تأليف عبد الله اسحق .

في سبيل الشرف : ذات ٥ فصول بقلم جميل البحري ، حيفا ١٩٢٦ في ٧٦ ص .

في سبيل الوطن : تأليف ناصيف المجدلاني — بيروت ١٩٣٢

في ظل راية الارز : تأليف يعقوب صقير ١٩١٨

في ظلمات القصر الشمالي : نقلها الى العربية المطران انطونيوس فرج ، ١٩١٣ نقدها في المشرق ١٧ : ١٥٦

في وجوب الطاعة للوالدين : تأليف اوغسطين سالم — ١٩٢٦

فيدورا : مثلتها فرقة رعمسيس .

فيروز شاه : مهزلة غنائية استلهم موضوعها عبد الحليم دلاور المصري من اوبرت فرنسية معروفة باسم *Fatmitza* ، مثلها نجيب الريحاني مراراً مع فرقته

الفيل والاسلام : الحلقة الثانية من سلسلة « مسرحيات المدارس » التي يضعها محمد يوسف المحجوب — القاهرة ، مطبعة مصر ومكتبتها ، ص ١٥

فيلبس اوكست في معركة بوفين : المؤلف : الاب لونفيه ، المترجم : الخوري الياس الحايك — بيروت ١٩١٤

الفيلسوف والغيور : هزلية ضحكة — بيروت ، المطبعة الوطنية ، ١٩٢٣ ص ١٦

ق

القائد الأكرم : تأليف حبيب فلتاوس - مصر .

قاتل اخيه : في ٣ فصول . ترجمها عن الفرنسية جميل البحري — حيفا ١٩١٩ في ٥٥ ص

القانون : لاحد الادباء اللبنانيين — مطبوعة .

قبضاي : مهزلة ذات فصل واحد ، بقلم يوسف غصوب ، نشرها تباعاً في المشرق ٢٩ (١٩٣١) : ٦٨٩ و ٧٨٠ ثم على حدة .

قبلة في الظلام : وضعها عزيز عيد — مصر

القبلة القاتلة : ذات ٤ فصول تأليف : لوبك لجور بادك ، ترجمة : فتوح نشاطي مثلتها فرقة رعمسيس برئاسة يوسف وهبي .

قتال الملك زهير والملك كسرى : وضعها جرجي الحجار اللبناني ونشرت في ديوانه المطبوع سنة ١٩٢٢ ص ٥٤ — ٧٢ في مطبعة الانتصار — بيروت

القدر : ذات ٣ فصول تحتوي ٧٧ صفحة وضعها الاب برتلماوس صليبا ق. م.

قدموس : مأساة في ثلاثة فصول . وضعها سعيد عقل ، بيروت ، ١٩٤١

قدوة الحسان في ابنة رولان : ذات ٤ فصول . تأليف الفيكونت هنري دي بورنيه . ترجمها الخوري بطرس البستاني ، مطبعة صيدا — بيروت ١٩١٢ في ١٤٠ ص . نقدها في المشرق ١٦ : ٧٣٤

القديسة بربارة الشهيدة : تأليف اديب لحود — عمشيت ١٩١٠ ، مثلت مراراً .

القديسة جان درك : ذات ٥ فصول بقلم الخوراسقف يوسف الحايك — الطبعة الثانية ، بيت شباب ، مطبعة جريدة العلم ، ١٩٣٠ في ٨٥ ص.

رواية القديسين بولا وانطونيوس : تأليف الاب مبارك تابت الديراني اللبناني .

قرة العيون او على الباغي تدور الدوائر : تأليف شمعون مويال ، بيروت — المطبعة اللبنانية ، ١٨٨٥ ، ص ٥٦

القرية الحمراء : غنائية قام بتمثيلها جوق آل عكاشة — مصر .

قسوة الشرائع : غنائية مثلتها فرقة سلامة حجازي وميليا ديان .

قصة الفصح : المؤلف : انا ر . كندي ، المترجم : منح الراسي (عن الانكليزية)

— نشرتها المطبعة الاميركية ، بيروت في ٢٤ ص .

القضاء والقدر : غنائية من قصص الف ليلة وليلة . المؤلف : ادوار كنوبلتز الانكليزي . ترجمها الى الفرنسية : جول لاتر . وعربها خليل مطران .

قضي الامر : لسعيد تقي الدين .

القضية المشهورة : فودفيل ، مثلت مرارًا في مصر .

قلب الاسد : مصر ، مطبعة المقتطف ، ١٨٨٧ .

قلب المرأة : وضعها جورج ابيض ، مثلتها جوقته بشاركة الشيخ سلامة حجازي

قيس : وضعها احمد شوقي بك ، مطبعة مصر ، سنة ١٩٣١ — نقدها الاب جبرائيل اني سعدى في الرسالة المخلصية ٩ : ١٢٥ و ١٨٩ و ٢٧٨ ، وعباس محمود العقاد : قيس في الميزان .

القميص الملون : اطلب : يوسف الصديق واخوته .

قنابل : ملهاة في ٣ فصول ، تأليف محمود تيمور — القاهرة ، اخرجتها لجنة النشر للجامعيين ، ١٩٤٣ ، في ١٩٠ ص مع مقدمة لزكي طليمات — نقدها حسن كامل الصيرفي في المقتطف ١٠٤ : ١٩٧ .

القناع المزق : غنائية : تأليف بيير وولف — ترجمها : اسماعيل وهبي — راجع فيها « حياتنا التمثيلية » ٢ : ٢٩٤ .

قيس بن عاصم : ذات ٣ فصول . وضعها الشيخ ادوار الدحداح — بيروت ، مطبعة صيقلي ، ١٩٤٥ ، ص ٨٨ .

قيس ولبنى : لعزيز اباظة .

القيصران : ذات ٥ فصول ، تأليف الاب لونغنيه — نقلها الى العربية شعرًا الاب يوحنا قاخوري البولسي — حريصا ١٩٤٧

ك

الكابورال سيمون : ذات ٥ فصول . بقلم عزيز عيد ، تقع في ٩٨ ص — دمشق ، مطبعة ابن زيدون ، ١٩٣٩ .

كاترين : تأليف : صفاء مصطفى – بيروت ، مطبعة الكشاف في ١٧١ ص ، ١٩٣٩ .

كارمن : غنائية نقلها الى العربية فرح انطون ومثلتها جوقة السيدة منيرة المهدية – مصر القاهرة بدار الكورسال .

كازيوليتس (كوريا لانس) : المؤلف : شكسبير المترجم : محمد السباعي مصر ، مكتبة التأليف ص ٢٠٤ .

كانديد *Candide* : ذات ٣ فصول ، المؤلف : برنارد شو B. Shaw .

الكاهن : المؤلف : الشاعر الروائي : بوبه – المترجم : الخوري هارون غصن . نشرها تباعاً في مجلة المشرق ٢٤ (١٩٢١) : ٢٠١ و ٢٧٩ و ٣٥١ و ٤١٧ – ثم نشرت على حدة في ٥٣ ص.

كهن امون : مثلت مراراً في مصر .

الكذوب : مثلت مرارا – مصر ١٩١٣ .

كذبه يا اني : لفريد مدور – بيروت ، مطبعة الدائرة الاستعدادية – الجامعة الاميركية ، ص ٧٢ .

كرسي الاعتراف : ليوسف وهبي – مثلت مراراً في مصر ولبنان .

كرمنيا : غنائية عربها عن الفرنسية فرح انطون ومثلتها جوقة السيدة منيرة المهدية .

كريتون المبدع *The admirable Crichton* : تأليف : جيمس م. باري J. M. Bary ، المترجم : يوسف اسكندر جرجي ، كوميديا فلسفية ذات ٤ فصول – القاهرة، مكتبة الهلال ، ص ١٣٨ .

كريستوف كولمب : ذات ٥ فصول ، ترجمها عن الايطالية : الخوري يواكيم اسطفان – بيروت ، مطبعة جدعون ، ١٩٠٩ ، ص ١٠٨ .

كربة اللبنانية في حوران : ذات فصلين ، تأليف القس مبارك ثابت الديراني. بيروت ١٩٢٥ ، مطبعة الاجتهاد ، ص ٣٣ .

كسرى والعرب : وضعها حبيب شماس ، مثلت على مسرح المدرسة البطريركية في بيروت .

كلام في سرك : مثلث مرارًا في مصر .

كليوباترة في خان الخليلي : لمحمود تيمور — القاهرة ١٩٤٦ :

كما تهواه : تأليف : شكسبير ، المترجم : محمود عوض ابراهيم — مصر مطبعة المعارف .

كنوز الملك سليمان : المؤلف : ريدار هجارد ، ترجمها يوسف اسكندر جرجس — القاهرة ، مكتبة الهلال ، ١٩٣٢ ، ص ٣٩٩ .

كوثر : دراما عصرية في اربعة فصول مقتبسة عن رواية : اللص *Le Voleur* تأليف هنري برنشتين ، بقلم عباس علام ، مثلتها شركة ترقية التمثيل العربي لاول مرة بتياترو حديقة الازبكية ، ١٩٢٦ .

الكونت والمركيز والدوك المحتالين والعميان الشحاذين : هزلية ذات فصلين ، وضعها الخوراسقف يوسف رباني ، حريصا — مطبعة القديس بولس ، ص ٣٢ (بالعامية) .

ل

لا اتزوج ولو شنقوني : هزلية ذات فصل واحد في ١٨ ص — مطبعة العلم بيت شباب .

لا توسكا : غنائية ، مصر .

لاجل الشرف : غنائية قامت بتمثيلها جوقة آل عكاشة ، مصر .

لا دام او كاميليا : تأليف اسكندر دوماس ، المترجم : عبد القادر المغربي واميل شبطيني — مصر ١٩٠٥ ، مثلها سلامة حجازي في مصر ١٩٠٨

ثم ترجمت بقلم طراد

ثم بقلم الدكتور ابوشادي — اطلب غادة الكاميليا .

لباب الغرام او الملك متريدات : مثلث مرارًا في مصر .

لبنان على المسرح : ذات ٥ فصول . تأليف اديب لحود والخوري منصور عبيد ، نيويورك ١٩١٩ ص ٧٧ — راجع فيها « المشرق » ١٨ : ١٠٣٦

اللبنانية : وضعها الخوري يوسف الحداد – ريو دي جانيرو ، مطبعة الصواب ، ١٩٣٢ ص ٨٤ .

لبيك فلسطين : وضعها زهير الشرا – دمشق ، ١٩٤٧ .

اللعن الكئيب : في فصل واحد ، وضعها خليل هنداوي ونشرها في مجموعة « سارق النار » ص ٩٣ - ١٠٨ .

اللص الشريف : مسرحية مصرية .

اللصوص : تأليف شيلر ، المعرب : عبده حسن الزيات ، مع مقدمة للدكتور منصور فهمي – مصر ١٩٣٧ ، مطبعة وادي الملوك ، ص ٣٨٠

اصوص الغاب او شرل واملي : ذات ٥ فصول ، المترجم : عساف الكفوري ص ١٢٢ .

لطيف وخوشابا : ترجمها الى العربية نعوم فتح الله سحار ، وطبعت في الموصل ، سنة ١٨٩٣ .

اللغز : تأليف بول هرفيه – المترجم : محمد تيمور .

اللقاء بعد الشقاء : ألفتها عائشة هانم عصمت – مصر ١٨٩٩ .

لقاء قورش : خطبة مثلت في اكليريكية الشرفة حيث توجد اصولها .

لقيط الصحراء : مسرحية ذات خمسة فصول .

لن تعودي يا فرنسا : انسيب الرفاعي ، دمشق ١٩٤٧ .

لهجة الابطال : وضعها الدكتور سليمان غزالة في ٣ فصول – مطبعة الشركة العثمانية ، ١٢٢٩ ص ٧٧ – راجع فيها المشرق ١٥ : ٢٣٣ .

لوكندة الانس : مثلتها فرقة رعمسيس – مصر .

لولا المحامي : تأليف سعيد تقي الدين مع مقدمة لخليل مطران – بيروت ١٩٢٤ ص ١١٢ – نقدها في الحدر ٦ : ٥٦٠ .

لويس دي غونزاغا : وضعها يوسف شبلي ابي سليمان – راجع فيها المشرق ٦ (١٩٠٣) : ٦٧١ .

لويس الحادي عشر : ٤ فصول – تأليف : كازمير ده لا ڤيني . ترجمها الى العربية : الياس فياض – المخرج : فتوح نشاطي – مؤلف

موسيقى الرواية : عبد الحليم علي ، مصر ١٩١٢ في ١٢٠ ص.
لويس السابع عشر : ذات ٣ فصول ، وضعها نصرت سعيد ، حلب ١٩٣٣ .
الليلة الثانية عشرة : تأليف : شكسبير — المترجم : محمود عوض ابراهيم — القاهرة ، مطبعة المعارف ، ١٩١٥ .
ليلة الدخلة : بحرية من نوع الفودفيل
ليلة ضائعة : ذات فصل واحد وضعها شارل كايرك ، ترجمها الى العربية فتوح نشاطي ، نشرتها مجلة الرسالة في عددها ٣٧
ليلة الفصح : رمزية ، الجمعية الاسقفية بشارع الفلكي في القاهرة .
ليلى : بقلم عبد الله حشيمة
ليلى ابنة الملك النعمان والاكاسرة : ذات ٥ فصول تأليف الخوراسقف يوسف الحايك ، مطبعة العلم ، بيت شباب سنة ١٩٣٢ ، ص ٩٠
ليلى وسمير : وضعها جميل صدقي الزهاوي ، مجلة لغة العرب ٥ : ٥٨٧ — ٦٠٨

م

ما بعد الدوارة الا الحسارة : ذات ٣ فصول و ٣ مناظر . تأليف محمد منجي خيرالله — مصر ، مطبعة الصدق ، ١٣٢٢ ، ص ٥٦
ماجدولين : تأليف الفونس كار ، ترجمها للتمثيل في ٥ فصول الياس ابو شبكة في ٦٧ ص — بيروت ١٩٢٥ — مطبعة فوزما .
مار اغناطيوس النورائي : وضعها الخوري اسحق ارملة ، ومثلت في دير مار افرام بناردين ، سنة ١٩١٣ .
مار افرام : انشأها جورج صقال ، ومثلت في دير الشرفة سنة ١٩٠٠ (لبنان)
ماري تيودور : غنائية ، وضعها اسكندر كرباج ومثلتها ميليا ديان .
ماريا : درامة اسبانية اخرجها فتوح نشاطي للفرقة القومية في مصر
مأساة ايوب الصديق : تأليف الياس لطف الله ، لبنان ١٨٨٩
مأساة التقليد : تأليف عبد الرحمن عثمان علي ، مطبعة التقدم بالاسكندية .
مأساة الصنوبر : ذات ٣ فصول . وضعها انيس دنية ، مطبعة الامة في بيروت ، عام ١٩٣٢ ، في ٣٥ ص .

المأساة الكبرى : في ٥ فصول للدكتور شبلي الشميل عام ١٩١٥ ، نشر بعض اقسامها في البصير ، ١٥ ص . نقلها الى الفرنسية شمرًا ابن اخيه ماريوس شميل — راجع فيها المقتطف ٤ (١٩١٦) : ١٩٤

ماكبث *Macbeth* . تأليف شكسبير . تولى ترجمتها كثيرون ، منهم : محمد عزت ، شمرًا ، طبعها ولكن لم تمثل . حافظ ابراهيم ، نثرًا ، لم تطبع ولم تمثل . خليل مطران ، لفرقة ابيض . محمود احمد العقاد ، واحمد عثمان — المطبعة العربية — مصر . محمد السباعي . واخيرًا عبد الفتاح الدرنجاوي — مصر ١٩٣٣ .

المال والبنون : في ٤ فصول و٦ مناظر . تأليف فهيم حشي ، مثلتها فرقة رعمسيس . نقدها في الرسالة عدد ٣٠٥

المأمون : تأليف عبد الرحمن رشدي — مصر .

مانون ليسكو : تأليف بريفو ، المترجم حبيب جاماتي — مثلتها لاول مرة فرقة السيدة فاطمة رشدي ، راجع فيها السياسة الاسبوعية عدد ٨٥

— ترجمها ايضاً عمر عبد العزيز بعنوان : مانون لسكو او قلب في عاصفة .

— ترجمها ايضاً الياس ابو شبكة — بيروت ، ١٩٣٦ .

المائدة الخضراء : مثلتها فرقة رعمسيس ليوسف وهبي .

المتحري الصغير في كشف السرقات : تأليف انور فوق العادة — دمشق — مطبعة زيدون ، ص ٣١ .

المثال الثالث او جاليتا وبيجماليون : في فصل واحد وضعها خليل هنداوي — نشرها في المقتطف ١٠١ (١٩٤٢) : ٢٢٩ - ٢٤٠

المثري النبيل *Le Bourgeois Gentilhomme* : هزلية تأليف موليير . عربها عن الفرنسية الياس ابو شبكة — بيروت مكتبة صادر ، ١٩٣٢ ص ٧٨ — نقدها في المشرق ٣٠ (١٩٣٢) : ٧١٩

المثل الاريحي في استشهاد الفتى المسيحي : تأليف الخوري ميخائيل الوف — بيروت ١٨٨٦ ، المطبعة الكاثوليكية .

مثلنا الاعلى : وضعها عبد المجيد عباس — بغداد — مطبعة دار الحكومة ص ١٣٥ — نقدها في العرفان ٢٥ : ٢٠٢ .

مجاعة لبنان والمطران انطون عريضة البشراوي : ذات ٥ فصول وضعها القس جبرائيل السرعلي — لبنان — طرابلس ١٩٢١

مجدولين او الخليلة : المؤلف : هنري ليستاركر ، المترجم : محمود خيرت — القاهرة ، ١٩٢٦

المجرم البري : غنائية مثلتها فرقة سلامة حجازي وميليا ديان — مصر .

مجموع الحماسة : ذات ٤ فصول. تأليف ميشال متري كفوري ووليم نجيب صعب — بيروت ١٩٢٥ ص ٢٣ .

المجنون : اخرجها يوسف وهبي مع فرقة رمسيس — مصر ١٩٢٣ .

مجنون ليلى : بقلم احمد شوقي في ٥ فصول ، ١٥١ ص . مطبعة المعارف بالقاهرة ، مصر ١٩٣١ ، — علق عليها ادوار حنين في المشرق ٣٣ (١٩٣٥) : ٧٠

رواية مجنون : وضعها واخرجها ميشال هارون — بيروت ١٩٤٤

محاسن الصدف : تأليف محمود واصف

محاورة بين الكريم والبخيل : مطبوعة .

محكمة العدل الدولية : تأليف برنارد شو بعنوان : جنيف — نقلها الى العربية : محمد فتحي ومصطفى طه حبيب ، ١٢٥ ص — مصر ١٩٤٥ ، مع صور ورسوم .

محمد علي الكبير : مأخوذة عن قصة ابنة الملوك للاستاذ محمد فريد ابي حديد — اشترك في وضعها في القالب التمثيلي يوسف تادرس — راجع فيها الرسالة عدد ٣٢٦ و ٣٢٧ .

محمد علي باشا : مثلت مرارًا في مصر .

المخبأ رقم ١٣ : مسلاة في ٣ فصول — وضعها محمود تيمور — القاهرة ١٩٤١ نقدها في المقتطف ١٠٠ (١٩٤٢) : ١٠٦ .

مدام سان جين : غنائية — مثلت بمصر مرارًا .

مدرسة الازواج *L'École des Maris* : تمثيلية تأليف موليير Molière ، المترجم : عثمان جلال — نشرت في مجموعته الاربع روايات من نخب التياترات ، مصر ١٩٠٧ — نقلها بالزجل ومثلها جورج ابيض في تياترو عباس .

مدرسة الفلاسفة : ذات فصل واحد للكاتب الفرنسي : ساشا غيتري — عربها : فلك ترزي ونشرتها في الحديث ١٠ (١٩٣٦) : ٦٢١ — ٦٣٧ .

مدرسة النساء *L'École des femmes* : تأليف : موليير Molière المترجم : عثمان جلال — نشرة ضمن المجموعة الاربع روايات من نخب التياترات — مصر ١٩٠٧ .

مدرسة النميمة : عربها : عبد الرحمن رشدي ومثلت في مصر .

مدموازيل جوزيت امرأتي : هزلية مثلت بمصر .

مذود بيت لحم : انشأها القس جبرائيل احردقنه السرياني ، ومثلت في مدرسة ماردين ، سنة ١٨٩٤ .

المراحل : تأليف : ارنولد بينيت وادوار كنوبلوك — المترجم : يوسف اسكندر جرجس ، القاهرة ، مكتبة الهلال ، ص١٧٢ .

مرآة القرون المتوسطة : في ٥ فصول — وضعها الياس انطون الحويك — المطبعة اللبنانية ، جسر نهر بيروت ، ص ٧٧ .

المرأة الكذابة : كوميديا عصرية مصرية في ٣ فصول ، تأليف عباس علام مقتبسة عن رواية *Baby Mine* التي وضعتها الكاتبة الانكليزية Merg. Mays ، مثلتها فرقة السيدة فكتوريا موسى بتياترو فكتوريا لاول مرة ، سنة ١٩٢٧ .

المرأة المجهولة : مثلت بمصر مرارًا .

المرأة والوفاء : تأليف الشيخ خليل اليازجي سنة ١٨٧٦ ، طبعة سنة ١٨٨٤ ، راجع فيها الرسالة ١٠ (١٩٤٢) : ٨٦٩ .

ميروبا *Mérope* : المؤلف : ڤولتير — المترجم : امين الخوري .

مريض الوهم *Le Malade imaginaire* : هزلية ذات ٣ فصول ، تأليف : موليير Molière ، المترجم : الياس ابو شبكة — بيروت ، مكتبة صادر ، في ٨٣ ص .

مريم المجدلية : ٤ فصول وضعها : امين ظاهر خيرالله سنة ١٩١٣ ونشرها تباعاً في مجلة النعمة ٤ : ٧٧٣ و ٨١٧ و ٨٩٤ ومجلد ٥ : ٦٥ و ١٤٥ .

مريم المجدلية : تأليف : موريس ميترلنك M. Maeterlinck المترجم : المطران انطونيوس بشير — مصر ١٩٣٢

— ترجمها ايضاً يوسف اسكندر جرجس لحساب مكتبة الهلال.

مزين : هزلية مثلت مراراً في مصر .

مسارح الاحداث : مثلت مراراً في مصر .

المستقبل : في ٤ فصول مع مقدمة تأليف زكريا حمودة اسماعيل — دمنهور ، مطبعة الشعب ، ١٩٣٣ ، ص١٤٤ — نقدها في مجلة ابولو ٢ عدد فبراير ١٩٣٤ ص ٥٢١ .

مسرحيات توفيق الحكيم : مجموعة من المسرحيات الصغيرة ، وضعها توفيق الحكيم في مجلدين ، ظهر الاول منها في مطبعة الاعتماد ، ١٩٣٧ تضمن المسرحيات التالية الصفحة : ١٠-١٢٣ سر المنتحرة — ص ١٢٧—١٣٤ نهر الجنون — ص ١٤٨— ٢٧ رصاصة في القلب — ص ٢٧٤—٢٩٨ جنسنا اللطيف . اما المجلد الثاني فقد ظهر في القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٧ ، وهو يتضمن المسرحيات التالية : ص ٥—١١٠ الخروج من الجنة او الملهمة — ص ١١٥- ١٢٦ امام شباك التذاكر — ص ١٣٣—١٩٢ الزمار — ص ١٩٥—٢١٢ حياة تحطمت .

مسرحيات يوربيدز : مجموعة من اربع مسرحيات لابي المسرح اليوناني الشاعر يوربيدز ، نقلها الى العربية ، عن الانكليزية محمود محمود ، ونشرتها له لجنة النشر للجامعيين — القاهرة ، مكتبة مصر

ومطبعتها ، ١٩٠٦ ، ص ٢٢٢ ، مع مقدمة عن المؤلف ونشأة الادب المسرحي اليوناني — واليك المسرحيات المترجمة : ميديا ص ١٦ ٦٦ — هيبوليتس ص ٦٨–١١٨ — افجينيا في اولس ص ١٢–١٧٥ — افجينيا في توريس ص ١٧٥— ٢٢٢ .

مسعود : شهرية مصورة في ٤ فصول مع مقدمة وتلخيص ، تأليف محمود ابو النجاة ، مصر — مطبعة دمنهور الصناعية ، ١٩٣٣ ص ١٣٠ نقدها صالح جودة في ابولو ٢ عدد نوفمبر : (١٩٣٣) ص ٢٤٧ و ٢٨٥ .

مصر الجديدة ومصر القديمة : تأليف فرح انطون - مصر ، ١٩١٣ — مثلث مزارًا .

مصر الخالدة : وضعها فتوح نشاطي .

مصرع الباغي وخيم : ذات ٣ فصول ، تأليف : نصرت بطرس سعيد ، حلب المطبعة المارونية ، ١٩٢٨ ، ص ٧٠ .

مصرع الحسين : وضعها عدنان مردم بك ، ونشرتها له مجلة العرفان ، ٢٦ : ٤٤٢ .

مصرع الزباء : غنائية مثلها جرق آل عكاشة — مصر .

مصرع الظالمين : في ٦ فصول ، تأليف : توفيق الرافعي ، ١٩١٠ ص ١٠٧ .

مصرع قيصر روسيا وعائلته : ذات ٥ فصول . وضعتها الكاتبة امما الطوبى ، عكا ، المطبعة الوطنية ، ١٩٢٥ ص ٦٨ .

مصرع كليب وائل : محيي الدين الحاج عيسى — القدس ، ١٩٤٦ .

مصرع كليوباترا : ذات ٤ فصول ، تأليف : احمد شوقي — مصر ، مطبعة المعارف ، ١٩٢٩ ص ١٥١ — راجع فيها نقدًا لفؤاد افرام البستاني ، في المشرق ٢٨ (١٩٣٠) : ١٥٧ — نقدًا آخر لسعيد ابراهيم في مجلة الحديث ٣ (١٩٢٩) : ٦٥٤ — نقدًا آخر لمحمد نور في « السياسة الاسبوعية » عدد ١٨٧ : ١٧ — نقدًا وتلخيصاً لادوار حنين في المشرق ٣٣ (١٩٣٥) : ٦١ .

مضحك الملك : مسرحية لفكتور هيجو ، مثلها جورج ابيض — مصر . ترجمها : الياس فياض .

مطامع الملوك : ذات سبعة فصول ، مثلت مرارًا ولم تطبع

مظالم الآباء : ذات ٥ فصول . وضعها خليل كامل — مصر .

مظالم الحياة : ذات ٣ فصول — طبعت في بيروت ١٩٣٧ ، في ٨٨ ص .

معاوية ومروان بن الحكم : بقلم عيسى ميخائيل سابا في ٣ فصول — بيروت ١٩٣٢

المعتمد بن عباد : تأليف ابراهيم رمزي — مصر ١٨٩١

المعز لدين الله : لعبد الرحمن الساعاتي ، مثلت على مسرح دار الاوبرا الملكية

معهد الفضائح والوشايات : هزلية ذات ٥ فصول كبيرة ، المؤلف رينشارد شربدان . المترجم محمد منير عبد الحميد — مصر ، ١٩٢٣

مغاور الجن : ذات خمسة فصول تأليف هارون عبود . اخرجتها مطابع قوزما في بيروت ، ١٩٢٦ في ٩٩ص — نقدها في لغة العرب ٤ : ٤٢٨

المغفرة او الغرام المزيف : تأليف الدكتور منير طلعت ، الاسكندرية مطبعة السلام ، في ٥٥ ص .

مفرق الطريق : ذات فصل واحد ، وضعها الدكتور بشر فارس وطبعها في مطبعة المقتطف في ٣٧ ص — مصر ١٩٣٨— نقدها الاب الكرملي في المقتطف ٩٣ : ٤٦٧ ، الصيرفي في المقتطف ٩٣ : ٤٧٧

مقتل ديوسقوروس لابنته القديسة بربارة : في ٥ فصول . الفها اديب لحود وطبعها — مثلت اولًا على مسرح المدرسة الوطنية بعمشيت ، سنة ١٩١٠ و ١٩٣٤

مقتل هيرودوس لولديه اسكندر وارسطبولس : وضعها الشيخ عبد الله البستاني ، سنة ١٨٨٩

مكايد القصر : لنجيب حبيقة .

مكر الرجال : ذات ٤ فصول ، الفها بالفرنسية قدور بن غبريط ، ترجمها ميشال كرم ، طبعت في المطبعة الرشيدية — كفرشيما — لبنان ، ١٩٢٧ ، ص ٧٥

الملك والملكة : احدى مسرحيات طاغور ، نشرت في مجلة العصور ، مجلد ٧ (ابريل ١٩١٨) : ٨١١ — ٨٣٨

الملك اوديب : مسرحية ذات ٣ فصول ، تأليف اندريه جيد ، المعرب : الشيخ حبيب اليازجي — بونس ايرس ، المطبعة التجارية ، ١٩٣٢ ص ٣٢ — نقدها في المشرق ٣٣ (١٩٣٥) : ١٥٩

ملك الحديد : مثلتها فرقة رعمسيس ليوسف وهبي . مصر .

الملك الظاهر : ذات خمسة فصول .

ملك فرس : نقلها عن الايطالية الخوري يوسف معلم باشي ومثلت على مسرح مدرسة الشرفة (لبنان) في ٢٣ شباط ١٨٨٤ ، حيث توجد اصولها الخطية .

الملك فر : وضعها احد ادباء السودان ، ومثلتها الجمعية الادبية القومية المسرح السوداني .

الملك هرقل او ارتفاع الصليب : فرنسية ترجمت ثلاثاً منها ترجمة الاب مارون غصن — مطبعة اليسوعية ، ١٩٢٦

وترجمها ايضاً يوسف صفير ، كما ترجمها الخوري يوسف الطنب .

الملك هنري الثامن : احدى مسرحيات وليم شكسبير ، نقلها الى العربية سامي الجريديني ، كما سبق فنقل له من قبل « هاملت » و « الملك لير » و « يوليوس قيصر » اخرجتها مطابع دار الهلال ، سنة ١٩٢٦ في ٧٦ ص

— ترجمها ايضاً عبد الرحمن فهمي — مصر ، ١٩٣٦ ص ١٨٤ مع مقدمة لمحمد فريد ابي حديد وترجمة موجزة لشكسبير .

ملك وشيطان : كوميدي عصرية مصرية في ٤ فصول تأليف عباس علام . مثلت لاول مرة بمعرفة جمعية من الهواة بتياترو الكديفيال في بورسعيد سنة ١٩١٥

ملكة سبا : عني بنقلها عن رواية سيمائية امين زيدان ، صاغها بقالب تمثيلي سليم مشلاني ومثلت لاول مرة تحت رعاية جمعية النهضة اللبنانية

في نيويورك في ١٩ اذار ١٩٢٧ ، مطبعة جريدة الهدى في ٦٤ ص .

الملكة سميراميس : لبعض اساتذة مدارس الروم الارثوذكس في حمص — بيروت ، مطبعة القديس جاورجيوس ١٨٥١ ص ٨٦ (ملحق بها رواية الابن الضال)

الملك شارلمان : لاديب اسحق ، ١٨٩٨

ملك المكامن : مسرحية — مصر .

رواية الملكين : مثناة ذات ٣ فصول ، تأليف : الخوري مارون غصن . وضع موسيقاها : وديع صبرا — بيروت ، المطبعة اليسوعية ، ١٩٣٧ في ٣٠ ص (موضوعة بالفرنسية والعربية) — راجع فيها المشرق ٢٥ (١٩٢٧) : ٤٧٤ ، ٢٦ : ٣٠٣ .

الممثل كين : مترجمة ، مثلتها جوقة جورج ابيض .

الممثلة فيوليت : ايطالية الاصل ، اخرجها : عبد الرحمن رشدي .

مملكة اورشليم : وضعها جورج ابيض ومثلتها جوقته بمشاركة سلامة حجازي .

مملكة الشياطين : ذات ٥ فصول ، تأليف توفيق الزافعي — مصر ١٩١٨ .

من الادب التمثيلي اليوناني : لسوفوكليس ، ٤ مسرحيات — ترجمها الدكتور طه حسين ونشرتها مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر في القاهرة عام ١٩٣٩ في ٣٢٠ ص وهي : الكترا *Electre* ص ٦—٨٥ — اياس *Ajax* ص ٩٠—١٦١ — انتيجونا *Antigone* ص ١٦٧—٢٣٠ اوديبوس ملكاً *Œdipe Roi* ص ٢٣٥—٣١٩ .

المنتقم *Un grand Bourgeois* : مسرحية تأليف : اميل فابر Emile Fabre ، المترجم : محمود كامل المحامي — مثلت على مسرح برنتانيا لاول مرة سنة ١٩٣١ .

من الظلمة الى النور : في فصلين ، المطبعة الاميركية في بيروت ، سنة ١٩٣١ في ٢٣ ص .

من غربل الناس نخلوه : احدى مسرحيات الاخ ساروفيم فكتور (رشيد

يوسف عطاالله اللبناني ، الاربع ، نشرت في كتاب « الذكرى الخالدة » ، بيروت ١٩٢٧ .

من منها ابنتي : هزلية ذات فصلين بقلم القس مبارك ثابت الديراني ، بيروت مطبعة الاتحاد ، ١٩٢٥ ص ٢٤ .

المنقذة : تأليف : محمود تيمور ، ظهرت مع مسرحيته الاخرى «حفلة شاي» القاهرة ، دار الكتب الاهلية ، ١٩٤٣ ص ٨٣ .

المهاجر اللبناني : وضعها المحامي حليم فارس ، بيروت ، ١٩٤٧

المهلهل : تأليف عبد المطلب الملقب بـ « بدوي الجبل » .

مورتيس : مثلت بمدرسة مار لويس في بلدة غزير (لبنان) .

الموؤودة : مصرية ، مثلت مرارًا .

الموت المدني : ايطالية الاصل مثلتها جوقة عبدالرحمن رشدي .

الموت في اجازة : معربة عن الانكليزية بعناية الدكتور ابراهيم ناجي ، مثلتها الفرقة القومية في دار الاوبرا الملكية — القاهرة .

الموظف : ذات ٤ فصول ، تأليف : عصام سامي الامين — بيروت ، مطبعة الانصاف ، ١٩٤٦ ، ص ٧٨ .

مولير مصر : تعريب يعقوب صنوع المشهور بابي نظارة ، طبعت في بيروت ، المطبعة الأدبية ، ١٩١٢ ص ٤٠ .

مي وهوراس : مصرية .

ميت يتكلم : وضعها عبدالله يوركي حلاق ، حلب ١٩٣٦ .

ميت يتكلم : مسرحية ، تاليف : كزافيه دي مونتيبان — المترجم : نقولا رزق الله — القاهرة ١٩٠٨ .

ميديا : احدى مسرحيات اوريبد ، نقلها الى العربية السيد محمود ونشرها في مجموعته « مسرحيات يوريديز » ص ١٦—٦٦ .

ميروب : ترجمها اسعد عواد .

ميسلون : وضعها الاستاذ بدر الدين حامد ، ذات ٥ فصول — نشرتها مطابع ابي الفداء في حماة ، ١٩٤٦ في ١٦٨ ص .

ميلاد ابي العلاء : وضعها محمد حاج حسين ونشرها في آخر كتابه « عبقرية الاديب العربي » – اللاذقية ١٩٤٣، ص ١٥١ .

ن

ناتان الحكيم : ذات ٥ فصول ، تأليف . الشاعر لالماني لسنغ ، ترجمها الى العربية : الياس نصر الله حداد – القدس ، مطبعة دار الايتام السورية ، ١٩٣٢ ، في ٨٤ ص .

النائب هالير : ترجمها عبد الرحمن رشدي ومثلت في مصر .

نابوليون : مثلت مرارًا في مصر .

ناتاشا : مثلتها فرقة رعمسيس برئاسة يوسف وهبي .

نادي القمار : غنائية مثلت مرارًا – مصر .

ناكر الجميل : مثلت مرارًا – مصر ، وهي مطبوعة .

نبوخذنصر ملك بابل : انشأها الخوري هرمز نورسو الكلداني الماردیني – ومثلت في مدرسة الكلدان ، ١٨٨٩ .

نتيجة الرسائل : شعرية مثلها الشيخ سلامة حجازي في جوقة ميليا ديان ، مصر

نتيجة الميسر او ذلة في الحياة : في ٦ فصول ، تأليف : سعيد الرافعي – مثلت في دار التمثيل العربي – مصر .

النجم الآفل : *La Dame aux Camélias* احدى ترجمات لا دام او كاميليا (اطلبها) كثيرًا ما مثلتها جوقة سلامة حجازي في مصر وسوريا.

نحو النور : وضعها الاديب ابراهيم المصري ، ونشرت ذيلًا لكتابه الفكر والعالم .

نخب العدو والثلج الابيض وقصص اخرى : كتاب يحتوي تمثيلية نخب العدو وعلى ١١ قصة لسعيد تقي الدين – والمسرحية في ٣ فصول – بيروت ، مطبعة الكشاف ، ١٩٤٧ .

النساء العالمات : *Les Femmes Savantes* مسرحية تأليف موليير Molière ، المترجم : عثمان جلال ، نقلها بالزجل ومثلها جورج ابيض في

تياترو عباس — مصر ، وقد نشرهـا ضمن مجموعته « الاربع روايات من نخب التياترات » (اطلبها) ١٣.٧

نشيد الانشاد : لتوفيق الحكيم — القاهرة ، مطبعة مصر ، ١٩٤٠ ، ص ٦١

النعمان ملك الحيرة في بني شيبان : ذات ٤ فصول وضعها الخوري يوحنا طنوس ، طبعت في مطبعة الاجتهاد ، بيروت ، ١٩٢٤

نعيم بن حازم : غنائية وضعها عبد الحليم دلاور ومثلتها جوقة آل عكاشة — مصر

النغم الرقيق : في فصل واحد تأليف الس جرستنبرغ Gerstenberge ، المترجمة : السيدة ميزفا عبيد — نشرتها مجلة المقتطف ٩١ (١٩٣٧) : ٥٧٧

نفثات العندليب في استرجاع عود الصليب : وضعها امين ظاهر خيرالله — بيروت ، مطبعة الاجتهاد ، ١٩٢٩ ، ص ٥٦ .

النفح العاطر في الفتى المهاجر : تأليف الخوري ميخائيل دلال الحايي . مثلت على مسرح مدرسة دير الشرفة حيث توجد اصولها الخطية .

نكبة البرامكة : تأليف ناصيف نيقولاوس — دمشق ١٩٢٢ .

نهر الجنون : فصل واحد لتوفيق الحكيم ، نشرت في مجموعته : « مسرحيات الحكيم » الجزء الاول : ١٢٧ — ١٣٤

نوت حتب او الفضيلة المضطهدة : القاهرة ، مطبعة المقتطف ، ١٩٣٩ ، في ٧٠ ص .

النور يضيء في الظلام : مثلت في مصر .

نيرون : الفها لطفي جمعة — مصر .

هـ

هات الكاوي يا سعيد : اطلب : الجهلاء المدعين بالعلم .

هاجر : وضعها انيس الخوري المقدسي . نشرها في « المورد الصافي » ١٤ : ٦٥—٨٥

الهادي : وضعها عبد الله عفيفي ، مصر ١٩٣٣ ، ص ١١٢

هاروت وماروت : لخليل هنداوي ، طبعت مع مجموعته القصصية المسرحية المعنونة : « سارق النار » وهي في ٣ فصول — نشرتها دار اليقظة ، دمشق .

هارون الرشيد : تأليف محمود واصف

هارون الرشيد مع انيس الجليس : ذات ٥ فصول طبعت في ٥٤ ص .

هارون الرشيد مع الامير غانم ابن ايوب وقوت القلوب : ذات ٥ فصول تأليف الشيخ احمد ابو خليل القباني الدمشقي — مصر ، المطبعة اليوسفية ، ص ٢٤

الهاوية : كوميدي درام ذات ٣ فصول وضعها محمد تيمور ، مثلتها فرقة شركة ترقية التمثيل العربي (عكاشة وشركاهم) لاول مرة بمسرح حديقة الازبكية ، ١٩٢١ ، ونشرت في كتابه « المسرح المصري » : ٣٢٧ — ٤٥٢ .

الهجرة الاولى : هي الحلقة الثالثة من « سلسلة مسرحيات اسلامية » التي يعمل على وضعها محمد يوسف المحجوب — القاهرة ، مكتبة مصر ، ص ٢٤ .

هرقل او انتصار الصليب : للاب مارون غصن — بيروت ١٩٢٦ .

هكذا انا : لفريد مدور — بيروت مطبعة الدائرة الاستعدادية في الجامعة الاميركية ، ص ٦٩

هكذا قضت الاحوال : تمثيلية ذات ٤ فصول وضعها عيسى ميخائيل سابا ، بيروت ١٩٣٤ ، مطبعة الوفاء ص ٤٠ — نقدها في المشرق ٣٥ : ١٥٩

همام او في عاصمة الاحقاف : بقلم علي احمد باكثير — القاهرة ، المطبعة السلفية ، ١٩٣٠ ، في ١٠٦ ص .

هملت : ذات خمسة فصول ، تأليف شكسبير ، المترجم نجيب الحداد — مطبعة الطرائف ، دمشق ص ٦٤

— ترجمها قبلاً طانيوس عبده ومثلت الرواية على هذه الترجمة

— ترجمها ايضاً خليل مطران الفرقة ابيض .

— ترجمها ايضاً سامي الجريديني كما ترجم من قبل « يوليوس قيصر » — مصر ، ١٩٢١
— ترجمها ايضاً محمد لطفي جمعة
— ترجمها ايضاً للطلبة محمد السباعي
وترجمها اخيراً عبد الفتاح الدرنجاوي .

الحناء بعد العناء : تأليف عبد الله فكري — مصر ، ١٢١٣

هند بنت الملك النعمان :

هنري الثامن : مسرحية ذات ٥ فصول تأليف شكسبير ، ترجمها يعقوب اسكندر ، وترجمها ايضاً محمود احمد العقاد وعثمان القرني معاً — المطبعة العربية ، مصر ١٩٢٥ ، ثم ترجمها : محمد عبد العزيز امين — بولس اسكندر — محمد عوض ابراهيم — القاهرة ، مطبعة المعارف .

هو النبي : وضعها محمد عبد الغني حسن . نشرت في الرسالة ١٩٤١

الهواري : ذات فصل واحد تأليف حسين رمزي — مصر .

هيوليتس : احدى مسرحيات يوريبيدز . نقلها الى العربية عن الانكليزية محمود محمود ، ونشرها في مجموعته « مسرحيات مدرسية » ، ص ٦٨ — ١١٨

و

واجب الاوطان فوق العاطفة : للاب اسطفان فرحات ، ١٩٣٠ .

وامعتصماه : مجموعة مسرحية بقلم عبد الوهاب ابو السعود ، نشرتها دار اليقظة العربية في ١٥٨ ص . اولها وامعتصماه ، اما الاخرى فهي : خولة بنت الازور — تزويج فيصل — الوطن ؛ دمشق ١٩٤٤ .

الوباء : مثلها جورج عبد الله النديم — مصر .

وثبة العرب او الامير فيصل بن الحسين : في ٤ فصول . وضعها خليل ابراهيم النبوت ، في ٦٥ ص — بونس ايرس ، المطبعة التجارية .

وجوب الطاعة للوالدين : ذات ٣ فصول، وضعها الاب اغسطين سالم، بيروت، مطبعة جدعون ، ١٩٢٦ ، ص ٤٠ .

وحدة الوادي : وضعها محمود محمود زيتون — القاهرة ، ١٩٤٧ .

الوحوش : وضعها محمود كامل المحامي ومثلت لاول مرة على مسرح رعمسيس عام ١٩٢٦ ، مصر .

وحي ابليس : ذات ٤ فصول تأليف : فؤاد سليم ، حماه — مطبعة الاصلاح ١٩٤٧ ص ١٣٢ .

وحيد او قلب فنان : وضعها حسين عفيف المحامي، ونشرتها مطبعة حجازي، ١٩٣٦ ، في ١٩١ ص في ٤ فصول.

وديعة الايمان : ذات ٣ فصول بقلم الخوري يوسف جرجس شبلي ابي سليمان : بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، ١٨٩٩ ، ص ٧٢ — نقدها في المشرق ٢ (١٨٩٩) : ٧١٦ .

وراء الستار : تأليف الروائي الانكليزي باركر ، نقلها الى العربية محمد اسعد لطفي — مثلتها على مسرح رعمسيس الفرقة المعروفة بهذا الاسم . راجع فيها تحليلاً في السياسة الاسبوعية ، عدد ١٩١ (١٩٢٩) : ٢٥ .

وشي اليراعة في علوم البلاغة والبراعة : وضعها الشيخ ابراهيم الاحدب ، سنة ١٨٦٩ ، في المطبعة العمومية في بيروت ، سنة ١٨٧٠ في ٥٥ ص

الوطن : وضعها ڤكتوريان ساردو ، عام ١٨٧٤ . نقلها الى العربية فؤاد سليم وحبيب جاماتي — مثلتها فرقة السيدة فاطمة رشدي لاول مرة — راجع في الرواية واصلها والترجمة والتمثيل نقداً لمحمد توفيق يونس في السياسة الاسبوعية ، عدد ٨٦ : ١١

الوطن : وضعها عبد الوهاب ابو السعود ونشرتها له دار اليقظة العربية — دمشق ١٩٤٤ ص ١٥٨

الوطن او سلسترة : في ٤ فصول وضعها الكاتب التركي محمد نامق بك .

عربها محيي الدين الخياط ، المطبعة الاهلية في بيروت ، ١٩٠٨ في ٣٢٦ ص . نقدها في المشرق ١٣ : ٣١٥

الوفاء : وضعتها الآنسة امينة خوري ونشرتها مجلة « المورد الصافي » سنة ٧ : ٢١٠

وفاء العذارى : مسرحية تأليف انجولت لوبران — ترجمت ومثلت في مصر .

الولدان الشريدان : مترجمة عن الفرنسية ، مثلتها فرقة رعمسيس ليوسف وهبي .

ولكم في القصاص حياة : بقلم انور عمرو عرفات ، خلقية اجتماعية استعان على وضعها بالقصة الموجودة ص ١٣٥٩ — ١٣٦٨ من مجلة شهرزاد تحت تحت عنوان حبيبي الثوري — بيروت ، مطبعة الوفاء ، ١٩٣٤ ص ٧٥ .

وليم تل : ذات ٤ فصول في ٧ مشاهد تأليف الشاعر الانكليزي شريدان ، ترجمها الى العربية المحامي انور شاؤل — بغداد ، مطبعة الجمعية الخيرية ، ١٩٣١ ، ص ٧٠ .

وليم تل : تأليف فريدريك شلر ، وضعها سنة ١٨٠٣ . ترجمها عباس ابو شوشة وحسين فرج زين الدين — مصر في ١٨٧ ص .

ويك عنتر : هزلية في ٣ فصول ، تأليف عادل كامل المحامي ، نشرتها مطبعة الحلبي ، القاهرة ، ١٩٤١ في ١٦٥ ص . مع مقدمة لابراهيم عبد القادر المازني . نقدها حسن الصيرفي « المقتطف » ج ٩٩ ص ٤١٩

ي

يا حسرتي عليك يا زعيتر : وضعها شكري الخوري — الجزء الاول ، سان باولو ، مطبعة ابو الهول ، ١٩١١ ص ١٨٣ راجع فيها المشرق ١٤ : ٨١٥ :

اليد السوداء : ثنائية مثلتها جوقة آل عكاشة — مصر .

اليهودي التائه : تأليف اوجين سو — نقلها الى العربية نجيب ابراهيم طراد ، ١٨٨٧ ، تقع في ١٦٨ ص . — راجع فيها كتاباً ليوسف غابوني

بعنوان : معرض الافكار او صدى رواية اليهودي التائه — بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، ١٩١٢ ، ص ٢٤٠ — المشرق ١٤ : ٦٣٧ .

يوسف بك كرم : تأليف ميشال يوسف ، — مطبوعة .

يوسف بن يعقوب او الفوز عند المقدرة : وضعها رزق الله خوام الحلبي — حلب ، ١٩٢٦ ، المطبعة المارونية .

يوسف الحسن : ذات فصلين تأليف الخوري نعمة الله نجاني — لبنان ، في ٣٢ ص .

يوسف الحسن بن يعقوب : الفها الخوري اسطفان الشمالي المرسل اللبناني ، مثلت في دير الشرفة ، عام ١٨٦٩ .

يوسف الصديق واخوته : رمزية صدرت عن الجمعية الاسقفية بشارع الفلكي في القاهرة .

يوسف في ارض كنعان : مثلت بمصر .

يوليوس قيصر : احدى روايات شكسبير ، نقلت الى العربية مرارًا عديدة ، منها على يد : ناشد لوقا — مصر ١٩١٩

— سامي الجريديني — مصر ١٩١٣

— خليل مطران ، لم تطبع

— لويس غنام ثابت وطبعت في مطبعة الاجتهاد ، ١٩٢٥ ص ٧٠

— نقدها في المشرق ٢٤ (١٩٢٦) : ٧٩٦

— محمود احمد العقاد واحمد عثمان التوبي — مصر المطبعة العربية

— محمد حمدي بك ومثلتها فرقة جورج ابيض على مسرح رعمسيس

— ترجمها ايضاً للمدارس محمود السباعي الذي ترجم لهذه الغاية ، معظم روايات شكسبير

— وترجمها ايضاً عبد الفتاح البرنجاوي للغرض نفسه .

وثائق تاريخية عن حلب

بقلم الاب فرديناند توتل اليسوعي

(تابع)

واقعة الشام في ٤ تموز غربي سنة ١٨٦٠ [1]

«لا بد تكون واجد عليّ يوم تخبيري اياك الحوادث ولا سيما انك طلبت مني ذلك مرارًا بالقلم وبواسطة قول آخرين في عفه من انك تعلم يا عزيزي انني بكل نفس ذايقة الموت حررت لك الجرنال الاول بحوادث الجبل ولما اتصل الامر الى الشام فصرت بالطبع كواحد منهم وزيد ان هـذه الحوادث اذهلت عقلي وجلبت الى راسي الماليخوليا وناهيك عطل الاوقات وما نحن به فالنهاية وجدت عـدم رضاك مني هو مصيبة كبرى ايضاً فتجالدت كل الجلد لكني اجرر لك ما يمكني واتقدم بالرجاء ايضاً ان تعذرني بعدم ترتيب الشرح ونظامه وتوقيمه بعباراته وارض مني وان يكن شي لا يرضيك .

اواه يا اسفي عليكي يا شام وعلى اهلك المسيحيين المنكود حظهم فانه

---

١) ليس في الوثائق التي ننشرها عن دفتر اخوية العزيان ذكر لحوادث السنين المشؤومة التي جرت في دمشق وفي زحلة ودير القمر . وليس لها اثر في تاريخ كامل الغزي ولا في تاريخ راغب الطباخ وكانت حلب في تلك السنة لم تزل تعالج نصفية باقي ما احدثته كارثة الخمسين التي ذكرناها سابقاً فخلد فيها الناس الى السكينة . على ان الخوف اعترى المسيحيين الحلبيين لما كان يبلغهم من الاخبار عن مراسليهم . وقد عثرنا في بيت من بيوت اعيان المسيحيين في حلب على رسالة مطولة وعنوانها : واقعة الشام في ٤ تموز غربي سنة ١٨٦٠ كتبت في ٢٥ صفحة من مجموعة مخطوطة طولها ١٣ سنتيمترًا وعرضها ١٠ وهي نسخة لاصل كتب على ما يظهر في بيروت . ولعل صاحبها من تراجمة القنصليات ويظهر من انشائه واملائه انه غير متضلع من العربية لكنه يسرد الاخبار عن ادراك وبصيرة . واذ ان الوثيقة موجودة في حلب ومن المعقول انها كتبت واوصلت الى حلب . وظلت مكتومة الى اليوم رأينا في نشرها فوائد اخصها الاعراب عن معرفة الجميل نحو المسلمين الصالحين الذين حاموا عن جيرانهم المسيحيين واحسنوا الى المنكوبين والتحقيق عن الذين تقع عليهم تهمة الفظائع وقد جرت بمكيدة الاتراك . ثم ان في هذه الآثار مادة لبناء تاريخ الاستقلال

العـادل يجعل مراحمه بعيدة عنك ويجعل يومك اشر من صادوم وعامورة .

قطع العلاقات بين الباشا والقناصل

ان مسيحيين الشام من حين حركة الجبل وهم في شدة المخاوف من اسلام بلدتهم وذلك لما ناظر لهم من سفاهتهم عليهم الغير معتادين عليها منذ سنين عديدة وكلما كانت احوال الجبل تتزايد عكساً على مضادته كانت احوالهم بشأنه ذلك حتى الجأتهم الضرورة ان يلازموا بيوتهم نحو اربعون يوماً متجنبين المخالطة مع الاسلام بالاسواق والاشغال الا ما كان تحوج اليه الضرورة جداً وكانت التنبيهات في الكنائس مستديمة عليهم لقطع كل سبب واحتمال كل امر . وكانوا خائفين جداً جداً من حركة تحدث بعيد الاضحى واستدعوا

السوري واللبناني فانه لم يولد الا بعد الارجاع والمخاض وكان بدؤه في تلك الايام العصيبة ولا بد لفهم غاية الادراك من اضرام نار الفتنة والقضاء على العنصر المسيحي بالفناء من ان نتذكر كيف انسلخت عن الامبراطورية العثمانية اقاليمها الغربية فانفصلت واستقلت ومنها دول البلقان . ولما كان العنصر الوطني المسيحي هو الذي عسّ غالباً واشتعل بالشعلة الوطنية الاصيلة في بلاد البلقان خافت الدولة من امثال تلك الشعلة في سورية ولبنان مع كون اهلها المسيحيين قط لم يتسلحوا عليها بالعصيان فظنت جهم السوء وفكرت انها تقطع الشر من اصله اذا ما لم تبق في البلاد الا على العنصر الاسلامي . ولكن جاءت نتيجة سياستها على خلاف المطلوب فكما أن الفتن آل امرها في البلقان الى تحرير دولها وجمع شتات اهلها وعناصرها من مسيحيين ومسلمين تحت لواء الوطنية القومية كذلك جرى في بلادنا اذ ان الجامعات المختلفي المذاهب التوحدي اللغة والمصالح بعد ان فهموا ما كاد لهم الاتراك من المكايد ليسلكوا على الاعناق انتبهوا من غفلتهم واصبحوا يتآخون على حفظ بلادهم واستقلالها من كل غير اجنبي وتحررت سورية ولبنان كما تحررت بلاد رومانية وبلغارية وبوسلافيا واليونان . . . من نير بني عثمان بسوء سياسة بني عثمان وتقسيمهم بين الرعايا فآل الامر جهم الى توحيد صفوف الرعايا عليهم وخلع نيرهم . والنتيجة من ثم ان الاستقلال الذي تتمتع به مرهون دوامه بدوام الاتفاق والاتحاد بيننا ، على اختلاف عناصرنا ومشاربنا ، وكفى بهذه العبرة مبرراً لما نذكره بالاسف عن حوادث الشام المؤلمة . ونحن نروي على علاتها كما هي في المتن المخطوط لكننا قسمناها بنوداً وعنوناها بقلمنا . (راجع في هذه المادة ما نشره الاب شيخو عن شاهد عيان في المشرق ١٩٢٦ ص ١ ٨ وبعدها : نبذة مختصرة في حوادث لبنان والشام (١٨٦٠-١٨٦٣) وراجع ايضاً في المكتبة الظاهرية في دمشق مخطوطة [عام ٦٦٦٨ خ] حادثة الستين للحسبي .

محافظين من الحكومة الى ضيافتهم فأسعفتهم بذلك ونزل للحارة محافظ ومعه نفر ٥٠٠ ومضى العيد على سلامة ولكن قد تكلفوا الى مبالغ نقدية يشان ذلك بالسترة الى ان والي الشام احمد باشا الذي عليه ايضاً رتبة السر عسكر سيريا كانت احكامه بغاية النظام بأولها والنصارة كانوا بكل محظوظية منه مع القناصل للغاية جداً جداً وبعد واقعة الجبل تغير وكان التغيير عظيم من الشيء الى ضده فكانو القناصل لمدة هذا الخوف يستدعو منه التأمين عليهم وعلى النصارى رسمياً فكان يحاولهم مشافهة ان بالوقت الحاضر هم في امان وبعده لا يعرف حتى انقطعت بينه وبين غالب القناصل المواصلات الرسمية وكلهم قد اختاروا يورغاكي سبرطلي قنصل الاروام ان يقابله بالمواصلات الرسمية عن العموم فشافهة الاسلام بلغة اعلامها حتى صارت اولادهم يرسمو الصلبان بالازقة والاسواق وعلى الحيطان ويهينوها بكل اصناف الهوان وكلما صادفوا مسيحي في الطريق مارًا يجبروا ان يفعل نظيرهم وكانوا يعملوا الصلبان ويعلقوها في ارقاب الكلاب ويسموهم بتبارك ومطارنة وخوارنة لكل كلب اسم وكذلك كانوا يسموا الكلاب باسم حضرات القناصل واكابر النصارة ويغنوا بهذه الغنية :

يا بطرس بشر نخله والدروز اخدوا زحله
مد رقبتك يا نصراني واحسبها قرمة نخله .

وكل هذا تحتمله النصارة ولا تبدي شيء وهي صامتة ورداياً ليل ونهار يطرقو الابواب عليهم ويطلبو اكل وشرب ومشروبات وخرجية وياخدو كل ما يريدوه والحكم مهاون منهم .

رضا باشت بيروت كان قاعد بالحازمية يطلعوا لعنده القناصل ويحاولهم وبالضد وهم لا ياخدوا من رايه خير بقي بهذا المحل والدروز طمعانه بنفسه حتى خرب الجبل جميعه وكانت نيته على كسروان ايضاً لكن ما توفق له خرابه حيث دارك الوقت . النهاية دخل يوم الاثنين في ٩ تموز سنة ٦٠ فنوعاً ما ضجرت النصارة من قعدة البيوت ونزلت غالبها الى المدينة لاجل قضي اشغال ضرورية .

بدء الفتنة

فالساعة الثالثة تكاثرت اولاد وشباب الاسلام بالاسواق وعلمهم تزايد جدًا عن ما تقدم ذكره فمر التفنكجي باشي وصار يتهددهم ويحمي الصلبان ويمر من هذا السوق لغيره يجد الحال عمال يتزايد فعند ذلك قبض على نفر ٦ وارسلهم للصراية ووضع الحديد بأرجلهم وارسلهم مع خمسة نفر ظبطية يكنسو بأزقة المدينة ولما وصلو لباب البريد كانت نحو الساعة السابعة فصرخ بعضهم يا سيدي الحجي مدد يحيى وكان ذلك امام جامع الامري يا علم الشرف مدد مدد الله الله مات دين الاسلام الحديد بارجلنا والمكانس بايدينا ورايحين نكنس مجارة النصارة الكفار الله الله مات دين الاسلام وقام دين الكفار فلما سمعوا اهالي السوق قاموا وقالوا الله الله على الكفار يا عزة الدين وقفلوا دكاكينهم واخذوا الاولاد من الظبطية وهجموا على حارة النصارة وابتدت جماهير الاسلام تتراكد بالاسلحة والفاسات وغيره فلما وصلوا الى منافذ الحارة وقفت امامهم كراكونات العسكر ووقع الضرب فقتل من اولاد البلد ثلاثة انفار وفيما هم بهذا الحال واذ حضر من الصراية مدفع طوبجية ووصل لحد كنيسة الروم واوقفوه على سفله وضربو مدفع بارود بالعالي فعند ذلك نهبت البارود سفايل السوق التي هي من قش وحصر ورجع المدفع حالًا لمحله وضربه النفير العسكري واذ العسكر الموجود الجميع التم وسند يراريده على بعضها . ورجع مع اسلام البلدة بالنهب والضرب بكل قساوة فلازم هنا تفهم جملة مبادي :

من المسؤول ؟

اولًا : اعيان البلد الموظفين بالمجالس وغيرها توجهوا لعند الباشا وقالوا له قم بنا نطفي هذا الشر فلم قبل والمفتي والقاضي قالوا نعطيك اعلام شرعي وفتوى ان تضرب المتعدي ورد الجواب علينا فما قبل ولا تحرك .

ثانياً : ان العسكر وقف منه في اول منافذ الحارة في كل منفذ كم نفر

وحين هجوم الاسلام على حارة النصارة فكانوا يتركوا التسليح يدخل والذي بغير سلاح كانوا يقولو له روح تسلح سلاحك وتعال .

ثالثا : ان اول من دخل الحارة كانوا الاكابر من افندية واغاوات وتجار ودكنجية ومن كل طاقم .

رابعاً : انه بنصف ساعة انوجد في حارة النصارة ما ينيف عن خمسة وثلاثون الف نفر وحالا اول هجومهم كانت على محلات طائفة الروم لانهم الوجه في الحارة فكانوا ينهبوا البيت ويرموا به الحريق حالا الرجال الذين في الاسواق انقطعوا وتراكدوا الى الخانات والقلعة وبعض بيوت اسلام واليهود احضروا الاسلام بالحارة ليسقوهم شرابات الثلج والبعض يدعوا لهم نصراء كثيرين من النصارة في الساعة المؤهلة تشتتوا ووصلوا لحارة اليهود واما الذي كان يصل لهناك لم يخلص . . . النصارة الذين في الحارات لما شاهدوا ان الاسلام من بعد نهبته البيت يحرقونه فكانوا يفروا هرباً من السطوح اما يتخبوا بالاقبية او بالابيار واما النساء والبنات تتراكد حقايا مهتوكات بحالة تذهل العقول وكانوا يلاحقونهم ويشلحونهم بالاسواق ووجد جماعة كثيرين يجمعوا النساء ببيوت مختصة بالاسلام واما الاكراد مع اهل البلد يأخذوا كل حسناء من بنت ومره واولاد وهذا في اول يوم لم صار فيه سبي ولا قتل سوى نحو مايتين نفر وصارة الكاثوليك تأمل انه لازم الحكم بتلافا الامور والقناصلة تعمل شغل اطرافها وكان ليلا مهولا يا لطيف قلنا ان غالب رجال الروم ونساءهم خاصو والذي توقع ليلا شيء مهول وبه صار القتل المريع والفسق الشنيع والسبي للعراير وكان دخانه ولهيب النار يضاعف الوفا عن لهيب اتون بابل حتى على نظر نوره حضروا بذات الليل وثاني يوم جميع اهل الضيع المجاورة الى الشام من مسافة ساعة الى ثلاثة ايام لناحية المزاريب وثاني كنت تنظر نحو مايتين الف بحارة النصارة لاجل النهبة والقتل والسبي وخطف البنات والاولاد وذلك من اسلام البلد والعربان وبعض الدروز ثم اشتد القتل جداً بسبب المحاماة عن السبي للبنات لحسنى او خطفهم مع قتل الاولاد ورمي الاطفال ضمن لهيب النار وبعد نهبة الكنائس رموا بهم الحريق مع مدرسة البنات والاولاد ودار البطركخانه

وكونسلاتو روسيا وقتل بها خليل حنا شحاده الترجمان . الغاية دام الحريق والقتل والسبي مع النهب الى نهار الجمعة مساء الذي فيه هاجوا وادموا كثيراً حيث لربما يكون ينيف عن اربعة الاف وخمسماية نفس مقتول ومحروق وقد دام عملهم هذا احدى عشر يوم بلياليها والنار في الحارات متقدة ولما نظروا ان بعض الحيطانه والبيوت ما اخربها الحريق جداً وانه يمكن قيامها فاخترعوا طريقة الهدم وصاروا يهدموا والنتيجة انهم ابقوا الحارات جميعها مقدار الفين وتسعماية دار ككوم رماد وتراب والبلاط قلعوه والمياه غوروها وعطلوا مجاريها الحدايد التي بقيت اخذوها جملة الكنائس عدد ١٣ بطركخانه عدد ٢ ثم قلايات ارمن وسريان وافرنج عدد ٥ خلصوا ارض الحارة جميعها وفتحوها لاجلها اخذوا الطابو منها واذا عاد النصراني للحارة لم عاد يعرف اين كان بيته مطلقاً حيث كتفصيل الجزار واتقن وهكذا قد تفننوا بالسبي وهتك العرض ان دخلوا خمسين على بيت فلا كثر بفسق بعرض الموجودين به وان تركوهم ولم اخذوهم يضاً يدخل خلافهم حتى الكثيرين من نسا الذين بنات ماتو وقتل ستة وثلاثين خوري من عندنا اولاد بلد وغربيه . وجل تاجر اسمه محمود ركاب مع ولده من التجار الملاح قتل الخوري نخائيل الفرا بعد ان اخذ منه قيمة دمه خمسين الف غرش قتله في داره على البحرة وهكذا الباقي وماذا عسى اشرح لكم عن ذلك فتصوروا بفكركم مهما قدرتم واظن لا تصلوا قيراط مما توقع وان اكتب عاماً كله كاملاً لم استوفي كلما توقع بالشرح التفاصيل من اول يوم جميعهم سلموا واختفوا في بيت مولاي عبد القادر المغربي وتنصل الانكليز وحده الذي كان يتخطر بالاسواق وما عنده وهم بشي . كونسلاتو فرنسا وبروسيا لم يحترقوا لكونهم بسلف جارة اسلام كونسلاتو روسيا يونان اميركا بلجيكا اولاند وغيرهم لم يبقى لهم اثر .

عبد القادر الجزائري

مولاي عبد القادر كان عنده ستماية مغربي حاضرة وصار يرسلها من اول ساعة الشي للحارة تجيب كلمن عثرة به من النصارى رجال ونساء واولاد وكان المغربي يشهر سلاحه ويقط امام خمسين ولا احد يقدر ان ينظر اليه وتكاثرة

المغاربة عنده لحد الف وحماية نفر وهذا هو عملهم وهو قاعد على سجادة على باب داره يطمن ويأمن الوافدين اليه وكلما وفدة اليه وفدة يعطي البخشيش لجالبها من ليرة الى خمس ليرات وكلما كثر العدد عنده يرسله منه مع اتباعه الى القلعة موضع داير القامة من عنده حراس مغاربة ، كان في اول ساعة الشر هجم بن معه على القلعة واخذو نحو الف بارودة صلدات وفرقهم على جماعته .

ثاني يوم الحاكم ارسل عسكر يجمع اين من وجده من النصاره بالخانات وغيرها ويحضرهم للقامة فكانوا اذ فرضنا عشرين عسكري يجيبوا للقلعة عشرة نصارة يصالو خمسة لباب القلعة والخمسة تعلقوا بهم الاسلام من بين ايادي العسكر ومغربي واحد يجيب خمسين نصراني ولا احد يتعارضهم ابداً ولا فعل .

اهل الميدانه

اهل الميدان الذين حمو نصارة الميدان من كل ضرر وامنوهم وكانوا الاغاوات يحاموا ايضاً عن نصارة البلدة واي من وجد يأخذوه لعندهم بالحفظ والتأمين ويبقى عندهم بكل رفاهية وكانوا يحضرو القلعة ايضاً يطلبوا بعض اصحابهم وينادوا منادات خصوصية من يريد ان يزورهم فهو يجئ من انفسهم وكثيرين راحوا لعندهم وعاشو برفاهية وفيما هم كذلك نزلوا الدروز لبوابة الله بالميدان وطلبوا ان يتسلموا النصارة الموجودين بها تيتلوهم فطامو اغاوات الميدان ومعهم نحو الف شب خيالة وقرابه وقالوا لهم انه غير ممكن تسليم هولاي لانهم في عهدهم وذمتهم ويفدوا ارواحهم امامهم فلجو الدروز بالتسليح عند ذلك تظاهروا الميادنه اكثر وانفرد خيالة ورجمة للميدان لتطرح الصوت فالدروز لحظوا ورجعوا بشهامتهم ونزلوا البلد من محلة اخر وبدو يوشو اسلام البلد ان تطلب النصارة الذين بالميدان فتحركو المذكورين لهذا الطلب فوجدو ان هذا الحرف لا يتقري فسكتوا .

في القلعة

القلعة اجتمع فيها الف ١٣ فوق بعضهم مثل كبس الزيتون حفـاة عراة مكشوفين الروس لان ما وصل للقلعة احد الا وهو عريان ان كان ذكر او انثى فالحكومة وقبت جراية لهم كل يوم رغيف ونصف ونصف خيارة وشقفة جبنه لا غير .

كثيرين من النصارة اختبوا في بيوت الاسلام معارف واصدقاء وغالبهم البعض قتلوهم والبعض طردوهم خارج الدار حيثما كان الجزار واقفاً متحضراً للذبح وبعضهم استسلموهم ليقتلوهم فاسلموا وسلم وبعضهم من حفظ النصارى حباً لله وبعضهم حباً بسلامة العاقبة وبعضهم كان حامي الذي عنـده ويغيب ويحضر ويقول لهم ذبحـت كذا وكذا من الكفرة ونهبت كذا وكذا وفضحت كذا وكذا واما انتم لا تخافوا في ذمامي الغاية كانت بانواع مختلفة سلامة من سلم منهم كثير من البنات الذين تزوجوهم خلا عبارة السبي الكثيرة العدد من المايـة واحد الذي شاف اعياله اول يوم والباقي من بعد يوم ويومين الى عشرة وخمسة عشر يوم وهولاي يا لطيف كانوا بالسبي الظوري وكما يقولو البعض من الاشوام لا بل من غالبهم ان جنس النسا من المايـة واحدة لم تسلم من هذا العارض حتى ان كثيرين من البنات ماتو من توسيع الجرح في بكارتهم . وما كفي حضرة الاسلام بافعالهم حتى انهم صارو يحضرو للقلعة متمسكنين وبايديهم محارم او قفف من الفواكه يطرحوا ذلك امـام الموجودين بالقلعة وهولائك من عظم الجوع وحباً بالاولاد كثيراً كروا ويتهاجموا على الفواكه حتى يطو بعضهم بعضاً محتسبين ذلك اكرم الجواهر الثمينة ومن بعـد ذلك يدخلوا ايضاً الاسلام للقلعة نعم بلا سلاح لانهم متمسكنين ويدوروا يتفرجوا على هذه المناظر المتنوعة الاشكال وخاصة الحريم الذين منهم المقصومين الاذان لاجل الحلق الذي كان باذنهم وبعض مقطعين الاصابـع لاخذ الخواتم وبعض منهم مقطوعي المفاصل لاجل اساورهم ولكن هولاي ليس كثيرين جداً حيث يوجد من كل شكل ثلاثون للاربعون الغاية في افتقادهم هولا النسا والبنات جيداً يعلو وسائط ان يفهمو اسامهم وعيال من هم وهل رجلهم معهم او لا

او الاخ ام الابن وهلم جرًا فمن بعد معرفتهم يروحو ومن ثم بعد ساعتين يحضرو بازيا مختلفة اكابراليه وفي دخولهم للقاعة يصرخوا للحرمة فلانة حرمة فلان بنت فلان ام فلان اخت فلان تعالي فتلك باالحال تحضر فيقول لهم يـاب عليك زوجك او ابوك او ابنك او اخوك وهو بالصحة والامن عنـدي بكل رغد وباله عليك ولي يومين افحص عنك له وهولاكي كان بالف خير يريـد تحضري حالًا لعنده ليرتاح باله من نحوك وباعث لك هذا الايزار او القطا ويعطيها اياه فتلك التي تسمع هذا الكلام تطير فرحًا حيث لم تصدق ان هذا الانسان بالحياة فتروح هذه مع هذا الماكر الذي يستعملها من يوم الى عشرة هو ورفاقه ويرجعها بعد ذلك الى القلعة مع غيره ليوصلها حيث باب القاعة مفتوح وهذا بعد ان تكون اكلت باول مرة او لم يصيبها ذلك اولًا فتقع بهذه الحيلة هذا وبعض الحسناء لم يرجعوا ابدًا ماذا عسى اشرح اي عقل وطبع بشري يحتمل ذلك واي قلب لا يلوي ودمعة لا تنشف على هذا المصاب الجسيم قد شبعت الاقطاط من اكل القلفات لم تجد ضيعة خالية من بنات الشام ونسائها خطفًا.

بيت الحصي

رجل يدعى انطون حمصي بنى دارًا وتكلف على قاعتها واحدة الف ٧٠ خلا كلفة الدار وحده فتصوروا اي قاعة دار هي ويوم السبت خرجت منها المعلونة الذين كانوا يشتغلوا بفرشها ويوم الاحد قفلها صاحبها بناء انه يوم الاثنين ينتقل اليها فنهار الاثنين هي اشتعلت دفعة واحدة هـذا الانسان مع اولاده عندنا الآن الغاية وعلى ذلك قيس.

فؤاد باشا في بيروت

بعد خبر الشام بكم يوم حضر لهنا[1] دولتلو فؤاد باشا وزير الخارجية المعظم وكان حضوره لمسئلة الجبل فقط واذ هو بازمير بلغـه هذا الخبر ومن بعد ان اقام هنا ايام قلائل توجه للشام لكن قبل توجهه ارسل استدعى احمد اغا الذي

(١) الى بيروت ، مما يدل على ان المحرر كتب فيها رسالته.

كان مشير الشام فحضر وحالاً اخذ نيشانه وسيفه وارسله للاستانة بالترسيم وكذلك ارسله خورشيد اغا والي بيروت تحت الترسيم كذلك مسك كاخية هذا واحد افندي ناظر الاملاك وضباط العساكر في دير القمر وحالاً وضعهم تحت الترسيم . ووضع باشا موقتاً مصطفى باشا اميرال البحر واعلم جمهور القناصل واستدعى طوبيا مطران الموارنة ببيروت وانعم عليه في نيشان احمر وازاروه القناصل واحسن ملتقاهم .

فؤاد باشا في دمشق

ومن ثم توجه الشام مع السر عسكر سوياً بعد جلوسهم نصف ساعة بالسرايا قاموا دولته والسر عسكر والمشير الجديد مصر باشا وتوجهوا الى حارة النصارة وبعد ان شاهد يبكي ويبكو معاه . ثم عاد راجعاً الى القلعة وبحال دخوله وجد النساء والبنات صفوف على الجانبين والاولاد امامهم والرجال خلف الكل والكل ضاجين يبكا وعويل مذيب قلوب الحجرية فلما شاهد هذه الصفوف تهاطلة الدموع ونادبة ما جرى بها من القتل والسبي والخطف للبنات مع حريق اطفالهم فابتدى يبكي ولم يمكنه يستقيم وتمشى لحد اخر القلعة حيث اعد بالطرف الاخير مقعد لجلوس من يحضر من طرف الميري وهناك جلس ووقف امام دولته كم واحد من كهنة ومعتبر من طوائف النصارى وبعد ان جلس قال انا اعرف ان مصيبتكم كبيرة جداً وجروحاتكم بليغة واهانتكم قوية لكن هذا كله صار ليس لكم فقط بل للدولة العلية ولهذا ارسلني سعادته لكي اعطي المراهم اللازمة لهذا الجرح العظيم وانشاء الله اتمم ذلك واكثر من هذا لم اقدر اكلمكم لان قلبي حزين جداً وصدري ضيق على ما اعتراكم وشاهدته من احوالكم ولكن الله ينظر وبدا ان يبكي ثانية وقام راجعاً وبعد ان رجع ونزل السلالم وتمشى بين الصفوف تعلقته امرأة بحالة يرثى لها وطفقت تصيح وتبكي وتقول امان افندم زوجي واولادي شباب وابنتي ضبية عدمت الكل وكنت غنية اصبحت فقيرة وتبكي جداً فعند ذلك ضج دولته بالبكا ولم يقدر يكلمها بل قال لها اصبري اصبري واومأ بيده اليها

وتوجه الى السرايا وبعد وصوله لم يقرأ فرمان ولا شيء بل حالاً جمع جمهوراً كبيراً من اعيان واجرى معهم المحادثة الاتية :

« العثملي اذا وبر »[1] .

يا اهل الشام انا مرسل من طرف جلالته مولاي السلطان مفوضاً ومن ثم مرخصاً بابطال وخرق العوائد وبكل شيء وانتم بفمالكم هذا قد اهنتم جلالة السلطان ودين الاسلام يا اهل الشام جلالته يطلب مني اعرض لمسدته حقيقة كل شيء واسبابه وتوقيعه فافعالكم هذه بالاصارى على اي مذهب فعلتوها اي مذهب وشريعة حلل لكم هذه الفواحش فسكتوا فقال لا ارضي بالسكوت بل اريد اسمع الجواب بصوت حي . اعلى مذهب وشريعة الدروز . لا افندم . اعلى مذهب النصارى . لا افندم . اعلى مذهب المجوس لا افندم الملكم فعلتم هذه القبائح والفواحش على مذهب عبدة الاصنام والشمس والقمر لا افندم فاذاً كيف اعرض لجلالته كيف اقول لمظمته ما قد عرفت ماذا احرر واعرض لسيرته ساحرر ان اهل الشام فعلوا هذا العمل وارتكبوا هذه الفواحش الواهية على المذهب الجديد الذي اخترعوه لانفسهم على الشريعة الجديدة التي رتبوها لذواتهم نعم نعم نعم هذا هو الحق وهكذا ينبغي لي ان اعرض الدولة العلية التي اهنتموها في العالم . يا اهل الشام ان الدول العظام في اوقات الحروب اذا سمحت باليفها تسمح بها ساعة ٣ ومعظمه ساعة ٢ فانتم يا اهل الشام فعلتم ذلك خمسة عشر يوم مع لياليها ما ابقيتم لا على الدين ولا على الدم ولا على العرض ولا على المال فقد هتكتم الاربعة اسرار التي كل الشرائع تامر بحفظها وتنهي عن هتكها . بماذا اذنبوا معكم وامنكم النصارة اي حق لكم لو

---

(١) هذا المثل كان سائراً بين الناس على عهد بني عثمان في بلادنا وان حكمهم فينا دخل في خبر كان ولكن التاريخ ديوان العبر كما يقول ابن خلدون وفي قراءته يستفيد المثالف من حوادث السلف . وقد رأينا ان نروي ما جاء عن وزير الخارجية العثماني ودهائه في تلك الظروف الحالكة وكيف توصل وهو التركي الى اطفاء الحريق الذي اضرم الاتراك ناره . وان الاخبار لمحزنة مؤلمة لكن عبرتها مفيدة لنا اجمعين مسيحيي ومسلمي سورية وخلاصتها اما ان نرضى لبعضنا بحسن الجوار والاتفاق والمحبة والا فيدخل بيننا شيطان التفريق كما دخل آنذاك مما آل امره الى الخراب ولا حول ولا قوة الا بالله !

كانوا مذنبين ان تفعلوا معهم هذه الافعال اي سلطة لكم لحكدا افعال اي اوامر عندكم من السلطنة السنية بكلها فعلتوه انتم الذين وطيتم شرف دين الاسلام واثبتم [كذا] لانفسكم

امان افندم لا تظلمنا لا ذنب لنا نحن لان الذي جرى هو من الجهال. لماذا عقلاكم لم تمنعهم . لم يسمعونا. هذا محال لو لم تكونوا انتم الاصل والسبب لما تجاسروا هم بمثل ذلك لا تظلمنا افندم لم يكن لنا اختلاط والقليل منا من الجهال عمل ذلك والكثير من الدروز والعربان والاكراد وغيرهم هذا محال لان اولئك ما لهم دخل هكذا في مثل هذه المدينة وقد يظهر لي ان حضورهم واشراكهم معكم هو تحت رابطة التي طالما سهرتم عليها ليالي واصرفتم اوقات حتى ربطتوها ولولا انكم تفتحوا الابواب لما تدخل هكذا اغراب الستم انتم يا اهل الشام الذي ابتديتم اولا . جاويني نعم افندم بعض الجهال لا لا كل الجهلا والعاقلين وسوف كله يظهر للوجود يا مجوس يا يزيد ولاحال ابرم بعقد مجلس ولكن لا قهوة ولا دخان وكان يوجه عبوس وبغضب شديد جدًا وطلب منهم المنهوبات والمسلوبات وان بده يعرف اسامي المذنبين والمشتركين بهذه الافعال النجسة والقبائح واستحضر مختارين الحارات وامرهم ان ينبهوا على اهل الحارات برد المنهوبات وكل انسان يحضر شيئاً تحرر ذلك الشيء واسم محضره ومن اي بيت هو ووضع بكل حارة امين لاستقبال المنهوبات والتفت الى الاعيان والمختارين سوية وقال اريد اعرف جميع اسماء المجرمين اخبر لكم من ان يعم البلا جميعكم فقالوا افندم غدًا نحضر لك قوائم بالاسماء التي نتحقق شراكها بالحفظ . خذوا ورقة واكتبوا لي حالا . امهلنا لغدًا نجري ذلك لماذا لم يكن الان والساعة لاننا يلزم نحقق الاسماء ونختبر المشترك والغير مشترك ونعرض لدولتكم بالحقيقة . مناسب غدًا سريعاً . وخرجوا كلهم .

وماذا جرى في الغد ؟

ثاني يوم حضروا وقرروا عن نفر نحو ٣٠٠ فقال لا لانه الذي اتوجد في حارة النصارة باية الف كما تقولو فا هذا الذي تعرفوني عديده الان . افندم نفحص بعده ونعرض فجاوبهم انتم تعرفوا الكل . لا نعم نعم لا بد

افهم كل انسان دخل الحارة ولهذا الفعل يلزم تحضروني بالورق عن اسامي الجميع وعقد ديوان لحد المغرب لم احد عرف غايته انما ثاني يوم بدا يتظاهر نهيب مرمي بالاسواق شي عديم القيمة فصاروا يجمعوا المتنيين بذلك ويحرروا وثالث يوم اطلق منادي انه بظرف ثلاث ايام ان لم تحضر المنهوبات كلها والا تنكبس البيوت وتنظبط بما فيها فعند ذلك صاروا يوردوا احمال وكل من ورد شيء يحرروا اسمه او اسم المتاع واسم البيت الذي اخذه منه فعند ذلك لم عادوا احضروا شيء خوفاً من ان تكتب اسمهم بل صاروا يرسلو مع النسا وبذلك الليل امتلت الاسواق وبين البيوت من السلب وكذلك كانوا يرموا بالنهوره فثاني يوم اجتمع كله وجميع الاشيا القيا الغير الثمينة ولا حضر شيء من النقود فكرر المناداة وعمل ديوانه وطلب الشيء الثمين والنقود وكان كل مجلس يحتمل من ساعة ٦ لحد ساعة ٨ جلسه واحده .

النصارى ينزحون عن الشام

ورابع يوم استدعا الذين في القلعة واستسمح النصارة بالخروج من الشام لبيروت فارسلهم بالف بغل واستاجروا خلافه ودفع الاجرة هنا فورد قفل بحري ثلاثة الاف نفر نصراني محافظ عليه عسكر شاهاني فعندخروج هذا القفل من الشام ضاجت الاسلام وقالوا لا بد من شيء وحضرو الاعيان لمقابلة دولته قايلات امانة افندم دولتكم الباين ساع للنصارة كلها تخرج من الشام نعم نعم لماذا افندم هكذا لعل افندم بنية دولتكم علينا بشيء . لا يخصكم تعرفو ضميري . لعل الدولة العلية ترغب بنا عكروهاً . ولا لازمكم تعرفو فكر الدولة العلية . افندم ان جسن بنظر دولتكم ان تبقى النصارى ونحن نعطيهم بيوت وخانات لمسكنهم كم بيت تعطوهم مايتين بيت وخانين يا قليلين الادب افرضوا انكم تعطوهم اربعماية بيت واربعة خانات فالناس الذين حرقتم لهم الفين وستماية بيت اهل يساعهم اربعماية بيت وعشرة خانات اذا وقفوا بهم على القدم فقط . افندم نتدبر بهم رويداً رويداً — لا لا فلترسلهم الان الى بلاد الاسلام اهل الدين والعرض كما بين اخوتهم النصاره حتى يتعزوا في بعضهم

وتنجبر خواطرهم من الكل وحتى دبرتم لهم بيوت تكفيهم عوض بيوتهم فسترجعهم . انا اريد المنهوبات جميعها والا افعل ما فعلتموه اريد تعطوني اسماء الناهبين اخير من ان يروح الصالح بجرم الطالح وشدد عليهم وعلى مختارين الحارات تشديداً بليغاً وقد ابقاهم بهذا المجلس لبعد الغروب حتى انصرفو وبعد انصرافهم ليلاً فرق عسكر على جميع بوابات البلد ودايرما بدورها وذلك في ٢٥ اب سنة ١٨٦٠ ووضع بين كل قراقول وثاني واحد ثالث وارسل اورطة عسكر اوقفها خارج البلد في طريق جبل اللجاه وامرها ان لا تدع مسلماً او نصرانياً ام يهودياً يمر بتلك الطريق وهذا قاله للكل والى اي من نفسد من حرسه احد فهذا الحرس يقع قصاص النيشان ولما اصبح الصباح فان المسلمين عرفت بذلك ووجدت ايضاً بوابات البلد قافلة فدخلهم الرعب والخوف وقافة افكارهم واستدعى انعقاد الديوان فحضروا وقدمو له قوائم ايضاً ولا زال التكميش مشتغل واللجج بطلب المنهوبات مشدداً ولا زالت حتى الآن تتوارد والديوان ينتصب يومياً للتحقيقات فبعد وصول القفل لهنا وحصولهم على المجابرة من الحكومة اولاً ثم من اخوتهم النصارة وردت اخبار ان دولته رمى تحت اليسق نحو الفين نفر من المجرمين من رتب البكاوات والاغاوات والافندية والتجار والاصناف والدون ومنهم من اهل القرى المجاورة وجارية التحقيقات بشانهم وفيما هم بذلك استأذنوا النصارة بالخروج ايضاً فاجابهم اذا كانوا يريدوا يبقو لان بده يصير عنده عرس ويعزمهم اليه فاسترحموا بالخروج فاذن لهم واحضر قافلة كبيرة ايضاً نحو ثلاثة الاف وكسور ومع انه ثلاثة ارباع النصارة نازحة فصار لكل هولا الحاضرين اللياقة والاكرام وحسن الادارة والمعاملة حيث الحكومة ساعدت في بيوت وسكناً ورتبت لهم مصروف يومي لكل نفر باره ٦٧ يقبض ثم يوم ١٢ ـ ٢٠ والطائفة كانت تقدم لهم ايضاً محلات وماكول ومشروب وكساوي تامة من الراس حتى القدم وجملة انفار منا قائم بخدمتهم ليلاً ونهار (خلي في بالك ان هذا جميعه فوق الفلاحين الموجودين هنا عدداً بليغ) ونرجع بخصوص دولت فؤاد باشا لا يزال بعمله ونهار الاثنين بجمعة السابقة في ٢٠ اب سنة ١٨٦٠ قامت الناس وخرجت للسوق لكن نصارى

فقط حيث الاسلام لم عادت تتظاهر كلياً فوجدت مشانق معلقة بها جملة اناس وكلهم نفر ٦٦ معلقين بالافراد بكل حارات البلد ويذكروا على بعض اسامي وهي مصطفى حواصلي وابنه واخيه وابنه وحسين بيك بن ناصيف باشا العظم محمود ركاب وابنه تجار عبده الصالح تاجر رشيد الحجار تاجر . والباقي من اهل اسباب وتجار واصناف وكانوا معلقين بالمشانق في كراسيهم وملابسهم وبذات النهار بالساعة التاسعة رمى تحت النيشان بالرصاص مائة واربعة عشر نفر في المرجه من جملتهم مصطفى بيك بن ناصيف باشا العظم اخي حسين بيك المشنوق بوظيفة يوزباشي العسكرية وابن شديد اغا اغاة الكراد علي بيك ميرالاي كان هو الحارس بحارة النصارة عثمان بيك بين باشي الذي كان ايضاً بنا جينا وحضر وهلة الشام بهندي افندي دعاس والباقي انفار عسكرية وباشي يوزق من الاهالي وانه كان يوماً شريراً على الاسلام الذي بقي الصراخ والنواح مالي البلد من كل البيوت لان ولا حارة الا وفقد منها بهذه المعمعة انفار وانه كذلك دولته خشب نحو اربعماية نفر وسيرسلها الى الاستانة لومان موبد . ثم امر اسلام حارة القناوات ان تفضي البيوت كلها لسكنى النصارة وقد انتقل منهم اليها نحو اربعة الاف كما بلغنا وسينتقل ايضاً ثم بوسطة يوم تاريخه ورد خبر ان دولته قبض على جملة ذوات وعلما منهم الشيخ عبدالله الحلبي شيخ الاسلام مفتي افندي نقيب افندي الاشراف محمد بيك عظم عبده بيك عظم الشيخ محمد يحاوي حسبي افندي وغيرهم [1] ومشير باشا الشام طلع بذاته الى

١) تصور هذا الاستبداد الظالم . كان مفتي الشام وقاضيها واعيانها الموظفون في المجالس قد اوعزوا الى الحاكم التركي بواجب « ضرب المتمدي » . فان قاموا بوظيفتهم لماذا التنكيل بهم ؟ – جاء في « حادثة الستين لمحمد ابي السعود الحسيب » (راجع يوسف العش : مخطوطات الظاهرية ص ١٤٥) ما نرويه بحرفه . قال (ص ٥ في قفايا) نعرض الى من نظر في هذا المجموع من سادة الاسلام الذين في عصرنا هذا وبعد حين من الصور الى يوم ينفخ بالصور يوم لا ينفع مال ولا بنون ولا عذر ولا جاه الا اتاه الله تعالى من قلب سليم في كل ذل وانكسار ونفع بل ضر في الدنيا الى احد من مسلم وذمي كائن من كان من مخلوقات الله تعالى حتى الحيوان له حق علينا يوم الله تعالى وقال الله تعالى ولا يظلم ربك احداً وبعده لما كان سنة ١٢٧٦ [١٢٧٧] في شهر ذي الحجة ٢٢ يوم الاثنين بعد الظهر الساعة ٧ وقد صارة الحادثة المدهشة في الشام التي شاع ذكرها ضرب بل امثال مع

احدى القرى تسمى جيروبد نهبها وحرقهـا وسلك شيخها وبعض من اهلها ورجع بالحفظ والسلامة وبذات يوم الاربعة خرجو المخشبين من الشام ووصلو لهذا نهار تاريخه مساء وعددهم مايتين وستة وثمانين الذين وصلو ونزلو حالاً للبحر بمركب حربي عثماني وكان وصله صباح تاريخه خمسة وسبعون نفر من اكابر الشام دخلو ونزلوا البحر وقليل الذين شافوهم وكان سبقهم برطيل الكي يخلصوا من كثافة وثقالة رفقاوهم الذي وصلو مساء ومع ذلك وبهم كم واحد معروفين طيب ومنهم اثنين افندية والباقي من الدون.

التعرضات على النصارى

قبلاً قد سمعنا اظنه اكيد من جملة السنه ان دولته فؤاد باشا قبلما سلك الاعيان المذكورين اخيراً استدعاهم الى جمعية وسألهم قائلاً ما قولكم والحكم

نصارة دمشق الشام وصار الذي صار حتى اجتمع من كل فج وعميق من دروز وبحيريه (وتيامنه) ويهود ومتاولة وارفاض وتورد وعبادين الشمس والقمر (وانار) ويزيديه وعرب ومن كافة الملل المشهورة في بلد صورية الذي القو الفعل القبيح مع اشقياء الموجودين في الشام من المدانسين بل الشام الذين ليس لهم ذكر من قبلي هذه الحادثة . . . [وقال الحسيبي (ص ٩) لما أخذت زحلة بالسيف] كثير ناس [في دمشق] زينو من الحارة حتى في القناوات زينو وارسل والدي وطفا القناديل وحيط على شيخ الحارة وضربو

وجاء (في ص ٩ بالقفى) بعد ذكر الحوادث المفجعة « واما ما كان من الداعي كنة في سوق الاردان وبعده توجهت الى حارتي القناوات قمدت قدام قهوة البيك وقعد معي شيخ الحاره اسمه راشيد وصار كل من حضر اخذ معه صاج [سلاحاً] نحيط عليه ونأخذ صلحه واوضعه بلقهو . . . فاكان عندنا كاتب يقال لهو ابو باسيل انطون الباشا فاسين والي بدا في البكا وبوس اليدين والرجلين على جبيان ولدُ وعيالو فاعند ذلك اخذ[ت] صلح [سلاحاً] وطلعت من الدار ومعا اهل الحارا وتوجهنا الى ان وصلنا عند بيت القادري [عبد القادر الجزائري] وجدنا عالم مثل التراب . . . وبعده دشرت ورجعت معي اكثر من عشرين نفر ومن جملتهم اولوتلو . . . والله تعالى مطلع وشهيد بعدلي حتى ترلة ولى دخلت يد الى النصاره ولا حارة النصاره ولا اذيت نصراني ولا مسلم (ص١٠)

« اما من اهالي العرض فمنذ ذلك صارو يبادرو في جلب النصاره وجميعهم في بيوتهم وعيالهم . . . وكانة النصارى الذى سلمو اول يجليوهم الى دار شيختنا عبدالله الحلبي زاده يوجد عند المذكور كل يوم نحو من الف نفر وبعده يأخذوهم شيء الى القلعة شي الى بيوة المسلمين وكان عبدالله بك ناصولي باشا مبادر في تخليص النصاره وتوصيلهم الى القلعة وكان

شرعاً وغرماً في جزاء القاتل فقال القاضي والباقون جزاء القتل وما تقولو عن هاتك العرض وسابيه . كذلك افندم . وماذا يكون السارق والناهب ومسبب الاضرار . تعويض الضرر والجزا بنظر ولات الامور . مناسب . اعطوني اعلاماً شرعي بذلك فحرر له ملا افندي بذلك شرعاً . وانت يا مفتي افندي افتي في عليه . فافتى له وعند ذلك قال دولته اما الدم فهو لي وجزاه لي بوجب فرماني هذا العالي واظهر الفرمان وقروه فاذا انا انتقم الكم . واما العرض والسبي فلمن هو اجابره للسلطان افندم مناسب فالذين ارتكبو هذه الجناية انا سارسلهم لمولانا السلطان وجلالته ياخذ حقه منهم واما السلب والاضرار فاخابركم بنا في ضميري انا اريد منهوبات النصارى ترجع لهم وانتم يا اهل الشام ما رجعتم من المايه واحد اريد ان ترجع لهم حاراتهم كما كانت او تعطوهم نظيرهم بنا يرتضو به وبيان لي انكم لستم مشتركين بشي من ذلك انتم تعرفو ان اصحابنا وجيراننا الفرنساوية قد وصلو لهذه البلاد لاجل اخذ

دايم في بيتو اكثر من من خمسة مايه نفر رجال ونساء وكل يوم المذكور يركب ومعه جملة انفر يحافظنه على خلص النصاره . . . واما ما كان من مصطفى بيك الحواصلي حيث كان اخذ من طرف الحكومة مايه كيطية عالبج كثير يوم المصلحة الى حد الساعة خمسي بل ليل لم كان يصير شي من طرف المذكور حتى صار له مشقا تامة من طرف الاشقيا واكادوا ان يقتلو المذكور وبعده الانفار الذي كانوا معه طاعو من يدو وصاروا مثل باقي الاشقيا يفعو ولكن دخل الى دار المذكور نصاره كثير وارسلهم الى القلعة [ص ٥٠ بالنفي] . . . استقام البغي فينا سبعة ايام يا لها من سبعة سود قتام الى اهالي البنى المدلسين بالشام من سايز المصار الذي روحو اهالي المرض في بنيهم سدق من قال الرحمى فحصصا والسيل فيهم

[وجاء احد الرعاع يغر اهالى القنوات على الهجوم] فاعند ذلك بلغ هذا الخبر الى السيد الوالد السيد احمد افندي حسيبي زاده فقام وبادر في ابنا اهالى القناوات (ص ٥١) واما ما كان من احمد باشا يوم الخميس في ٢٣ ذلحجي عمل مجلس [وتكلموا باس النصاره في القلعه « ومرادهم قتلهم »] فعند ذلك قام سيد الوالد وقال هذه المصلحة على لحانا واحدانا قام ارحل من كل الشام والذي يرحل معي والى لجيم . . . وقام هذا الحال الى حين دخل الوزير المعظم محمد باشا وكان دخول المذكور في بياض وبعده قر الفرمان في كل ضحك ولعب وحين تم قراية الفرمان ضربو فتاشي لي اجل ضرب المدافع كجرى العاده . . . وبعده قد طلع الى بيروت وزير يقال له فؤاد باشا لحل حادسة الشام والجبل وارسل المذكور مكاتيب الى وجه الشام كافة تشكرلهم على ما جرى منهم وعن ابنا المرض من حيث النصاره . (ص ٥١ بالنفي)

حقوقهم ويمكني ان اكون واسطة بينكم وبينهم وامنع قدومهم اليكم بشرط انكم تبنو لهم محلاتهم او تفرغو لهم بيوتكم التي ترضيهم او تعطوهم ثمن بيوتهم وثمن مساوباتهم وكلما تجمع من المنهوبات خذوه انتم وهذا كله اذا هم ارادوا وان انتم لم تريدوا اقول ما اقوله لكم فانا ساجري حقوقي هنا الباقية والذي يخص مولانا ارسله لعنده واجمع العسكر الذي عندي واخذ قدامي بقية الرهايا والذين قادمين لاخذ الثار هم ياتونكم بشان ذلك وتتصافوا معاهم على وجه فجاوبوه افندم كلا الامرين مخطر ونحن لا قدرة لنا على ذلك جميعه . لا اعرف افتكروا وجاوبوني . هل تريدو اكون بهذه الواسطة او ارفع يدي . امهلنا لنفتكر ثلاث ايام . لا ثلاث ساعات فقط . امان افندم يومين . لا ثلاثة ساعات فقط . قوموا واجتمعو مع بعضكم بجمع خصوصي وافتكروا كيف تجاوبوني قطعي وانا منتظركم فقاموا . وبعد مرور ثلاثة ساعات طلبهم فحضروا . فسالهم ماذا افتكرتم عساه يكون خيرًا لكم . لا بل ويلًا انتم سقتم لذاتكم جزاء جميل . انا المقدر كاين لا ينمحي . لا تلقو بايديكم الى التهلكة الخير من الله والشر من الناس السنن والشرائع هم سراجنا المنير الذي ينجينا من الزلق والعثرات . نعم افندم . خسين نعم افندم ماذا افتكرتو . افندم ان النصارى غدًا يطلبو منا مبالغ لا تقدر علينا الا الملوك . لماذا . الذي يكون رايح له بالف يطلب عشره . هذا لا يمتحن افندم يصير مجلس كرمسيون ان حسن باسر ذولتكم وكلمن المدعى بشي يعطي عنه البرهان والاثبات . ما شا الله لعل الواحد منكم كلما في بيته ويملكه هو خباه بشخصه ام بعضه ميراث من الله وبعضه من جده او اقرباته . نعم افندم . فاذًا والحالة هذه اي شهادة واثبات بقدمو غرماكم . اذا عشرة شهود نظروا انسانًا كسر صندوق اخر ومد يده اليه وشال ما امكنه ووضعه في جيبه او جرابه او اخرجه وكان الذي شاله قيمته الف غرش . وصاحب الصندوق ادعى ان بصندوقه مية الف غرش . والشهود تشهد ان فلان كسر صندوق فلان ونظرناه يشيل منه بيده فدعوى من الثابتة جاوبوني . دعوى صاحب الصندوق افندم . هذا هو حالكم وحال النصارى معكم فالذي

يدعوه عليكم ثابت فقط واحدة تلزمكم وهي كلمن يقور عن ثمن داره ومفقوداته يحلف يمين على اصول ديانته ويتقيد بذلك . ربما افندم يحلفون كذباً لاجل مضرتنا وتعريتنا فوق القدرة انا لا اظن . نعم افندم .

الدرهم لله

كما تظنوا بانفسكم ظنو بالناس وهم اهل كتاب وشريعة ومع ذلك فالدين لمن . جاويوه لله افندم . واذا حلفوا كذباً فنهم لله . افندم هذا شي بده ملك حتى يقدر يقوم به لا تقولوا ملك ولا سلطان لان الملوك والسلاطين ما فعلوا ذلك . انتم ملزومين به . افندم نحن لسنا مذنبين واذا الجهال والحكام اذنبت ماذا يعنينا . انتم كلكم شركا . انتم كلكم فعلتم . انتم كلكم سقطتم واعذاركم غير مقبولة عندي ولا عند مولاي السلطان ولا عند اصحابنا وجيراننا الفرنساويه وانتم لازم تتاكدوا انني معاملكم بالشفقة فاحسن لكم ان يكون كل قضاكم من يدي والا ياتون اليكم المستعدون .» (انتهى)

الى متى تنقضي يا مدة الزلات

تقطعت حلقات السنين العديدة بسبب الكوارث والنكبات التي حلّت في البلاد من جراء الفتن والحروب والزلازل والامراض فحالت دون اجتماع الاخوة المتواصل اسبوعاً وانقطعت من ثم عنا اخبار كثيرة كان يفيدنا ان نطلع عليها لما كانت تستمد من الازمة التي ذكرناها اهمية خاصة .

على اننا نستعيض بشيء نقصنا في هذه الناحية باخذناه عن وثائق غيرها منها ما جاء في مجموعة حوليات[1] جمعية الرسالة بين السنة ١٨٤٤ — ١٨٦١ في تحرير السيد باسه رئيس دير حلب الى السيد بوسون مساعد الرئيس العام في ١٤ تموز (ولم يأت ذكر السنة) قال عن زمانه ان الاخويات كانت مزدهرة واخصها اخوية القربان المقدس وان روح الاتفاق بينها كانت تتجلى باجمل

1) Annales de la Congrégation de la Mission. T. 190, année 1844-1861.

المظاهر . ثم استطرد الى الكلام عن احد الكهنة وقد غرّه الشيطان فجحد ايمانه ثم تاب وسافر الى لبنان.

واذ ان ذكر ذلك الشك العظيم لم يزل حيًّا بين المسيحيين في حلب نظم بعضهم قصيدة زجلية طويلة حفظها الناس وتسامروا على تلاوتها فوصلت الينا وفيها يفيض قلب التائب بعواطف الاسف والندامة فيندب حالته التعيسة بشعر عامي بسيط نرويه على علاته ليحفظ من الضياع وقد يحل محله الطبيعي في سلسلة الوثائق.

هي قصيدة مزدوجة البيوت كل بيت منها يبتدىء اوله بحرف من الاحرف الابجدية لذلك سميت الاليفية وقد لا تخلو من بعض الحشو ليتكمل بها عدد الاحرف التسعة والعشرين لكنها تصور صورة صادقة حالة ذلك المسكين الذي تدهور من اعالي الهيكل ثم نهض وعاد متذللًا مكفرًا عن ذنوبه . اليك الشعر وقد علقنا على كل حرف من الابجدية خلاصة المعنى في البيتين:

أليفية القسيس

الالف ذكر الموت

الى متى تنقضي يا مدّة الذلّات ابكي على ما مضى واندم على ما فات
يا نفسي كوني حزينة واتركي اللذات وتذكري بالموت من هو الذي ما مات

الباء وخز الضمير

بالله اتركوني حزينًا ابكي بكا المحزون واعطي دموعي ليوم الآخرة يكفون
وان انصف الدهر اقول للقلب يا محزون ابدات تقل الصدى بالجوهر المكنون

التاء فخ التجارب يصطاد القلب كالعصفور

تهاونت يا قلب من هو الذي ارماك كشبه طير وقع واصطادته الاشباك
يا من يريد الخلاص كن متنبه يا ذاك الفخ منصوب اياك من الوقوع اياك

انشاء الرجاء بعد اليأس

ترى لي مغفرة من بعد ذلاتي ولا انسان جرى اسه مثل جرياتي
لاني رأيت منامات عجيباتي من بعد الشدة مفاتيح الفرج تاتي

الجيم الاقرار بالمعاصي

جار علي الزمان وحطني ندمان لارتكاب المعاصي في خفا واعلان
يارب اغفر وسامح اي ذنب كان واغفر ذنوبي انا المسكين يا رحمان

الحاء تبعات المعيشة

حدتُ عن درجة مهدي وميثاقي والصبر مني فني مع ضيقة اخلاقي
من بعد ما كنت مع جملة ارفاقي جاء التعب لاخلاقي وزادت اشواقي

الخاء لم يرتدع لرادع وجحد دينه

خالفت قول عزول حين انهاني وردّني عن طريق المعاصي قلت عاداني
ليت شرب الراح بين خلاني سبيت عن مذهبي وفارقت اديانى

الدال دود الصبر لا يموت

دارت علي دوائر كشبه درفيله[1] وضاع عني شعاع النور في ليله
من بعد حسن التقى بليت بالحيره لا حيره باحكام الله لا حيره

الذال غيره يفرح في الاعياد اما هو فيكتئب

زيارة الانسان عند استقرار العيد مثل من لاقى عدوه في يوم الوغى صنديد
يصوم يصلي ويبدي النوح والتمديد يفرح اذا شاهد الاصدقاء بيوم العيد

الراء كأس المالم سريعة العطب

ربي خلقني لاعبده بالبر والتقديس وابعد عن الخطا ولا اسلك سلوك العيس[2]
ياويل من قد حكم في يده التمكيس تقاضيت قول الله واتبعت قول ابليس

١) حية
٢) الابل

الزين مصباحه ينطفئ كمصباح العذارى الجاهلات

زليت زلة ولاحد ذل مثلما انا انذليت ولا احد داري مثلما انا داريت
رفاقي جاهدوا وانا الشقي تخليت نامت مصابيحهم وانا عدمت الزيت

السين يخاف يوم الدينونة

سلاسل الحزن هيؤوها لتعزيبي يا مكتر همي ونوحي وتعديدي
من بعد ما كانت ليالي الفرح عتيدي باي وجه اتقي انا وسيدي

الشين يشمت به من كان ينصحه فلم ينتصح

شمتت بي عزولي وخلاني نضحني دهري ما بين اهلي واسيادي
من بعد ما كنت شبه السبع في الوادي قد غرقني الدهر وفصل بين ذخري واجادي

الصاد شعاع الامل ينبثق من الصلاة

صرخت الف آه من حزني على حالي لما وقعت انخات جميع قواي ومفاصلي
كل من يصلي اسأله بشوق يدعي لي عسى بدعواه يرثي الله لحالي

الضاد الزمان يؤدبه

ضاق ذرعي من تطعيم الدهر مرارته قد غرقني الدهر وذقت الزمان وطراته
سبحان من ذكت له الدنيا بعملته ان انصف الدهر لا تأمن لغدراته

الطاء ما كان اسعده لو ثبت في دعوته

طاب وقادي وارتفع عزي ونصري رضا لي الدهر اني دخلت الى قصري
لو كنت اعلم بهذا الوقت ابعدوا يسري ما كان بقا هذا القضا عليّ يسري

الظاء يود لو اصبح منسياً

ظلمت بقلتي يا دهر يا خوان يا اللي نزلت الحبايب بعد عز وشان
ان سألوك عن حالتي في اي شيء كان دع عنك كلام الذي سابق كان

---

١) الحبكة ما يشد به الوسط

الميم يطلب الصلاة

عذّبوني المدى واكثروا مصائب احزاني فضحني دهري ما بين اهلي وخلاني
يا اعز اصدقائي استودعوني الى الله لارتدّ الى ايماني

النون كان كالراعي الصالح فصار كالاص

غُبت لما علا حملي على الاعناق قد غرقني الدهر وقمت انا بالأحباك[1]
سبحان من ذلت له الدنيا من الافلاك شبه من دخل من الباب وخرج من الطاق

الفاء الشرور عواقب الذنوب

فعايل السوء ولدت علي الاحزان احرمتني الجنة واورثتني النيران
اش عاد حالي بعد ما صرت هوان بقيت حزيناً ونسيت لذة الغفران

القاف ابن كان واين صار

قد كنت قساً وكان لي كل يوم قدّاس طفيت يا اما جد الناس وشابهت بالنساس[1]
لما تداخل ضميري الفكر والوساس ضيعت عقلي واصبحت اشقى الناس

الكاف يعود الى التوبة

كانت افعالي مشرقة كالنور وكنت اخدم وقلبي ممتلئ سرور
يا قلب ارجع الى ربك بلا فتور بقيت حزيناً ونسيت فيج النور

اللام يعود الى ربه

لو كان قلبي يطاوعني لاصرخ آه ما كان يحمل من الاثقال ما يكفاه
يا قلبي ارجع الى ربك ولا تنساه ترضي الهك وتعمل بما يرضاه

الميم يذكر الوزنات في انجيل متى ٢٥

من كان داعي لذاته يحرم لذّاته يربح الغفران من كثر حساته
ويل الذي ما ربحت وزناته يطلب من الله غفران ذلّاته

---

١) دابة وهمية يزعمون انها على شكل الانسان (المنجد)

النون يستنجد بصلاة اخوته الكهنة

نوحوا عليَّ يا جميع اهلي وابكوني وبعد ما كانوا يجوا عندي ويهنوني
بالله عليكم يا قسوس النصارى تعينوني انا الذي كنت بينكم اصبحت مجنون

الهاء الندامة والبكاء

هذا الذي صابني من سوء افعالي ابدلت التراب بالجوهر الغالي
اين بقي عقلي لابكي على حالي ذليت ذلة ما كانت على بالي

الواو الاعداء الثلاثة الجسد والعالم والشيطان

ويحي على حالي ما كان هذا في قصدي لكنَّ افعال السوء ضيعت رشدي
كيف العمل اعداي الثلاثة بقوا ضدي ياخيبة المسعى يا نفس ان لم ترتدي

اللام اليف يوم الحساب

لابد ما يتجلى الحق سبحانه على الخلائق بانواره وبرهانه
وينصب الحق يوم الحشر ميزانه ماذا يجاوب الذي ضيع ايمانه

الياء التوبة والثقة بمراحم الله

يا نفسي قومي اشتري من موضع البتي واستغفري ربك من بعد ما اذنبتي
لانه رحوم وحنون ويردك موضع الذي كنتي

(له صلة)